صفة جزيرة الأندلس

منتخبة من

كتاب الروض المعطار

في

خبر الأقطار

وهو معجم جغرافي تأريخي

لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميري

جمعه سنة ٨٦٦ هـ .

عني بنشرها وتصحيحها وتعليق حواشيها

إ. لافي پروفنصال

أستاذ تاريخ المغرب العربي

بجامعة الجزائر ، ومعهد الدراسات الاسلامية بجامعة باريس ،

ومدير فخري لمعهد الأبحاث المغربية العليا بالرباط

دار الجيل

بيروت - لبنان

الطبعة الثانية
١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

مُقَدِّمة كتاب الرَّوْض المِعْطَار

قال أبو عبد الله محمَّد بن أبى محمَّد عبد الله بن عبد المُنْعِم الحِمْيَرِىّ :

الحمد لله الَّذِى جَعَلَ الأرْضَ قَرَارًا ، وفجَّر خِلاَلَهَا أَنْهَارًا ، وَجَعَلَ لها رَوَاسِىَ[1] أَلزمتْها استِقْرارًا ، ومنعَتْها اضطِرابًا وانتِشارًا ، جعلها قِسْمَيْن فيافِى وبحَارًا ، وأَوْدَعَ فيها من بدائع الحِكَم وفُنونِ المنافع ما بهر ظهوراً وانتشارًا ، وأَطلع فى آفاقها شموسًا وأَقْمَارًا ؛ جَعَلَها ذَلُولاً ، وأَوْسَعَها عَرْضًا وطُولاً ، وأَمْتَعَ بها شيباً وشباباً وكهولاً ، وعاقب عليها غُيُوثًا وقَبُولاً ، وأغْرَى بالمشى فى مناكِبها تسويغًا للنعمةِ الطُّولَى ، وتَتْميماً لإحسانه الذى نرجوه فى الآخرة والأُولَى ، إنَّ فى ذلك لعبرةً لمن صار له قلبٌ وسمعٌ وبصر وفهم مَنقُولاً ومَعْقُولاً ، إنَّ اُلسَّمْعَ واُلبصَرَ واُلفُؤَادَ كُلُّ أُولٰئكَ كانَ عَنه مَسْؤُلاً[2] ؛ أحمدُه على جزائل آلائِهِ التى والَى أَمْدادَهَا ، وأَحْصَى أَعْدَادَهَا ، وعَمَّ بها البريَّة وبلادَهَا ؛ وصلَّى الله على نبيه الكريم الذى زُوِيَتْ له الأرضُ فرأى غايتَها ، وأبصر نهايتَها ؛ وأخبر أنَّ مُلْكَ أُمَّته سيبلغ ما رآهُ ، وينتهى إلى حيث قدَّره الخالقُ وأنهاهُ .

وبعد فإِنِّى قصدتُ فى هذا المجموع ذِكْرَ المواضع المشهورة عند الناس من العربيَّة والعجميَّة ، والأَصقاعِ التى تعلَّقت بها قِصَّةٌ ، أو كانَ فى ذكرها فائدةٌ ، أو كلامٌ فيه حكمةٌ ، أو لها خَبَرٌ ظريفٌ ، أو معنى يُستملح أو يستغرب ويحسن إيرادُه ، أمَّا ما كان غريباً عند الناس ، ولم يتعلَّق بذكره فائدةٌ ، ولا له خَبَرٌ يحسُن إيرادُه ، فلا أُلِمُّ بذكره ، ولا أتعرَّض له غالبًا استغناء عنه واستثقالاً لذكره ؛ ولو ذهبتُ إلى إيراد المواضع والبقاع على

(١) قرآن (٢٧ — ٦٢) . (٢) قرآن (١٧ — ٣٨) .

الاستقصاء لطال الكتاب، وقلّ إمتاعُه؛ فاقتَصَرْتُ لذلك على المشهور من البِقاع وما فى ذكره فائدة ونكتفى عمّا سِوَى ذلك، ورتَّبتُه على حروف المُعْجَم لِمَا فى ذلك من الإِغْمَاض المرغوب فيه، ولِمَا فيه من سُرْعةِ هجومِ الطالب على اسم الموضع الخاصّ من غير تكلُّف عناء ولا تجشُّمِ تعبٍ؛ فقد صار هذا الكتاب محتوياً على فنَّيْن مختلفَيْن: أَحدُهما ذكرُ الأقطار والجِهَات، وما اشتملَتْ عليه من النعوتِ والصِّفَات؛ وثانيها الأخبارُ والوقائعُ والمَعَانى المختلفةُ بها، الصادرةُ عن مُجْتَلِيها؛ واختلَسْتُ ذلك ساعات زمانى، وجعلتُه فكاهة نفسى؛ وأَنْصَبْتُ فيه فِكْرِىَ وبَدَنِى؛ ورُضتُه حتى انقاد للعمل، وجاء حسب الأصل، فأصبح طارِداً للهُموم، مُلقيا[1] للغموم، وشاهداً بقدرة القيّوم؛ مُغْنيا عن مؤانسة الصَّحْب، مُنَبِّهًا على حكمةِ الرَّبّ؛ باعِثًا على الاعتبار، مُسْتَحْضِراً لخصائص الأقطار؛ مشيراً لآثار الأُمَم وأَحداثها، مشيراً[2] إلى وقائع الأخبار وأنبائها؛ ثمَّ إنّى قِسْتُهُ بالكتاب الأخبارىّ المسمَّى بنُزْهة المُشْتَاقِ فوَجدتُه أَعْظَمَ فائدةً وأَكْثَرَ أخبارًا وأَوْسَعَ فى فنون التواريخ وصنوفِ الأحداثِ مَجالاً حتَّى فى وَصْفِ البلاد فإنَّه إنَّما ذَكَرَ نبذةً منها وشيئًا قليلاً فى مواضِع مخصوصةٍ معدودةٍ، بلْ إنَّما عَظُم حَجْمُه بما اشتمل عليه من قولِهِ: « مِنْ فلانة إلى فلانة خمسون مِيلاً أو عشرون فَرْسَخًا، ومن فلانة إلى فلانة كَذَا وكَذَا »، أمَّا الخبرُ عن الأصقاع ممَّا يحسُن إيرادُه، ويلذُّ سماعُه، من خبرٍ طريف، أو وَصْفٍ يستغرب أو يستملح، فإنَّما يُوجد فيه فى مواضِع قليلةٍ معدودةٍ، إلى غير ذلك من عُسْرِ وجدانِ الناظرِ فيه بمَطْلُوبه بأوّل وَهْلةٍ بلْ بَعْدَ البحثِ والتفتيش.

وجعلتُ الإيجازَ فى هـذا الكتاب قَصْدِى، وحَرَصْتُ على الاختصار جَهْدِى؛

(١) ف: « ملقحاً ». (٢) كذا فى ف و م.

حتّى جاءَ نسيجَ وحدِه ، مليحاً فى فنّه ، غريباً فى معناه ، مبهجاً للنفوس المتشوّقة ، ومُذهِباً للأفكارِ المُحْرِقَة ؛ مؤنِساً لمن استولى عليه الانفراد ورغب عن معاشرة الناس ، ومع هـذا فقَدْ لُمْتُ نفسى على التشاغُل بهذا الوَضْع الصادِّ عن الاشتغالِ بما لا يغنى عن أمر الآخرة والمُهمِّ عن العلم المُزْلِف عند الله تعالى وقلتُ : هَذَا مِنْ شأنِ البطَّالين وشغلِ من لا يَهُمُّه وقتُه ، ثمَّ رأَيْتُ ذلك من قبيل ما فيه ترويحٌ لهذه النفوس ، ومن حسن تعليلها بالمُبَاح لِمَنْ ينشط إلى ما هى به أَغْنَى ؛ ثمَّ هو مَهْيَعٌ يسلكه الناسُ ، واعتنى به طائفةٌ من العلماء ، وقَيَّدَه جماعةٌ من أهل التحصيل ؛ فلا حَرَجَ فى الاقتداء بهم بلْ أقولُ : أعوذ بالله من عِلْمٍ لا ينفع ، وأَستغفره وأَستقيلُه ، وأسألُه التجاوزَ عن الهفَوَات ، والصفْحَ عن الاشتغال بما لا يفيد فى الآخرة ، فياربِّ عَفْواً عن اقتراف ما لا رِضًى لك فيه فأنْتَ على كلِّ شىء قدير !

حلّ الرموز

المستعملة فى التعليقات

---

* = ابتداء الإيراد .

ز = زائد .

ن = ناقص .

* * *

ت = نسخة مخطوطة من كتاب الروض المعطار ، كاملة فى مُجلَّدَين ، انتسخت بمدينة مَرّاكُش سنة ١٠٤٩ هـ ، ووُجِدَتْ بمدينة تِنْبُكْتُ بالسودان ، وهى الآن ملك الأستاذ مارتينو بياريز .

س = نسخة مخطوطة أُخرى ، مبتورة الأوّل والآخر ، فى أوراق مختلطة ، وهى محفوظة فى مكتبة السيّد محمّد بن علىّ الدُّكّالىّ ، بمدينة سَلا بالمغرب الأقصى .

ف = نسخة مخطوطة بغير تأريخ ، فيها أوّل نِصْفَى الكتاب ، وهى محفوظة بعاصمة فاس ، فى خزانة الشريف المحدِّث السيّد محمد عبد الحىّ بن عبد الكبير الكَتّانىّ الإدريسىّ .

م = مخطوطة أُخرى من النِّصْف الأوّل ، بغير تأريخ النسخ ، محفوظة فى مكتبة الشريف النقيب المؤرِّخ المولى عبد الرحمن بن زَيْدان العلوىّ ، بحضرة مِكْناس (المغرب الأقصى) .

* * *

ار = « صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس مأخوذة من كتاب « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق تأليف الشريف الإدريسىّ » أصدرها ر . دوزى ، م . ج دوخويه (لَيْدَن ١٨٦٤ م) .

ار س = « جغرافيا اسبانيا للإدريسىّ » تأليف باللغة الاسبانية لإدواردُ سَأَفِيدْرَا (مجريط ١٨٨١ م) أصدر فيه نصّ جزء من نزهة المشتاق للإدريسىّ فى صفة اسبانيا الجنوبيّة .

مق = « كتاب نَفْح الطيب للمَقّرِى » (القسم الأوّل) أصدره ر . دوزى ، ج . دُوقا ، ل . كرَهْل ، و . ورَيْت (لَيْدَن ١٨٥٥ — ١٨٦٠ م فى مُجَلَّدَيْن) .

ب و = مخطوطة جزء من « كتاب المالك والمسالك ، لأبى عُبَيْد البكرىّ فيه بعض فصول فى صفة الأندلس ، وهى محفوظة فى خزانة جامع القَرَوِيِّين بعاصمة فاس (رقم ٣٩٠ ح ل ٨٠) .

حرف الألف

١ – الأَنْدَلُس

هذه الجزيرةُ فى آخِرِ الإِقليم الرابع إلى المغرب ، هذا قول الرَّازِىّ ، وقال صاعدُ ابنُ أحمدَ فى تأليفه فى طَبَقَاتِ الحُكَمَاءِ : مُعْظَمُ الأَنْدَلُسِ فى الإقليم(١) الخامس وجانبٌ منها فى الرابع كإِشْبِيلِيَةَ ومالَقَةَ وقُرْطُبَةَ وَغَرْنَاطَةَ والمَرِيَّةَ وَمُرْسِيَةَ .

واسم الأَنْدَلُسِ فى اللُّغَــةِ اليُونَانِيَّــةِ إِشْبَانيا(٢) ، وَالْأَنْدَلُسُ بُقْعَــةٌ كَرِيمَةٌ طَيِّبَةٌ كَثِيرَةُ الْفَوَاكِهِ ، وَالخيراتُ فيها دائمةٌ ، وَبِهَا المُدُنُ الكَثِيرَةُ وَالْقَوَاعِدُ الْعَظِيمةُ ، وفيها مَعَادِنُ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ وَالنُّحَاسِ وَالرَّصَاص والزِّئْبَق وَاللَّازَوَرْدْ والشَّب والتُّوتِيَا والزَّاج والطَّفَل .

والأَنْدَلُسُ آخِرُ المَعْمُورِ فِى المغربِ لأَنَّهَا مُتَّصِلَةٌ بِبحرِ أُقْيَانُس(٣) الأَعْظَمِ الَّذِى لاَعِمَارَةَ وَرَاءَهُ ، وَيُقَالُ : إِنَّ أَوَّلَ مَن اخْتَطَّ الأَنْدَلُسَ بنو طوبال بن يافث بن نوح ، سكنوا الأَنْدَلُسَ فِى أَوَّلِ الزَّمَان ، وَمُلُوكُهُمْ مائةٌ وَخمسونَ مَلِكاً ، ويقالُ إِنَّ الأَنْدَلُسَ خَرِبَتْ وَأَقْفَرَتْ وانجلَى عنهــا أهلُهَا لِمَحْلٍ أَصَابَهُمْ فَبَقِيَتْ خاليةً مائةَ سَنَةٍ ، ثم وقع ببلادِ إفرِيقيةَ مَحْلٌ شديدٌ وَمَجَاعةٌ عظيمةٌ فَرَّقَتْ أهلَهَا ، فلمَّا رأى ملكُ إفريقية ما وقع ببلاده اتَّخَذَ مَرَاكِبَ وَشَحَنَهَا بالرِّجَالِ ، وَقَدَّمَ عليهم رَجُلاً من إفريقية وَوَجَّهَهُمْ ، فَرَمَى بهم البحرُ إلى حائِط إِفْرَنْجَةَ وهم(٤) يومئذٍ مَجُوسٌ ، فوجَّههم صاحب إِفْرَنْجَةَ إلى الأَنْدَلُسِ .

---

(١) ف : « الأقاليم » . (٢) ث و ف : « اشنانيا » . (٣) ث و ف : « اقانس » .

(٤) ث و ف : « وهو » .

* وقيل اسمها فى القديم : إِبَارِيَة ، ثم سُمِّيت بعد ذلك : بَاطِقَة ، ثم سُمِّيت : إِشْبَانيا من اسم رَجُل مَلَكها فى القديم كان اسمه إِشْبَان ، وقيلَ سُمِّيتْ بالإشْبَان الذين سَكَنُوهَا فى الأوَّل من الزَّمان ، وسُمِّيَتْ بعد ذلك بالأَنْدَلُس من أسماء الأندليش الذين سكنوها[1] .

* وسُمِّيَتْ جزيرة الأندلُسِ بجزيرةٍ لأنَّها شَكْلٌ مُثَلَّثٌ وتَضِيقُ من ناحية شرق الأندلس حتَّى تكون بين البحر الشأمىّ والبحر المُظْلِم المُحيط بالأندلس خمسة أيَّامٍ ، ورأسُهَا العريض نحوٌ من سبعة عشر يوماً ، وهذا الرأسُ هو فى أقْصَى المغربِ فى نهاية انتهاء المَعْمور من الأرض محصور فى البحر المُظْلِم ، ولا يعلم أحدٌ ما خلف هذا البحر المُظْلِم ، ولا وقف منه بَشَرٌ على خبرٍ صحيحٍ لصعوبةِ عبوره وإظلامه ، وتَعَاظُمِ مَوْجِهِ وكثرةِ أَهْوَالِهِ ، وَتَسَلُّطِ دَوَابِّهِ وهَيَجَانِ رِيَاحِهِ[2] ، حسبما يَرِدُ ذلك فى موضِعِهِ اللائق بهِ إِن شَاءَ اللهُ تَعَالَى ، وبلادُ الأندلُسِ مُثَلَّثُ الشَّكْلِ كما قُلنَاهُ .

* ويحيطُ بها البحرُ من جميع جهاتها الثلاثِ ؛ فَجَنُوبِيُّهَا يُحِيطُ به البحرُ الشَّأْمِيُّ ، وجوفيُّها[3] يحيط به البحر المُظْلِم ، وشماليُّها يحيط به بحر الأنقليشيِّين[4] من الروم ، وطول الأندلس من كنيسة الغُرَاب التى على البحر المُظْلِم إلى الجبل المسمَّى بهَيْكَل الزَّهْرَة أَلفُ ميلٍ ومائةُ ميلٍ ، وعَرْضُها ستّمائة ميلٍ[5] .

والأندلس أَقَاليمُ عِدَّةٌ وَرَسَاتيقُ جملةٌ ، وفى كلّ إقليمٍ منها عدَّةُ مُدُنٍ ، والرُكنُ الواحد من أركانها الثلاثة هو الموضع الذى فيه صَنَمُ قَادِس بين المغرب والقبلة ، والركن الثانى شرقىَّ الأندلس بين مدينة نَربونة[6] ومدينة برذيل بإِزاء جزيرتَىْ ميورقة

(١) ب و ص ٢٣٩ — ٢٤٠ . (٢) ا ر ص ١٦٥ . (٣) ا ر : « وغربها » .
(٤) ت و ف : « ضيق » . (٥) ا ر ص ١٧٣ . (٦) ت و ف : « قرمونة » .

ومنورقة ، والركن الثالث حيث يتعطف البحرُ من الجوف إلى المغرب حيث المنارةُ فى الجبلِ الموفى على البحر ، وفيه الصَنَمُ العالى المُشْبِهُ بصَنَم قادِس ، وهو فى البلدِ الطالعِ على بلد برطانية .

* والأندلس شأميَّةٌ فى طيبها وهوائها ، يمانيَّةٌ فى اعتدالها واستوائها ، هنديَّةٌ فى عطرها وذكائها ، أهْوازيَّةٌ فى عظم جباياتها ، صينيَّةٌ فى جواهرِ معادِنِها ، عدنيَّةٌ فى منافع سواحلها ؛ وفيها آثارٌ عظيمةٌ لليونانيِّين أهل الحكمةِ وحامِلى الفَلْسَفةِ ، وكان من ملوكهم الذين أثَّروا الآثار بالأندلس هِرقلش[1] ، وله الأثَرُ فى الصَنَم بجزيرة قادِس ، وصَنَم جِلِّيقيَّةَ ، والأثرُ فى مدينة طرَّكونة الذى لا نظير له[2] .

وفى غَرْبىّ شَنْتَرِين على مقدار خمسين ميلا فيما بين أُشْبُونَة وشِنْترَةَ ، فى جبلٍ هناك كان حِصْنًا فيما مضى ، يوجَدُ[3] الحجرُ اليهودِىُّ ، وهو على شكل البلُّوط سَوَاءً ، ومن خاصِّيَّتِهِ تَفْتِيتُ الحُصِىّ التى تكون فى المَثانَةِ والكُلْيَة ويقَعُ فى الأكْحالِ ، وفى جُوفِىّ بَطَلْيَوْسَ على قدر أربعين مِيلاً مَعْدِنُ المَهَى .

والأندلس دارُ جِهادٍ وموطِنُ رباطٍ ، وقد أحاط بشرقِيِّهَا وشماليِّهَا وبعض غَرْبيِّهَا أصْنَافُ أهْلِ الكُفْرِ ؛ ورُوِىَ عن عثمان رضى الله عنه أنه كتب إلى من انتدب إلى غَزْوِ الأندلس : أما بَعْدُ فإنّ القسطنطينيّةَ إنما تُفْتَحُ من قِبَل الأندلس ، وإنّكم إن فتَحْتُموها كنتُمْ شركاءَ من يفتحها فى الأخير والسلام ؛ وعن كعْبِ الأحبار[4] أنّه قال : يعبُر البحرَ إلى الأندلس أقوامٌ يفتحونَها يُعرَفونَ بنورهم يومَ القيامَة . ودخل الأندلس رجلٌ واحدٌ من أصحاب النبىّ (صلعم) ، قال عبدُ الملكِ بن حبيب : اسمُه المُنْذِرِ الإفريقىّ ، وإنّهُ

(١) ت و ف : « هوقاش » . (٢) ب ود ص ٢٤٠ . راجع مود ج ١ ص ٨٢ .

(٣) ز ف ت و ف : « فيه » . (٤) راجع مود ج ٢ ص ٢ .

يَرْوِى عنه عليه الصلاة والسلام أنّهُ قال : مَنْ قَالَ رَضِيتُ بالله رَبًّا إلى آخرها فأنا الزعيمُ لآخُذَنّ بيدِهِ وأُدْخِلُهُ الجنّةَ ! ودخلَهَا مِنَ التابعين حَنَشُ بن عبد الله الصَّنْعَانىُّ وهو الذى أسَّسَ جامعَ سرقسطة وكان معَ علىٍّ (رضه) بالكوفة ، فلما قُتِلَ علىّ (رضه) انتقل إلى مِصْرَ وقبرُه بسرقسطة مَعْرُوفٌ ، ومنهم علىُّ بن رَبَاح اللخمىُّ ، وعمرو بن العاصى ، وَعَلْقَمَة بن عامِرٍ ، وَأبو عبد الرحمن عبد الله الجُبُلِىُّ الأنصارىّ ، وَعِيَاض بن عُقْبَة الفِهْرِىُّ ، وَموسَى بنُ نُصَيْرٍ ، يقال بَكْرِىٌّ ويقال لَخْمِىٌّ ؛ ويقال إنَّ نُصَيْرًا مِنْ سبى عَيْنِ التَّمرِ أعْتَقَهُ صبيحٌ مولَى أبِى العَاصى بن أُمَيَّة ، يقال أصَابَهُ خالد فى عُلوجِ عَيْنِ التَّمرِ وادَّعَوْا أنَّهُمْ من بَكْرِ بن وائِلٍ ، فصار نُصَيْرٌ وَصِيفاً لعبد العزيز بن مروان وأعْتَقَهُ فمِن أجْلِ هذا يُخْتَلَفُ فى نسبه ؛ وعَقَدَ الوليدُ لموسى على إفرِيقِيَة سنة ٨٣ ، وكان مولدُ موسى سنة ١٩ فى خلافة عُمَر (رضه) ، وكان معاوية (رضه) قد جعل نُصَيْرًا أبا موسى على حرسِهِ ، فلم يُقَاتِلْ معه عَلِيًّا (رضه) ، فقال له معاوية (رضه) : ما مَنَعَكَ من الخروج على علىّ ولم تُكَافِ يَدِى عليك ؟ فقال : لم يُمْكِنِّى أن أشكرَكَ بكفرِ من هو أوْلَى بشكرى مِنْكَ ، فقال : ومَنْ هو ؟ قال : اللهُ عزَّ وجلَّ !

ومسافةُ ما يملكه المسلمون من الأندلس ثلاثمائة فرسخ طولاً فى ثمانينَ فَرْسَخًا عَرْضًا ؛ والذى يملك منها النَّصارى مثل ما يملكه المسلمون أو نيِّفًا ، ثمَّ حدَثَ فيها من تغلُّب الثوَّار ما أضاعَ ثغورَهم وأذْهَبَ أكْثَرَ بلادِهم ، ولم يبقَ من ذلك إلاَّ الأقلُّ . وبها الجبالُ المشهورة والحَمَّاماتُ الكثيرةُ .

قال الرازىّ : أوَّلُ من سكن الأندلس بعد الطوفان على ما يذكرُهُ علماء عَجَمِها قومٌ يُعْرَفون بالأندلش (بشين معجمة) بهم سُمِّىَ البلدُ ثمَّ عُرِّبَ ، وكانوا أهْلَ تَمَجُّسٍ

فَحَبَسَ الله تعالَى عنهم المطَرَ حتّى غارَتْ عيونُها ويَبِسَتْ أنهارُها ، فهلك أكثرُهُمْ وفرَّ من قَدَرَ على الفِرَارِ منهم فَأَقْفَرَت الأندلس وَبَقِيَتْ خالِيةً مائة عامٍ ، وملكها إشبان ابن طيطش ، وهو الذى غزا الأفارقة وحَاصَر مَلِكَهم بطالِقة(١) ، ونقل رخامَها إلى إشبيلية وبه سُمِّيت ، فاتّخذها دارَ مملكتِهِ وكثُرَتْ جموعُهُ فَعَلاَ فى الأرض وغزا من إشْبِيلِيَةَ إيلياء بعد سنتَيْن من ملكِهِ ، خَرَجَ إليْهَا فى السُّفنِ وهَدَمَها ، وَقَتَلَ من اليهودِ مائة ألفٍ واسْترقَّ مائةَ ألفٍ ، وفرّق فى البلاد مائة ألف ، وانتقل رخامُ إيلياء وآلاتها إلى الأندلس ؛ والغرائبُ التى أُصِيبَتْ فى مَغَانِمِ الأندلس كمائدةِ سُلَيْمان التى ألفَاهَا طارقُ ابنُ زياد بكنيسةِ طليطلة ، وقُلَيْلَةُ الدُّرِّ التى أَلْفَاها موسى بنُ نُصَيْرٍ بكنيسةِ مَارِدَة ، وغيرُها من الذخائر ، إنما كانَتْ مِمَّا حازه صاحبُ الأندلس من غنيمةِ بيتِ المَقْدِسِ إذْ حَضَرَ فَتْحَهَا مع بُخْتَ نَصَّرَ .

وذكروا أنَّ الخِضْرَ وقف بإشبان هذا وهو يحرثُ الأرضَ بفدَّانٍ له أيَّامَ حداثتِهِ(٢) فقال : يا إشبان ، إنك لَذُو شَأْنٍ ، وسَوف يُحْظِيكَ زمان ، ويعليك سُلطان ، فإذا أنت تَغَلَّبْتَ على إيلياء ، فارفقْ بوَرَثَةِ الأنبياء !

فقال له إشبان : أسَاخِرٌ أنت رحمك الله أنَّى يكون هذا ، وأنا ضعيفٌ مهينٌ حقيرٌ ؟ فقال : قَدَّرَ ذلك من قَدَّر فى عصاكَ اليابسةِ ما تَرَاهُ ! فنظر إشبان إلى عصاه فرآها قد أَوْرَقَتْ ، فَرِيعَ لما رأى وذهب الخِضْرُ عنه ؛ وقد وقر ذلك الكلام فى نفسه والثقة بكونِهِ ، فترك الامتهانَ وداخَلَ الناسَ ، وصحب أجَلَّ الناسِ وَسَما به جَدُّهُ فارتقى فى طلب السلطان حتى نال منه عظيما ، وكان ملكُهُ عشرين سنة ، واتَّصلَتْ مملكةُ

(١) ق : « بطارقة » . (٢) ق : « حراثته » .

الإشبان بَعْدَهُ إلى أن ملك منهم الأندلس خمسةٌ وخمسون مَلِكاً ، ثمَّ دخل عليهم من عَجَم(١) رومة أُمّةٌ أُخْرَى تعرف بالشبونِقات ، وذلك زمانَ مَبْعثِ المسيح عليه السلام ، فملكوا الأندلس وإفْرَنْجَةَ مَعَها واتَّخذُوا دارَ مملكتِهِمْ مدينة ماردَةَ واتَّصلت مملكتُهُمْ إلى أنْ ملك منهم أربعةٌ وعشرون مَلِكاً ، ويقال إنَّ منهم كان ذو القرْنَين .

ثُمَّ دَخَلَ على هؤلاء الشبونِقات أُمَّةُ القُوطِ فغلبوا على الأندلس واقتطعوها من يومئذٍ عن صاحبِ رومةَ وانفردوا بسلطانهم واتَّخذوا مدينة طليطلة دارَ سلطانِهم ؛ ودخشوش(٢) مَلِك القوط هو أوّلُ مَنْ تَنَصَّرَ من هؤلاء ، فدعا الحواريّين وَدَعَا قومَهُ إلى النصرانيَّة ، وكان أعْدَلَ ملوكهم وأحْسَنَهُمْ سيرةً ، وهو الّذى أصَّلَ النَّصرانيَّةَ ؛ والإنجيلاتُ أو المصاحفُ الأربعةُ من انتساخِهِ وجَمْعِهِ وتثْقِيفِهِ ؛ فتَنَافَسَتْ ملوكُ القوط بالأندلس بَعْدَهُ حتّى غَلَبَهُمْ عَلَيْهَا العَرَبُ ؛ وعدد مَنْ ملك منهم إلى آخرهم وهو لُذريق ستّةٌ وثلاثون مَلِكاً .

ولُذْرِيق لم يكن من أبناء الملوكِ ولا بصحيحِ النسبِ فى القوط ، وإنّما نالَ المُلْكَ من طريق الغَصْبِ والتسوُّر عند ما مات غَيْطِشَةُ الملك وكان أثيرًا لَدَيه(٣) فاستصغر أولادَهُ واستمال طائفةً من الرجال مالوا إليه فانتزعَ المُلْكَ من ولد غَيْطِشَةَ ، وغَيْطِشَةُ آخرُ مُلوكِ القُوطِ بالأندلس ، وَلِىَ سنة ٧٧ من الهجرة فملك خمس عشرة سنة .

وكانَتْ طليطلة دارَ المملكةِ بالأندلس حينئذٍ ، وكان بها بيتٌ مُغْلَقٌ متحامَى الفتْحِ يلزمُه من ثقاتِ القوط قومٌ قد وُكِّلُوا به لئلا يُفتَحَ ، قد عهد الأوّلُ فى ذلك إلى الآخر ، كُلّما ملك منهم مَلِكٌ زاد على البيت قفلاً ، فلما وَلِىَ لُذْرِيق عزم على فتح الباب

(١) ت و ف : « حجر » . (٢) ت و ف : « خنشوش » .
(٣) ت و ف : « أثير الدية » .

والاطِّلاع على ما فى البيت ، فأَعْظَمَ ذلك أكابرُهُمْ ، وتضرَّعوا إليه فى الكفِّ فأبَى ، وظَنَّ أنَّهُ بيتُ مال ، ففَضَّ الأقفال عنه ودخله فأصابه فارغًا لا شىءَ فيه إلاَّ تابُوتًا عليه قفلٌ ، فأمر بفتحه فألفاه أيضاً فارغاً ليس فيه إلاَّ شُقَّةٌ مُدْرَجَةٌ قد صُوِّرَتْ فيها صُوَرُ العَرَب على الخيول وعليهم العمائمُ ، متقلِّدِى السيوفِ ، مُتَنَكِّبِى القِسِىِّ ، رافعِى الراياتِ على الرِّماح ، وفى أعلاها كتابةٌ بالعجميَّة فقُرِئت فإذا هى : إذا كُسِرَتْ هذه الأقْفَال من هذا البيتِ وفُتِحَ هذا التابوتُ فَظَهَرَ ما فِيه مِن هذه الصُّوَرِ فإِنَّ الأُمَّةَ المُصَوَّرَةَ فيه تغلِبُ على الأندلس وتملكُها ، فوجم لُذْرِيق وعظُم غَمُّهُ وغمُّ العَجَمِ وأمَرَ بردِّ الأقفال وإقرارِ الحُرَّاسِ على حالهم .

وكان من سيَرِ الأعاجِم بالأندلس أن يبعثَ أكابرُهم بأولادهم إلى بِساط المَلِك ليتأدَّبُوا بأَدَبِهِ ، وينالوا من كراماتِهِ ، حتى إذا بلغوا أنكَحَ بعضَهُم بعضا اسْتِئْلافًا لآبائِهِمْ ، وحَمَلَ صدقاتِهم وتولَّى تجهيز إناثِهم إلى أزواجِهِنَّ ؛ فاتَّفَق أن فعَلَ ذلك يلْيَان عاملُ لُذْرِيقَ على سَبْتَةَ ، وَجَّهَ ابْنَةً له بارعةَ الجمال تَكْرُمُ عليه ، فوقعتْ عَيْنُ[1] لُذْرِيق عليها فأعْجَبَتْهُ فاسْتَكْرَهَهَا على نفسها واحتالَتْ حتَّى أعْلَمَتْ أباها بذلك سِرًّا بمكاتبةٍ خفيَّةٍ ، فَأَحْفَظَهُ شَأْنُهَا وَقال : وَدِينِ المسيح لأُزِيلَنَّ سُلطانَه ! وكان امتعاضُه من فَاحِشَةِ ابنتِهِ السَّبَبَ لفتْحِ الأندلس بالذى سَبَق من قدرِ اللهِ سُبحانه ؛ ثمَّ إنَّ يلْيَان ركب بحرَ الزُّقاق من سَبْتة فى أصْعَب الأوقاتِ فى شَهْرِ ينَّيِر ، وأقبل حتَّى احتلَّ بطُلَيْطُلة حضرة لُذْرِيق ، فَأَنكَر عليه مجيئَه فى ذلك الوقت وسَأله عن السَّبَب فى ذلك ، فذكر له أَنَّ زَوْجَتَهُ اشْتَدَّ شوقُهَا إلى ابنتِها التى عنده ، وتمنَّتْ لقاءَها قبل الموت ، وألَحَّتْ عليه فى إحضارها ،

(١) ف : « فلما عين » .

وأَحَبَّ إسْعَافَهَا بها ، وسأَلَ الملكَ إخْرَاجَهَا إليْهِ وتَعْجِيلَ إطلاقِهِ للمبادَرَةِ بها ؛ ففعل وأَجازَ الجارِيَةَ ، وتوَثَّقَ منها بالكتمان عليه ، وأَفْضَلَ عليها وعلى أبيها وانقلب عنه .

وذُكِرَ أنَّهُ لما دَخَلَ عليه قال له لُذْرِيقُ : إذا أنت قدمْتَ علينا فاستَفْرِهْ لنا من الشُّذَانِقَات ! فقال له : أيُّها الملك ، وَالمَسِيحِ لَأُدْخِلَنَّ عليك شُذَانِقَات ما دُخِلَ عليك بمثلِهَا قَطُّ ! يعرِّضُ له بما أَضْمَرَهُ من السعي في إدْخال رجالِ العربِ الأَندلس عليه ، وهو لا يَفْطِنُ ؛ فلم يَتَنَهْنَهْ يلْيَان إذ وصل سَبْتة أنْ تَهَيَّأَ للمَسِيرِ نَحْوَ موسى بن نُصَيْر ، فأتاه بإفريقية ، فحرَّضَه على غَزْوِ الأندلس وَوَصَفَ لهُ حُسْنَهَا وفوائدَها وفَضْلَهَا ، وَهَوَّنَ عليه حَالَ رجالها ، فعَاقَدَهُ مُوسَى على الانحراف إلى المسلمين وَسَامَهُ مكاشفةَ أَهْلِ مِلَّتِهِ من أَهْلِ الأَنْدَلس ، ففعل يلْيَان ذلك وحَلَّ بساحِلِ الجزيرة الخضراء ، فقَتَلَ وسبى وغنم وأقام بها أيَّامًا يشنُّ الغارات ، وشاع الخَبَرُ عند المسلمين ، فآنسوا بيلْيَان ، وذلك عقبَ سنة ٩٠ .

وَكَتَبَ مُوسَى بنُ نُصَيْر إلى الوليد يُعلمه بما دعاه إليه يلْيَان ويَسْتَأْذِنُه في افتتاح الأندلس ، فكتب إليه الوليدُ أنْ خُضْهَا بالسَّرَايَا حتَّى تَخْتَبِرَ(١) شأْنَهَا ولا تُغَرِّرْ(٢) بالمسلمين في بَحْرٍ شديدِ الأهوالِ ، فراجَعَهُ أَنَّهُ لَيْسَ ببحرٍ وإنَّمَا هو خَلِيجٌ يتبيَّن للناظرِ ما وراءه ، فكتب إليه : وإنْ كان فلا بُدَّ من اختباره بالسَّرايا ! فبعث موسى عند ذلك رَجُلاً من مواليهِ من البَرْبَرِ اسمُه طَرِيف بن مَلُّوك المَعَافِرِيُّ يُكْنَى أبا زُرْعَة في أربعمائة رَجُلٍ فعبر بهم ونزل في الجزيرة المنسوبةِ إليه ؛ ثمَّ أغارَ على الجزيرةِ الخضراء ونواحيها فأصابَ سَبْيًا لَمْ يَرَ موسى فيما أصابه مثلَهُ حُسْنًا ، وأصاب مالاً جسيماً وأمتعة ، وذلك في شهر رمضان من سنة ٩١ .

---

(١) ت وم : « يختبر » .   (٢) ت و ف : « يغرر » .

فلما رأى ذلك الناسُ أسْرَعوا إلى الدخول ، فدعا موسى مولًى له كان على مُقَدِّماتِهِ يسمّى طارقَ بنَ زياد ، قيل هو فارسىٌّ(١) وقيل هو من الصَّدْفِ(٢) وقيل لَيْسَ بمَوْلًى ، وقيل هو بَرْبَرِىٌّ من نَفْزَة ، فَعَقَدَ له وبَعَثَهُ فى سبعة آلاف من البَرْبَر(٣) والموالى ، ليس فيهم عَرَبِىٌّ إلاَّ القليل . فَهَيَّأَ له يلْيَان المراكب وحلَّ بجبل طارِق يوم سبت فى شعبان من سنة ٩٢ ، وهو من شهور العَجَم شهر أُغُشْت ، وقيل فى رجب من السنة ، فى اثنى عشر ألفاً غير ستَّة عشر رجلاً لم يكن فيهم من العَرَب إلاّ القليلُ .

وأَصابَ طارق عَجُوزاً من أَهْل الجزيرة فقالَتْ له : كان لى زوجٌ عالمٌ بالحدثان ، وكان يُحَدِّثُ عن أميرٍ يدخل بلَدَنا هـذا ويَصِفُه ضَخْمَ الهامة وأنت كذلك ! ومنها أَنَّ بكتِفِهِ الأَيْسَرِ شامةً عليها شعرٌ ، فإنْ كانَتْ بك هـذه الشامةُ فأَنت هو ، فكشف طارق ثوبَهُ فإذا بالشامةِ على كتفه كما ذكرَت العجوزُ ، فاستبشر بذلك هو ومَنْ معه .

وذُكِرَ عن طارِق أَنَّهُ كان نائماً فى المركب فرأى فى منامه النبىَّ (صلعم) والخلفاءَ الأَربعة يمشون على الماء حتَّى مَرُّوا به ، فبشَّره النبىُّ (صلعم) بالفتْح وأَمرَه بالرفق على المسلمين والوفاء بالعَهْد ؛ وفى حكايةٍ إنَّهُ لما ركب البحرَ غَلَبَتْه عيناهُ فرأى النبىَّ (صلعم) وحَوْلَهُ المُهَاجِرُون والأَنصارُ قد تقلَّدُوا السيوفَ ، وتنكّبوا القسىَّ ، فيقول له النبىُّ : يا طارق تَقَدَّمْ لشأْنِكَ ! ونظر إليه وإلى أَصحابه قد دخلوا الأندلس قدَّامه فهبَّ من نومه مُسْتَبْشِرًا وبَشَّرَ أَصحابه ولم يشكَّ فى الظفر ، فنزل بالجبل شَانًّا للغارات فى البَسَائط ، ولُذْريق يومئذٍ غائبٌ فى غزاةٍ له ، واتَّصل به الخبرفعظم عليه أَمره ، وفهم الخبر الذى أُتِىَ منه مع يلْيَان ، وأقبل مبادرًا فى جموعه حتَّى احتلَّ بقرطبة أياماً والجنودُ تتوافَى عليـه ،

(١) ت و ف : « فارس » . (٢) ت و ف : « الصدق » .
(٣) ت و ف : « الأوس » .

وكان فى وجهته ولّى شِشْبوتَ[١] بن المَلِك غِيطِشَة مَيْمَنَتَه وأَخاه مَيْسَرَتَهُ ، وهُما الولدانِ الّذانِ سلبهُمَا مُلْكَ أبيهما ، فبعثَا إلى طارق يسألانِهِ الأَمانَ إذا مَالاَ إليه عند اللقاء عن معهما ، وعلى أَنْ يُسْلِمَ إليهما ضِيَاعَ والدِهِما غِيطِشَة إن ظفر ، فأجابهما طارق إلى ذلك ، وعاقدَهما عليه ؛ فلما الْتقى الجمعانِ انحازَ هذانِ الغُلاَمانِ إلى طارق ، فكان ذلك سببَ الفتح ، وكان الطاغية لُذْريق فى ستمائة ألف فارس .

وقد خَرَجْتُ عن حكم الاختصار الذى التزمتُ فى هذا الوَضْع فلنقتصرْ على هذا القَدْر ، وأمّا ذكر بلاد الأَندلس فتأتى فى مواضعها اللائقة بها إن شاء الله تعالى .

وافتتحَتْ الأَندلس فى أيّام الوليد بن عبد الملك ، فكان فتحُها من أَعْظم الفتوح الذاهبة بالصيت فى ظهور المِلَّة الحنيفيَّة ؛ وكان عمر بن عبد العزيز مُعْتَنِياً بها ، مهتمًّا بشأنِها ، وهو الذى قطعها عن نَظَر والى إفريقية وجَرَّدَ لها عامِلاً من قِبَلِهِ .

٢ — أُبَال

حصنٌ بالأَندلس فى شمال قرطبة وعلى مرحلة منها ، وهو الحصن الذى فيه مَعدِن الزّئبَق .

* وفيه يعمل الزّنْجفور[٢] ومنه يتجهَّزُ بالزئبق والزّنجفور إلى جميع أقطار الأرض ، ويخدم هذا المعدِنَ أكثرُ من ألف رجلٍ ، فقومٌ للنزول وقطعِ الحَجَر ، وقومٌ لنقل الحطب لحَرْق المعدن ، وقومٌ لعملِ أوانى السَّبْكِ والتصفية[٣] ، وقومٌ لبنيان[٤] الأفران والحَرْق ، ومن وجه الأرض إلى أسفله فيما حُكىَ أكثرُ من مائة قامةٍ[٥] .

(١) ت و ف و م : « ششبوب » . (٢) بم فى ا و . (٣) ا و : « وتصعيده » .
(٤) ا و : « لشأن » . (٥) ا و ص ٢١٣ — ٢١٤ .

٣ — أُبَّذَة

مدينة بالأندلس .

* بينها وبين بيّاسة سبعة أميال ، وهى مدينةٌ صغيرة وعلى مقربة من النهر الكبير ، ولها مزارع وغلّات ، قمحٌ وشعيرٌ ، كثيرةٌ جدًّا[١] .

وفى سنة ٦٠٩ مالَتْ عليها جموعُ النصرانيّة بعد كائنةِ العِقَاب ، وكان أهلُها قد أنِفُوا من إخلائها[٢] كما فعلَ جيرانها أهلُ بَيَّاسة ، ولم ترفعْ تلك الجموعُ يداً عن قتالِها حتى ملكَتْها بالسيف ، وقُتِلَ فيها كثيرٌ ، وأسروا كثيراً ، ووقع على ما كان فيها بَيْنَ أجناس النصارى خصامٌ آل إلى الشحْناء والافتراق ، وكفى اللهُ المسلمين بذلك شرًّا كثيراً ، وكان بعضُهم قد طلب أُبَّذَةَ فتنَافَسُوا فيها ولم يَأْخُذْها أَحَدٌ منهم وخرّبوا أسوارها .

٤ — ابطير[٣]

حصنٌ بالأندلس بمقربة من بَطَلْيَوْس ، من بناء محمّد بن أبى عامر من جليلِ الصخر ، داخلَهُ عينُ ماء خرَّارَة ، وهو اليومَ خالٍ .

وعلى مقربة منه ، بنحو ثلاث غِلاَء ، قبرٌ فى نَشْزٍ من الأرْض قد نُحِتَ فى حَجَرٍ وقد نُضِّدَ عليه صفائحُ الحِجارة : ويُعْرَفُ بقبر الشهيد ، ولا يُعلم له وقتٌ لقِدَمِه ، يُرْفَعُ عنه بعضُ تلك الصَّفائحِ فيُرَى صحيحَ الجسم لم يَتَغَيَّرْ ، نابتَ الشَّعَرِ .

٥ — أَرْبُونَة

مدينةٌ هى آخر ما كان بأيدى المسلمين من مُدُنِ الأندلس وثغورِها مِمَّا يلى بلادَ

(١) ا ر ص ٢٠٣ . (٢) م : « إجلائها » . (٣) م : « ابعير » .

الإفْرَنجَة ، وقد خرجَتْ من أيدى المسلمين سنة ٣٣٠ مع غيرِها مِمَّا كان فى أيدى المسلمين من المُدُن والحصون .

٦ ــ أَرْجُونَة

مدينةٌ أو قلعةٌ بالأندلس ، إليها يُنْسَب محمَّد بن يوسف بن الأحْمَر الارْجُونىُّ من متأخِّرِى سلاطِينِ الأندلس .

٧ ــ أُرْشُذُونَة

بالأَندلس وهى قاعدةُ كُورَةٍ ، ومنزلُ الولاةِ والعُمَّال ، وهى بقبلىّ قرطبة ، تسقى أرضَها وتَطَّرِدُ فى نواحيها عيونٌ غِزَارٌ ، وأنهارٌ كِبَارٌ ، وهى بَرِّيَّةٌ بَحْرِيَّةٌ ، سهلُها واسعٌ وجبلُها مَانعٌ ، وسُورُها الآنَ مَهدومٌ ، ولها حصنٌ فوق المدينة ، ولها مدنٌ كثيرةٌ ، وبها آثارٌ قديمةٌ ، ومن مُدُنها مالَقَة ، بينهما ثمانية وعشرون مِيلاً .

٨ ــ أَرَغُون

هو اسم بلاد غَرْسِيَة بن شَانْجُهْ تشتملُ على بلادٍ ومنازِلَ وأعمالٍ .

٩ ــ الأَرَك

هو حصنٌ منيعٌ بقربة من قَلْعَة رَبَاح أوَّلِ حصونٍ إذْ فُونْش بالأَندلس ، وهناك كانَتْ وقعةُ الأَرَك على صاحب قَشْتَالة وجموعِ النصارى على يد المنصور يعقوب ابن يوسف بن عبد المؤمن بن علىّ مَلِك المغرب فى سنة ٥٩١ ؛ وكان بلغَ المنصورَ يعقوبَ

أنّ صاحب قشتالة شَنّ الغارات على بلاد المسلمين بالأندلس شرقًا وغربًا فى يومٍ واحدٍ ، وعَمّ ذلك جهةَ إشبيلية ونواحيها ، فامتعض من ذلك ثمّ تحرّك من حضرته مرّاكش إلى الأندلس واستقرّ بإشبيلية فأَعْرَض(١) الجُنْدَ وأعطى البَرَكات ، ثمّ نَهَضَ فى الحادى عشر من جمادى الأُخرى ووصل قرطبة فروّحَ بها فالتقى الجمعان بِجِسْرِ الأَرك والتحم القتالُ فانهزم العدوّ وركبهم بالسيف من ضُحَى يوم الأربعاء تاسع شعبان إلى الزوال وانتهب محلّةَ الروم وقتل منهم زهاءَ ثلاثين ألفًا ، واستشهد من المسلمين دون الخمسمائة ، وأَفْلَتَ إذْ فونْش واجتازَ على طليطلة لا يُعَرّج على شىء فى عشرين فارسًا ، وحصر المسلمون فَلّهم بحصن الأَرك وكانوا خمسة آلاف فصالحوا بقدرهم من أُسارى المسلمين .

وسمعتُ مَنْ يُحدّثُ أَنّ هـذا الفتح كان اتّفاقيًا بِسَبَبِ إحرازِ الروم بعضَ رايات المسلمين وذهابهم بها قائمةً منتصبةً وانبعاثِ حفائظِ بعض القبائل لما عاينُوا رايةَ إخوانهم مُقَدّمَةً على العدوّ ، وإذْ ظنّوا أنّ أصحابَهُمْ حملوا على العدوّ فأوغلوا وهُمْ لا يعلمون الحالَ ، وكيفما كان فهو فتحٌ مبينٌ ونصرٌ مُؤَزّرٌ .

ثمّ رجع المنصورُ إلى إشبيلية ظافراً فأقام مُدّةً ثمّ غزَا بلاد الجوف فحاصَرَ تَرْجالُه ونزل على بلنسية ففتحها عنوةً ، وَقَبَضَ على قائدها يومئذٍ مع مائة وخمسين من أعيان كفّارها ، ووجّههم إلى خِدْمَة بناء الجامع الكبير بِسَلاَ مع أُسارى الأَرك ، ثمّ انتقل(٢) إلى طَلَبِيرة ومكّادة نخرّبَهما ، ثمّ برز على طُلَيْطُلة فشَنّ عليها الغارات ، ثمّ نَازَلَ مَجْرِيط وشرع فى القفول ، فأخذ على جيّان إلى قرطبة إلى إستِجّة إلى قَرْمُونَة ، ووصل إلى إشبيلية فى رمضان .

---

(١) ف : « فعرض » .   (٢) س : « انطلق » .

١٠ — أَرْكُش

حصنٌ بالأندلس على وادى لكُّه وهو مدينة أَزَلِيّة قَدْ خُرِّبَتْ مِرَارًا وَعُمِّرَتْ ، وعندها زيتون كثير .

١١ — أَرْنِيط

مدينةٌ بالأندلس أَوَّلِيَّةٌ بينها وبين تَطِيلة[1] ثلاثون ميلاً ، وحواليها بِطاحٌ طَيِّبَة المزارع ، وهى قَلْعَةٌ عظيمة منيعةٌ مِنْ أَجَلِّ القِلاعِ ، وفيها بِئْرٌ عذبةٌ لا تنزح ، قد أُنبطت[2] فى الحَجَرِ الصلْد ؛ وهذه القلعة مُطِلَّةٌ على أرض العدوِّ ، وبينها وبين تطيلة ثلاثون ميلاً .

١٢ — إِسْتَجَّة

بين القبلة والغَرْب من قرطبة بينهما مرحلةٌ كاملةٌ ، وهى مدينةٌ قَدِيمةٌ لم يزل أَهْلُهَا فِى جَاهِلِيَّةٍ وإسْلامٍ على انحرافٍ وخروجٍ عن الطاعة . ومعنى هذا الاسم عندهم « جمعت الفوائد » ؛ وفى أخبار الحدثان إِنَّهُ كَانَ يقال : « إِسْتِجَّةُ الْبَغْى ، مذكورةٌ باللعنة والخزْى ، ويذهب خيارُها ، ويبقى شرارُها » .

وكانت هيئتُهَا التى ألفاها عليها طارق بن زياد أَنَّ سورَها كان قد عُقِدَ بسورَيْن أحدُهما صخرٌ أبيض والثانى صخرٌ أَحْمَر بأجمل صنعةٍ وأحكم بناء ، ورُدِم وسُوِىَ[3] .

(١) ت : « قطيلة » ، ف و م : « تلطية » . (٢) ف : « أنبعث » . (٣) ب ف م .

ووُضِعَ فى مواضع الشرفات من المَرْمَر صُوَرُ بنى آدم من كلّ الجهات تُوَاجِهُ القاصِدَ نَحْوَهَا فلا يشكُّ الناظرُ أنَّها رجالٌ وقوفٌ ، وكان لها من الأبواب بَابُ القنطرة شرقىٌّ ، بَاب أُشُونة[١] قبلىٌّ ، بَاب رِزْق غرْبِىٌّ ، [بَابُ] السُّوَيْقَةِ جُوفِىٌّ ، وغير ذلك من الأبواب ، والمدينة مبنيةٌ على الرَّصِيف الأَعظَم المَسْلوكِ عليه من البحر إلى البحر .

وكانت إِسْتِجَّة واسعةَ الأَرْبَاض ذات أسواقٍ عامرةٍ وفنادقَ جَمَّةٍ ، وجامعُها فى رَبَضها مبنىٌّ بالصخْر له خمس بلاطات على أعْمِدَة رخامٍ ، وتجاورُه كنيسةٌ للنصارى ؛ وبإِسْتِجَّة آثارٌ كثيرةٌ ورسومٌ تحت الأَرض موجودةٌ وهى[٢] منفسحةُ الخطَّة ، عذْبَة الأَرض ، زكيَّةُ الريع ، كثيرةُ الثمارِ والبساتينِ ، نضيرةُ الفواكهِ والزرع ، ولها أَقاليمُ خمسةٌ .

وكان أهلُ إِسْتِجَّة مِمَّن خلع وخالَف ، فافتتحها عبد الرحمن بن محمّد على يَد بَدْر الحاجب سنة ٣٠٠ ، فهدم سورَها ووضع بالأَرض قواعدَها ، وألحق أَعَالِيَها بأَسَافِلِهَا ، وهَدم قنطرةَ نَهْرِها ، وفى ذلك يقول أحمد بن محمّد بن عبد رَبِّهِ [طويل] .

أَلاَ إِنَّهُ فَتْحٌ يقِــرُّ له الفتحُ فأَوَّلُه سَــعْدٌ وآخِرُهُ نُجْحُ
سرى القاعدُ المَيْمونُ خَيْرَ سريَّةٍ تقــدَّمها نصرٌ وتابَعها فتحُ
أَلَمْ تَرَهُ أَرْدَى بإِستِجَّة العِــدَا فَلَقُّوا عَذَابًا كان موعدَه الصبْحُ
فلا عَهْد للمراء من بَعْد هــذِهِ يتمُّ له عِنْــدَ الإمامِ ولا صُلْحُ
فوَلَّوْا عباديدًا بكلِّ ثنيَّــةٍ وقد مسَّهم قِدْحٌ[٣] وما مسَّنا قِدْحُ[٣]

وبين إستجَّة ومرشانَة عشرون ميلاً ، وكذلك بينها وبين قرمونَة .

(١) س و ت و م : « أشبونة » . (٢) ه فى س و ت . (٣) ت و م : « قرح » .

١٣ – أُشْبُونَة

بالأندلس من كُوَر بَاجَة المُخْتَلطة بها ، وهى مدينة الاشبونة ، والأُشبونة بغَرْبِىّ باجة ، وهى مدينةٌ قديمةٌ على سيف البحر تَنْكَسِر أمواجُه فى سورها ، واسمها قودية ، وسورُها رائق البنيان ، بديعُ الشأن ، وبابها الغربىُّ قد عُقِدَتْ عليه حنايا[1] فوق حنايا على عُمُدٍ من رخام مثبتةٍ على حِجارة من رخام وهو أكبر أبوابها ، ولها بابٌ غربىٌّ أيضاً يُعرف بباب الخَوْخة[2] مُشْرِفٌ على سَرْحٍ فسيحٍ يشقُّه جَدْوَلاَ ماء يصُبّان فى البحر ، ولها بابٌ قِبْلِىٌّ يُسَمَّى باب البَحْر تدخل أمواجُ البحر فيه عند مَدِّه وتَرْتَفعُ فى سوره ثلاثَ قِيَم ، وبابٌ شَرْقِىٌّ يُعرف بباب الحَمَّة ، والحَمَّةُ على مقربةٍ منه ومن البحر دَيْماسُ ماءٍ حارٍّ وماءٍ باردٍ ، فإذا مَدَّ البحر وَارَاهُما ؛ وبابٌ شرقىٌّ أيضاً يُعرفُ بباب المَقْبَرَة .

* والمدينةُ فى ذاتها حسنةٌ ممتدَّةٌ مع النَّهْر ، لها سورٌ وَقَصَبَةٌ منيعة ؛ والأشبونة على نحر البحر المظْلِم ؛ وعلى ضَفَّة البحر[3] من جنوبه قِبالةَ مَدينةِ الأشبونة حصنُ المَعْدِن ؛ ويُسَمَّى بذلك لِأَنَّ عند هَيَجَان البحرِ يَقْذِفُ بالذَّهَبِ التِّبْرِ هُنَاك ؛ فإذا كان الشتاء قصد إلى هذا الحصن أهلُ تلك البلاد فيخدمون المَعْدِنَ الذى به إلى انقضاء الشتاء ، وهو من عجائب الأرض .

ومن مدينة الأُشبونة كان خروجُ المَغْرُورين[4] فى ركوب بحر الظُّلُمات ليعرفوا ما فيه وإلى أين انتِهَاؤُه ، وَلَهُمْ بأُشبونة مَوْضِعٌ بقرب الحَمَّة منسوبٌ إليهم يُعرفُ

(١) س و ث و م و ف : « خبايا » . (٢) ف : « الخرقة » .
(٣) اد : « النهر » . (٤) ف و م : « المغررين » .

بدَرْبِ المغرورين ، وذلك أن ثمانية رجال ، كلهم أبناء عمٍّ ، اجتمعوا فابتنوا مَرْكَباً وأدخلوا فيه من الماء والزاد ما يكفيهم لأشْهرٍ ، ثمّ دخلوا البحرَ في أوّلِ طارُوس الريح الشرقيّة ، فجرَوْا بها نحواً من إحْدَى عشر يوماً ؛ فوصلوا إلى بَحْرٍ غليظِ الموج ، كَدِرِ الروائح ، كثير التروش[1] ، قليلِ الضوءِ ، فأيقنوا بالتّلف ، فردُّوا قِلْعَهم في اليَدِ الأُخرى ، وجرَوْا في البحر في ناحية الجَنُوب اثْنَيْ عشر يوماً ؛ فخرجوا إلى جزيرة الغَنَم ، وفيها من الغَنَم ما لا يأخذُهُ عدٌّ ولا تحصيلٌ ، وهي سارحةٌ لا ناظِر لها ولا راعٍ ، فقصدوا الجزيرة ونزلوها فوجدوا عينَ ماء جاريةً ، عليها شجرةُ تينٍ بَرِّيّ ، فأخذوا من تلك الغَنَم فذبحوها فوجدوا لحومَها مُرّةً لا يقدر أحَدٌ على أكلها ، فأخذوا من جلودِها وساروا مع الجنوب اثْنَيْ عشر يوماً إلى أنْ لاحَتْ لهم جزيرةٌ ، فنظروا فيها إلى عِمارةٍ وحَرْثٍ ، فقصدوا إليها لِيَرَوْا ما فيها ، فما كان إلاَّ غير بعيدٍ حتَّى أُحيطَ بهم في زَوَارِق ، فأُخِذوا وحُمِلوا إلى مدينةٍ على ضفَّة البحر ، فأُنزلوا بها في دارٍ ، فرأوا بها رجالاً شُقْراً زُعْراً ، شعورُهم سَبْطةٌ ، وهُمْ طِوَالُ القدود ، ولنسائهم جمالٌ عجيبٌ ، فاعتقلوا في بيت ثلاثةَ أيّامٍ ، ثمّ دخل عليهم في اليوم الرابع رجلٌ يتكلّم باللسان العربيِّ ، فسألهم عن حالهم وَفيمَ جاؤُوا ، وأيْنَ بلادُهم ، فأخبروه بكلِّ خَبَرِهم فوعدهم خيْراً ، وأعْلَمهم أنّه ترجمان ؛ فلما كان في اليوم الثاني من ذلك اليوم أُحْضِروا بين يَدَيِ المَلِكِ ، فسألهم عمّا سألهم عنه الترجمان فأخبروه بما أخبروا به الترجمان بالأمْسِ ، وأنّهم اقتحموا البَحْرَ لِيَرَوْا ما فيه من العجائب ، وليَقِفُوا على نهايتِهِ ، فلمَّا علم المَلِكُ ذلك ضحك وقال للترجمان : أخْبِرْ القوم أنَّ أَبِي أَمَرَ قَوْماً مِن عَبيدِهِ بركوبِ هذا البحر ، وأنَّهم جَرَوْا في عَرْضِهِ شَهْراً

(١) ب « البروس » .

إلى أن انقطع عنهم الضوء وانصرفوا من غير[١] فائدةٍ تُجْدِى[٢] ، ثُمَّ وعدِم خيراً ، وصُرِفوا إلى موضع حَبْسِهم ، إلى أنْ بدأَ جَرْىُ الريح الغربيَّة ؛ فعُمِرَ بهم زورقٌ ، وعُصِّبَتْ عيونُهم وجُرِىَ بهم فى البحر بُرْهةً من الدَّهْر .

قال القومُ : قَدَّرْنا أنَّهُ جرى بنا ثلاثةَ أيَّامٍ بليَاليها ، حتَّى جِيءَ بنا إلى البَرِّ ، فأُخْرِجْنَا وكُتِّفْنا إلى خَلْفٍ ، وتُرِكْنا بالساحل إلى أنْ تضاحى النهارُ ، وطَلَعَتْ الشمسُ ، ونَحْنُ فى ضنكٍ وسوءِ حالٍ من شدَّة الكتاف ، حتَّى سمعنا ضَوضَاءَ وأَصْواتَ ناسٍ فَصِحْنا بجملتنا ، فأقبل القومُ إلينا فوَجَدُونا بتلك الحالِ السَّيِّئَةِ ؛ فحلُّوا أوثاقنا وسألونا فأخبرناهم بخبرنا ، وكانوا بَرَابِرَ ، فقال لنا أَحَدُهم : أتعلمون كَمْ بَيْنكم وبَيْن بَلَدِكم ؟ فقلنا : لا ، فقال : مسيرةُ شهرَيْن ! فقال زعيمُ القوم : وا أَسَفِي ! فسُمّى المكانُ إلى اليوم آسَفِي ، وهو المَرْسَى الذى فى أقصى المغرب[٣] .

١٤ – إِشْبِيلِيَة

مدينةٌ بالأَنْدلس جليلةٌ بينها وبين قرطبة مَسيرةُ ثلاثة أيَّامٍ ، ومن الأميالِ ثمانون .

* وهى مدينةٌ قديمةٌ أَزَلِيَّةٌ ، يذكر أهل العلم باللسان اللطينىّ أنَّ أصلَ تسميتها إِشْبَالِى معناهُ « المدينة المنبسطة » ، ويقال إنَّ الذى بناها يُولِيش القَيْصَر ، وإنَّهُ أوَّل من تسمَّى قَيْصَر ، وكان سببُ بنائه إيَّاها أنَّهُ لمَّا دخل الأنْدلس ووصل إلى مكانها أعْجَبَه كرمُ ساحتِهِ ، وطيبُ أرضه ، وجبله المعروف بالشَّرَف . فردم على النهر الأكبر مكاناً ، وأقام فيه المدينةَ وأَحْدَق عليها بأسوارٍ من صَخْرٍ ، وبنى فى وسط المدينة قَصَبَتَيْن

---

(١) ز فى ار : « حاجة ولا » . (٢) ت : « تجرى » . (٣) ار ص ١٨٤ — ١٨٥ .

متقنتَيْن عجيبتَيْ الشأْن ، تُعْرَفان بالأَخَوَيْن ، وجَعَلَها أُمَّ قواعدِ الأندْلس ، واشتقَّ لهـا اسمًا من اسمه ومن اسم رُومية فسمَّاها رُومية يُولِيش ؛ ويقال إنَّ إشْبانيا اسمٌ خاصٌّ ببلد إشبيلية الذى كان ينزله إشـبان بن طِيطُش وباسمه سُمِّيَت الأندلس إشْبانيا ، ولم تَزَلْ مُعَظَّمةً عند العَجَم من ذلك الوقت ، وقد كان منها رجال[١] وَلُوا قيادةَ العَجَم العُظمَى والمَمْلَكة بمدينة رومية ، وَرَوَى ابن وضَّاح[٢] أَنَّ المرأة التى قتلَتْ يحيي بن زكرياء عليه السلام من إشبيلية من قرية طَالِقة[٣] .

* وهى كبيرةٌ عامرةٌ لها أسوارٌ حصينة ، وأسواقها عامرة ، وخلقُها كثير ، وأهلها مياسيرُ ، وجلُّ تجارتهم الزيت يتجهَّزون به[٤] إلى المشرق والمغرب[٥] بَرًّا وَبَحْرًا ، فيجتمع[٦] هذا الزيت من الشَّرَف ، وهو مسافة أربعينَ ميلاً كلُّها فى ظِلِّ شجر الزيتون والتين ، أوَّله مدينة إشبيلية ، وآخره مدينة لَبْلة ، وسَعَتُه اثنا عشر مِيلاً ، وفيه ثمانية آلاف قَرْيةٍ عامرةٍ بالحمَّامات والدِّيار الحسنة ، وبين الشَّرف وإشبيلية ثلاثة أميال[٧] .

* ومدينة إشبيلية مُوفيةٌ على النهر الكبير ، وهو فى غربيِّها ؛ ويُذكر فى بعض الأخبار أَنَّ إشْبَان بن طِيطُش من ذُرِّيَّةِ طوبيل بن يافِت بن نوح كان أَحَـدَ أملاك الإشبانيين ، وخصَّ بمُلْكِ أكثر الدنيا ، وأَنَّ بدء ظهوره كان من إشبيلية فغلظ أمْره ، وبَعُدَ صيتُه ، وتمكَّن فى كلِّ ناحية سلطانُه ؛ فلمّا ملك نواحى الأندلس ، وطاعَتْ له أقاصِى البلاد خرج فى السُّفُن من إشبيلية إلى إيلياء ؛ فغنمها وهدمها وقتل بها من اليهود

(١) ت و س و ف : « فيها » .
(٢) ب ف ت و ف و م .
(٣) ب و ه ص ٢٥٩ ، راجع مو ج ١ ص ٩٩ .
(٤) ا و : « يتجهز به منها » .
(٥) ا و : « إلى أقصى المشارق والمغاربه » .
(٦) ا و « يجتم » .
(٧) ا و ص ١٧٨ .

مائة ألف ، وسبي مائة ألف ، وفرّق فى الأرض مائة ألف ، وانتقل رخامها إلى إشبيلية ومارِدَة وباجَة[١] ؛ وإنّه صاحِبُ المائِدة التى أُلفِيَتْ بطليطلة ، وصاحبُ الحجَر الذى وُجِدَ بمارِدَة ، وصاحبُ قُلَيْلة الجَوْهَر التى كانَتْ بمارِدة أيضاً على حسب ما ذُكر فى فَتْح الأندلس ، فإنّه حضر خراب بيت المَقْدِس الأوّل مع بُخْت نَصّر ، وحضر الخراب الذى كان مع قَيْصَر بَشْبَشْيَان[٢] ؛ وأذْرِيَان قَيْصَر يذْكَرُ أنّه من طالقِة إشبيلية ، وفى ستة عشرين من دولته أنفَقَ ببنيان إيلياء ، وكان من مضى من ملوك الأعاجم يَتَدَاوَلُون عَسْكَنِهم أربعة من المُدُن الأندلسيّة : إشبيلية ، ومارِدة ، وقرطبة ، وطليطلة ؛ ويقسمون أزْمَانهم على السكَيْنُونة .

وكان سورُ إشبيلية من بِنَاء الإمام عبد الرحمٰن بن الحَكَم ، بناه بعد غلبة المَجُوس عليها بالحَجَر وأحكم بناءها ، وكذلك جامعُها من بنائه ، وهو من عجيبِ البنيان وجليلِه ، وصومعتُه بديعةُ الصناعة ، غريبةُ العمل ، أركانُها الأربعة عمودٌ فوق عمودٍ إلى أعْلاها ، فى كلّ ركنٍ ثلاثة أعْمِدَة ؛ فلما مات عبد الرحمٰن بن إبراهيم بن حجّاج فى محرّم سنة ٣٠١ قدّمَ أهلُها أحمدَ بنَ مَسْلَمَةَ ، وكان من أهل البأس والنجدة فأظهر العناد ، وجاهَرَ بالخلاف ، فأخرج إليه عبد الرحمٰن بن محمّد قائِداً من قُوّاده بعد قائدٍ ، حتّى افتتحها على يَدَى الحاجِب يوم الاثنين لخمس خَلون من جمادى الأولى سنة ٣٠١[٣] .

واستعمل عليها سعيدَ بن المنذر المعروفَ بابن السَّلِيم ، فهدم سورَها ، وألْحَقَ أعَالِيَهُ بأسافِلِهِ ، وبنى القَصْرَ القديمَ المعروفَ بدار الإمارة ، وحصّنه بسور صَخْرٍ[٤]

(١) به ف ت و س وغ .

(٢) ت و س : « يشتيشيان » .

(٣) به ف ت و س أوله : « تقدّم أهلها » .

(٤) ت و س و ف : « حجر » .

رفيع ، وأبراج[1] منيعة ، وبُنِيَ سورُ المدينة فى الفتنة بالتراب[2] .

وبإشبيلية آثارٌ للأُوَل كثيرةٌ ، وبها أساطينُ عِظامٌ تدلُّ على هَيَاكِل كانَتْ بها ؛ وإشبيلية من الكُوَر المُجَنَّدَة نزلها جندُ حِمْص ، ولِوَاؤُهُمْ فى المَيْمنَةِ بعد لواء جُنْد دمشق ، وهى من أمصار الأندلس الجليلة الكثيرة المنافع ، المظيمة الفوائد ، ويُظِلُّ على إشبيلية جَبَلُ الشَّرَف ، وهو شريفُ البقعة ، كريمُ التُّرْبة ، دائمُ الخضرة ، فَرَاسِخُ فى فَرَاسِخَ طولاً وعَرْضًا ، لا تكاد تشمسُ منه بقعةٌ لالْتِفَافِ زيتونِهِ واشْتِبَاكِ غُصُونِهِ ، وزيتُه من أطيب الزيوت كثيرة الرَّفْع[3] عند المصر ، لا يَتَغَيَّرُ على طول الدَّهر ، ومن هناك يُتَجَهَّزُ به إلى الآفاق بَرًّا وبَحْرًا ، وكلُّ ما استُودِعَ أرض إشبيلية نَمَى وزَكَى وجَلَّ[4] ؛ والقطنُ يجودُ بأرضها فيَعُمُّ بلادَ الأندلس ويَتَجَهَّزُ به التُّجَّارُ إلى إفريقيـة وسِجِلْمَاسَة وما وَالاها ، وكذلك العُصْفُرُ بها يَفْضُلُ عُصْفُرَ الآفاقِ ؛ وبقبليّ مدينة إشبيلية بساتينُ تُعرَفُ بجنّات المصلَّى وبها قَصَبُ السكَّر ، وفى آخِرِ نهر إشبيلية من كِلْتَيْ جانِبَيْهِ جَزَائِرُ كثيرةٌ يُحيطُ بها الماء ، كَلَأُها قائمٌ لا يصوّح لدوام ندوتها ، ورطوبةِ أرضها ، ويصلح نتاجُها وتدومُ ألبانُها ويمتنع ما فيها من الحوافِرِ والظِّلْف على العدوّ فلا يصل إليه أحدٌ ، وهذه الجزائرُ تُعْرَف بالمدائِن وبعضُها بقرب من البَحْر[5] .

وفى سنة ٥٩٧ ، فى جماداها الأخير ، كان السيلُ العظيمُ الجارفُ على إشبيلية المُرْبى على كلِّ سيلٍ ، وهو مذكورٌ فى الثانى من « حَالِي الفِكَر » فى أوّل ورقة منه سنة ٥٩٧ فانقُلْه من هناكَ .

---

(١) ت وس و ف : « أبواب » . (٢) به فى ت وس و ف أوله : « فى الفتنة » .

(٣) م : « الدفع » . (٤) راجع ترجمة الشرف أسفله . (٥) ب وع ص ٣٦٠ .

وفي سنة ٦٤٦ ، تغلّب العدوُّ على مدينة إشبيلية في شعبان منها ، بعد أنْ حُوصِرَت أشهراً حتّى ساءتْ أحوالُ أهلِها ، وخافوا وأيئسوا من الإعانة ، فأصفق رأيهم على إسلامها للعدوّ والخروج عنها ؛ فكان ذلك ، وأجّلَهُمْ الفُنْش رَيْثَما يستوفون احتمال ما استطاعوا حَمْلَه من أموالهم ، ثمّ خرجوا عنها وأقامَتْ خاليةً ثلاثة أيّامٍ وسَرَّح معهم الطاغيةُ خَيْلاً تُوَصِّلُهُمْ إلى مأمَنِهِمْ ، وكان صاحبَ أناةٍ وسياسةٍ ، ويقال إنّهُ لما مات دُفِنَ في قِبْلةِ جامِعِها الأعظمِ .

١٥ — أَشْتَبِين

حِصْنٌ بالأنْدَاس على يسار الطريق ، تحت أَصْلِ جَبَلٍ ممتنعٍ ، لايدركه مقاتلٌ طَامِعٌ ، بَنَى عليه بعضُ الملوك حصوناً كثيرةً ، وحُوصِر مدّةً سنة ٣١٣ . وبعد لأْيٍ ما افتُتِحَ وذلك في عقب سنة ٣١٣ .

١٦ — أَشْكُونِي

بالأندلس من كُوَرِ تُدْمِير مَعْرُوفٌ ، ومن الغرائب أنّ مَنْ أراد أنْ يَتّخِذَ فيه جِنَاناً صرف إلى الموضع العناية بالتّدْمِين(١) والعِمارة والسَّقْي من النّهْر ، فتُنبتُ الأرضُ هناك بطَبْعِها شَجَرَ التفّاح والكُمّثْرَى والتين والرُّمّان وضُرُوبَ الفواكِهِ حَاشَا شَجَرِ التوتِ من غير غراسةٍ ولا اعتمالٍ .

(١) ف : « باليدين » ، م : « بالتدبير » .

١٧ — أُشُونَة

من كُوَرِ إِستِجَّة بالأندلس بينهما نصفُ يوم، وحصنُ اشونَة مُمَدَّنٌ، كثيرُ الساكِنَ(١)

١٨ — إِصْطَبَّة(٢)

مدينة بالأندلُس على خمسة وعشرين ميلاً من قَلْشَانَة، ومن قلشانَة، وهِيَ قاعدةُ شَذُونَة، إلى قرطبة أربعةُ أيَّامٍ، ومن الأَميالِ مائةَ ميلٍ وعشرة أميالٍ.

١٩ — إِغْرَنَاطَة

مدينةٌ بالأَنْدلس، بينها وبين وادِى آش أربعون مِيلاً، وهى من مُدُنِ إِلبيرة.

* وهى مُحْدَثَةٌ من أيَّام الثوّار بالأَنْدلس، وإنّما كانت المدينةُ المقصودةُ إلبيرة؛ فخلَتْ وانتقل أهلُها منها إلى إِغْرَنَاطَة، ومَدَّنَها وحصَّن أسوارَها، وبنى قَصَبَتَها حَبُّوسٌ الصِّنْهَاجِيُّ، ثمَّ خلفه ابنُه بَادِيس بن حَبُّوس؛ فكَمُلَتْ فى أيَّامه، وعمرَتْ إلى الآن، ويشقُّها نَهْرٌ يسمَّى حَدَرُّه(٣)، وبينها وبين إلبيرة ستَّة أميال، وتُعرف بإِغْرَنَاطَة اليَهُود لأَنَّ نازِليهَا كانوا يَهُودَ، وهى اليومَ مدينةٌ كبيرةٌ قد لحقَتْ بأمصارِ الأَنْدلس المشهورة، وقَصَبَتُها بجوفيّها، وهى من القِصاب الحصينة، وجُلِب الماء إلى داخِلها من عَيْنٍ عَذْبَةٍ تجاورُها، والنَّهْرُ المعروفُ بِنَهْرِ فَلُوم ينقسم عِنْدَ مدينَتِها قِسْمَيْن: قِسْمٌ يَجْرِى فى أسفلِ المدينة، وقِسْمٌ يجرى فى أَعلاها، يَشُقُّها شقًّا، فيجرى فى بعض حَمَّاماتِها، وتطحنُ

(١) ار ص ٢٠٦. (٢) فى جميع النسخ: «إصعبة». (٣) ار ص ٢٠٣.

الأرحاء عليه خِلَالَ منازلها ، ومخرجُه من جبلٍ هناك ، وتُلقط فى جَرْيةِ مائِه بُرَادَةُ الذّهَب الخالِص ، ويُعرف بالذّهَب المَدَنىّ ، ومَقْبَرَة إغْرَنَاطَة بغربيّها عند باب إلبيرة .

وفَحْصُ إلبيرة أَزْيَدُ من مسافة يومٍ فى مثلِه يصرفون فيه مياهَ الأنهار كيف شاؤوا كُلَّ أوان ، من جميع الأزمان ، وهو أطيب البقاع نفحةً ، وأكرمُ الأرَضين تربةً ، ولا يعدل به مكانٌ غيرُ غُوطة دمشق وشارِحة الفَيُّوم ، ولا تعلم شَجرةٌ تستعْمَل وتستغَلّ إلاّ وهى أنجب شىء فى هذا الفحص ، وما من فاكهةٍ توصف وتُستطرَفُ إلاّ وما هناك من الفاكهة فوقها ، ويجودُ فيها من ذلك ما لا يجودُ إلاّ بالساحِل من اللّوْز وقَصَب السكّر وما أشبههما . وحريرُ فَحْصِ إلبيرة هو الذى ينتشر فى البلاد ، ويَعُمّ الآفاق ، وكَتّان هـذا الفحص يربُو جَيّدُه على كَتّان النيل ، ويكثر حتى يصِلَ إلى أقاصى بلادِ المسلمين ، وبإلبيرة مَعَادِنُ جَوْهَرِيّةٌ من الذّهَب والفضّة والصُّفْر والحديد والرصاص والتوتيا ، وجبل الثلج هو جبلٌ يُشْرِفُ على جبل إلبيرة .

٢٠ – إفْرَاغَـة

مدينةٌ بقربِ لارِدَة من الأندلس ، بينهما ثمانية عشر ميلاً ، وهى على نَهْر الزيتون ، حسنةُ البناء ، لها حِصْنٌ منيعٌ لا يُرَام وبساتينُ كثيرة لا نظيرَ لها[١] .

وحاصَرَها العدوُّ فى جمعٍ كثيفٍ ، وآلى زعيمُهم ابن رُدْمير على نفسه ألاّ يبرح حتّى يأْخُذَها عنوةً ، وذلك سنة ٥٢٥ ، فى شهر رمضان منها ، فنهد إليه يحيى بن علىّ بعزمة صادقةٍ ونيّةٍ صحيحةٍ فى جموعِه ؛ فلقّاه الله تعالى بَرَكَتَها ، وأجْناه ثمرتَها ، وهَزَمَهُ بعد

(١) او سى ص ٦٩ .

أنْ قَتَلَ أكثرَ رِجاله ، والجُمْلةَ التى بها كان يصول من أبطالِهِ ، وفرَّ اللعينُ وسيوفُ المجاهِدِين تأخُذُ[1] منه ، وعزيمتُهم لا تقلع عنه ، إلى أن أوى[2] إلى حِصْنٍ خَرِبٍ فى رأس جبلٍ شاهقٍ مع الفَلِّ الذى بقى معه بعد الإمساء ، وأحْدَق المسلمون تلك الليلةَ بذلك الحصن يَرْقُبُونَهُ ؛ ولمَّا أيْقَنَ أنّه سيصطلم إنْ أقام هناك تسلَّل فى ظلمة الليل من ذلك الموضع واتَّخذ اللَّيْلَ جَمَلاً ، وإذا رأى غيرَ شىءٍ ظنَّه رَجُلاً .

وانصرف المسلمون مُغْتَبِطِين بغنيمتهم وأجرهم ، وكان ذلك سَبَبًا لبقائها بأيدى المسلمين ، إلى أنْ ينقضى أجَلُ الكتاب .

ففى صفة الحال ، يقول شاعِرُ الشَّرْق فى وَقْعَةِ يحيى بن علىّ هذه ، أبو جعفر بن وَضَّاح المرْسِىُّ ، من قصيدةٍ يمدحُهُ بها [بسيط] :

شَمَّرْتَ بُرْدَيْكَ لَمَّا أسْبَلَ الوانِى ... وشَبَّ مِنْك الأعادى نارَ غيّانِ
دَلَفْتَ فى غابَة الخَطِّىِّ نحوهُمُ ... كالعين يَهْفُو عليها وُطْفُ أجْفَانِ[3]
عَقَرْتَهُمْ بسيوف الهند مُصْلَتَةً ... كأنَّما شربوا منها بِغُدْرَانِ
هَوِّنْ عليك سوى نَفْسٍ قتلتَهُمُ ... مَنْ يَكْسِرِ النَّبْعَ لم يعجزْ عن البَانِ
أوْدَى الصميمُ وعاقت عن هيئتهم ... مقادر أغْمَدَتْ أسياف شجعانِ
وقفتَ والجيش عقدٌ منك منتثراً ... إلاّ فرائِدَ أشياخٍ وشُبَّانِ
والخَيْلُ تنحطُ من وقْع الرماح بها ... كأنَّ تَصْهالَها تَرْجيعُ ألْحَانِ

فى أبيات غير هذه .

(١) ق : « يأخذون » .   (٢) ق : « أربى » .   (٣) لم يقع هذا البيت فى م .

٢١ — إفْرَنْجَة

* فى وسط الإقليم الخامِس ، هواؤُها غليظٌ لشدَّةِ بَرْدِها ، ومصيفُها مُعْتَدِلٌ ، وهى بلادٌ كثيرةُ الفاكهة ، غَزِيرةُ الأنهار المنبعثة من ذَوْب الثلج ، ومدائنُها متقنةُ الأسوار ، محكمةُ البناء ، وآخِرُ حُدودِها البَحْرُ الشَّأْمِىُّ بقِبْلِيِّها ، والبحرُ المُحيطُ بجوفيِّها ، وتتَّصل ببلاد رومة أيضاً من ناحية القبلة ، وتتَّصل أيضاً من ناحية الجوف ببلاد الصَّقَالِبة ، بينهما شَعْرَاء مُلْتَفَّةٌ مسيرةَ الأيَّام الكثيرة ، وتتَّصل فى الشرق بالصقالبة أيضاً ، وتتَّصل فى الغرب بالبَشْكُنَش[1] ، وتمادى أعمال إفرنجة فى الطول والعَرْض مسيرةَ شهرَيْن فى شهرَيْن ، ويحجز بين بلاد إفرنجة وبلاد الصَّقَالِبة من الجوف والشرق الجبلُ المعترضُ بين البحرَيْن ، فيتمادى بلاد الإفرنج مع ساحل البحر الشأمىّ حتَّى يلزق بجزيرة رومة وبلاد لُنْقُبَرْدِيَة ، ويتمادى مع الجبل المعترض فى الجوف إلى البحر المُحيط ، ويتَّصل بالصقالبة بلادُ المَجُوس المعروفين بالأنقاش ؛ وسيوفُ إفْرَنْجة تفوق سيوفَ الهند[2] ، ومنها يَرِدُ الرقيقُ من بلاد الصَّقَالِبة ، ولا يكاد يُرَى ببلاد إفْرَنْجة زَمِنٌ ولا ذو عاهةٍ ، والزنى فى غير ذوات الأزواج عند الإفْرَنْجِ غَيْرُ مُنْكَرٍ ، وإذا حلف أميرُهم أو كبيرُهم حانِثاً استهانوه ، ولم يزالوا يُعَيِّرُونَه بذلك ، وأبْناءُ الأشراف عندهم يسترضعون فى الأباعد ، ولا يعرف الابْنُ أَبَوَيْهِ حتَّى يعقلَ ، وإذا عقل رُدَّ إليهما ، فيراهما كالسيِّدَيْن ويكونُ لهما كالعَبْد .

وكانت مملكتُهم مجتمعةً ، وأمرُهم مُلْتَئِماً حتَّى ثار على[3] رجلٍ من ملوكهم

---

(١) ت : « البشكيش » (٢) ب ٩٥ ص ٢٤٤ . (٣) ف : « عليهم » .

يسمّى قارْلُه قُومِسٌ مع مَلِكٍ يقال له رُذْبيرْت ، وذلك فى عهد الإمام عبد الله ، فحشد له قارْلُه ، وزحف بعضُهما على بعضٍ فقتَلَه قارْلُه ، وأسر أصحابُ رُذْبيرْت قارْلُه فمكَثَ عِنْدَهم أسيرًا أربعةَ أعْوَامٍ ثمّ هَلَكَ بأيديهم ، فافترق مُلْكُهُمْ واقتسم ؛ والإفْرَنْجَةُ من وَلَد يافِث هم والجَلالِقَة والصَّقالِبَة واللواكبرد[1] ، والإشْبَان والتُّرْك والخَزَر وبُرْجَان وآلَان ويَأْجُوج ومَأْجُوج ؛ والإفْرَنْجَة تدينُ بدين النَّصْرَانِيَّة ، وبرَأْى المَلَكِيَّة منهم ، ودارُ ملكهم آلانَ لُوذُون[2] وهى مدينةٌ عظيمةٌ ، ولهم من المدائن نحو من خمسين ومائة مدينة ، وقد كانت مملكتُهم قبل ظهور الإسلام بإفريقية وجزيرة صِقِلِّيَة وجزيرة إقْرِيطِش ؛ والإفْرَنْجَةُ أكثر هذه الأُمَّة عدَّةً وأحْسَنُهُمْ انقيادًا لملوكهم وأكثرهم مَدَدًا ، وأَوَّلُ ملوكهم قلودُيُه[3] ، وهو أَوَّلُ من تَنَصَّرَ وكانوا مَجُوسًا ، فَنَصَّرَتْه امْرَأَتُهُ واسمُها قلوطالد[4] .

ويُحكى أنَّ موسى بن نُصَيْر لمَّا غَزا الأندلُس أراد أن يخرق ما بَقِيَ عليه من بلاد إفْرَنْجَة ، ويفْتَح الأرض الكبيرة حتَّى يتَّصِلَ بالناس إلى الشأم مُؤَمِّلاً أنْ يتَّخِذَ مخترقةَ تلك الأرض طريقًا مَهْيَعًا يسلكُه أهلُ الأندلس فى مسيرهم ومجيئهم من المشرق إليه على البرِّ لا يركبون بَحْرًا ، وأنَّهُ أَوْغَلَ فى بلاد إفْرَنْجَة حتَّى انتهى إلى مفازةٍ كبيرةٍ وَأَرْضٍ سهلةٍ ذات آثارٍ ، فأصاب فيها صَنَمًا عظيمًا قائمًا كالسارية مكتوبةً فيه بالنقر كتابةٌ عربيَّةٌ قُرِئَتْ فإذا هِيَ : يا بنى إسماعيل انْتَهَيْتُمْ فارجعوا ! فهَالَهُ ذلك وقال : ما كُتِبَ هذا إلاَّ بِمَعْنًى ! وشاور أصحابَهُ فى الإعراض عنه وجوازه إلى ما وراءه ، فاختلفوا عليه ، فأَخَذَ برأى جمهورهم وانصرف بالناس وقَدْ أشرفوا على قَطْعِ البلاد وتَقَصِّى الغاية .

---

(١) ت و ف : « النواكرد » . (٢) ف : « نوبره » . (٣) ت و ف : « تلوريه » .

(٤) ت و ف : « عراطلة » .

٢٢ – أقش

مدينةٌ هى كانَتْ قاعدةَ الجِلِّيقِيِّين ، بينها وبين ليوزدال ثلاثون ميلاً ، وكانَتْ أقش قبل هذا منسوبةً إلى غَرْسيَة بن لُبّ ، وهى مبنيَّةٌ بالصخر المربَّع الكبير ، وهى على نهر كبير يدخُل مِنْه المجوسُ بمَرَاكِبِهم إليهم ، وفى المدينة حمّةٌ غَزيرةُ الماء ، واسعةُ الفضاء ، يستحمُّ أهلُها فى جنباتها على بُعْدٍ من عُنْصُرِها لشِدَّةِ سخونَتِهِ .

٢٣ – أُقْليش

مدينةٌ لها حِصْنٌ فى ثَغر الأندلُس ، وهى قاعدةُ كُوَرِ شَنْتَبَرِيّة ، وهى مُحْدَثَةٌ ، بناها الفَتْحُ بن موسى بن ذى النُّون ، وفيها كانَتْ ثورتُهُ وظهورُه فى سنة ١٦٠ ، ثمَّ اختار أُقليش دارًا وقرارًا ، فبناها ومدَّنها ، وهى على نَهْرٍ منبعثٍ من عينٍ عاليةٍ على رأس المدينة ، فيعمُّ جميعَها ، ومنه ماء حَمَّامها ؛ ومن العجائب البلاطُ الأوْسَطُ من مسجد جامع أُقليش ، فإنّ طولَ كلّ جائزةٍ من جوائزه مائة شبرٍ وإحدى عشر شبرًا ، وهى مربَّعة منحوتَةٌ مستويَةُ الأطراف .

٢٤ – أُقيَانُس

هو اسْمٌ لبحر الظلمات ، ويقال له البحرُ الأخْضَرُ ، والمحيط الذى لا يُدْرَكُ له غايَةٌ ، ولا يحاط بمقداره ، ولا فيه حيوان ، وهو الذى يخرج منه البحر الرومىُّ الذى هو بحر الشأمِ ومصر والغرب والأندلُس ، فإنه خليجٌ يخرج من هذا البحر ،

وقد خَاطَرَ بنفسه خَشْخَاش من الأندلس ، وكان من فتيان قرطبة ، فى جماعة مِن

أَخْدَاثها ، فركبوا مراكب استعدُّوها ، ودخلوا هذا البحر ، وغابوا فيه مُدَّةً ، ثمَّ أَتَوْا بغنائمَ واسعةٍ وأخبارٍ مشهورةٍ .

وإنَّمَا يُرْكَبُ من هذا البحر مِمَّا يَلِي المغرب والشمال ، وذلك من أقاصى بلاد السودان إلى برطانية ، وهى الجزيرة العُظْمى التى فى أقصى الشمال ، وفيه ستُّ جزائر تقابل بلاد السودان تُسَمَّى الخالِدَات ، ثمَّ لا يعرف أحَدٌ ما بعد ذلك ، وستأتى إن شاء الله تعالى حكايةٌ أُخْرى عمَّن دخل هذا البحر أطْوَلَ من هذه فى موضعها فى ذكر الأُشْبُونة[1] .

٢٥ — إلْبِيرَة

من كُوَر الأندلس ، جليلةُ القَدر ، نزلها جندُ دمشق من العرب ، وكثيرٌ من موالى الإمام عبد الرحمن بن معاوية ، وهو الذى أسَّسها وأسكنها مواليَه ، ثمَّ خالَطَتْهم العربُ بعد ذلك ؛ وجامعُها بناهُ الإمام محمّد ، على تأسيسِ حَنَش الصَّنْعانىّ ، وحَوْلَها أنهارٌ كثيرةٌ ، وكانت حاضرةُ إلبيرة من قواعد الأندلس الجليلة ، والأمصار النبيلة ، فخربَتْ فى الفتنة وانفصل أهلُها إلى مدينة غرناطة ، فهى اليومَ قاعدةُ كُوَرِها ، وبين إلبيرة وغرناطة ستَّة أميال .

ومن الغرائب أنَّه كان بناحية مدينة إلبيرة فرسٌ قد نُحِتَ من حَجَر صَلْدٍ قديمٌ هناك لا يُعْلَمُ واضِعُه ، فكان الغلمان يركبونَه ويتلاعبون حَوْلَهُ ، إلى أن انكسر منه عُضْوٌ ، فزعم أهلُ إلبيرة أنَّ فى تلك السنة التى حَدَثَ فيها كَسْرُه تغلَّب البَرْبَرُ على مدينة إلبيرة فكان أوَّلَ خرابها .

(١) راجع أعلاه ص ١٧

ومدينة إلبيرة بَيْنَ القبلة والشرق من قرطبة ، ومنها إبراهيم بن خالد، سمع من يحيى وسعيد بن حسّان ، وسمع من سُحْنون ، وهو أَحَدُ السبعة الذين اجتمعوا فى إلبيرة فى وقتٍ واحدٍ من رواةِ سُحْنون ، ومنها أبو إسحق بن مسعود الإلبيرىُّ صاحب القصيدة الزُّهديَّة التى أَوَّلُهَا [وافر] :

تَفُتُّ فؤادَكَ الأيَّامُ فَتَّا ... وتَنْحَتُ جِسْمَكَ السَّاعاتُ نَحْتَا

وهى طويلةٌ جدًّا ، وهو القائل [كامل] :

مَنْ لَيْسَ بالباكى ولا المُتَبَاكى ... لقبيحِ ما يأتى فلَيْسَ بِرَاكِ

القصيدة بطولها ، وهو القائل [سريع] :

ما أَمْيَلَ النَّفْس إلى الباطِلِ ... وَأَهْوَنَ الدُّنيا على العَاقِلِ

آهِ لِسِرٍّ صُنْتُهُ(١) لَمْ أَجِدْ ... خَلْقًا له قَطُّ بمستاهِلِ

هل يَقِظٌ يَسْأَلنى ، عَلَّنى ... أَكشفُه لليَقِظِ السائلِ

لو شُغِلَ المَرْءُ بتَرْكِيبِهِ ... كان به فى شُغلٍ شَاغِلِ

وعايَنَ الحِكْمَةَ مجموعةً ... ماثِلَةً فى هيكلٍ ماثِلِ

يا أَيُّها الغافلُ عن نَفْسِهِ ... ويحك فِقْ مِن سِنَةِ الغافلِ

وساحلُ إلبيرة كان به نزولُ الأميرِ عبد الرحمٰن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الداخل إلى الأندلس حينَ عبوره إليها .

---

(١) ف : « ضمنته » .

٣٦ — أَلْش

بالأندلس إقليم أَلْش من كُوَر تُدْمِير ، بينه وبين أُرِيُولة خمسة عشر ميلاً .

* وأَلْش مدينة فى مستوٍ من الأرض ، يَشُقُّها خليجٌ يأتى إليها من نَهْرِها ، يدخلُ مِن تحت السور ويجرى فى حَمَّامِها ، ويشقُّ أسواقَها وطُرُقَها وهو مِلحٌ سبخيٌّ(١) .

ومن أَلْش إلى لَقَنْت(٢) خمسة عشر ميلاً ، ومن الغرائب أَنَّ بساحل أَلْش بمَرْسًى يُعْرَفُ بشَنْتَ بُولَ حَجَراً يُعْرف بحَجَر الذِّئْب . إذا وُضِعَ على ذِئْبٍ أو سَبُعٍ لم يكُنْ له عُدْوان ، وفارق طبْعَه من الفساد .

٣٧ — أُنْدَة

مدينةٌ من كُوَر بلنسية .

٢٨ — أَنْدَارَة

مدينةٌ عظيمةٌ فى شَرْق الأندلس خَرَّبَتْها البَرْبَر .

٢٩ — أَنْدَرَش

مدينةٌ من أعمال المرِيَّة ؛ هى من أَنْزَهِ البُلْدَان ، وفيها يقولُ أبو الحجّاج بن عَتَبة الإشبيليُّ الطَّبيبُ الأديبُ الشّاعرُ ، وقد مَرَّ عليها [كامل] :

لِلّهِ أَنْدَرَشٌ لقَدْ حازَتْ عَلَى   حُسْنٍ تتيــهُ به على البُلْدانِ

(١) ا و ص ١٩٣ .   (٢) ق : « لفشا » .

النَّهْرُ مُنْسَابٌ سَرَتْ[1] خِلْجَانُهُ ... في الرَّوْضِ بين أزاهِرِ الكَتَّانِ
فكأنَّما انسابَتْ هُنَاكَ أراقِمٌ ... قَدْ عُذْنَ راجِمَةً عن الشعبانِ

٣٠ – أَنِيشَة = أَنِيجَة

(بالشين المعجمة والجيم معاً) موضعٌ على مقربة من بلنسية وبالقرب من بَنِشْكُلَة .

* وَعَقَبَةُ أَنِيشَةَ : جبلٌ معترضٌ عالٍ على البحر والطريق عليه ، ولا بدّ من السُّلوك على رأسه ، وهو صعبٌ جدًّا[2] .

وفيه كانت الوقيعة بين المسلمين من أهل بلنسية وبين النصارى ، واستشهد فيها الأديبُ المحدِّثُ العلاّمَةُ أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكَلاَعيُّ مُصَنِّف « كتاب الاكتفاء في سير النبي (صلعم) والثلاثة الخلفاء » ؛ وكانت هذه الوقيعة في سنة ٦٣٤ ؛ وكان خطيباً راويةً ناظماً ناثراً ، ورثاهُ الكاتبُ أبو عبد الله بن الأبّار القُضَاعيُّ بقصيدةٍ طويلة أوّلها [طويل]

أَلِمَّا بأشْلاءِ العُلَى والمكارِمِ ... تُقَدُّ بأطراف القَنا والصَّوارِمِ

أحسن فيها ما شاء ، وفيها :

سقى اللهُ أشلاءً بسفحِ أنيشَةٍ ... سوافِحَ تُزْجِيها ثقالُ الغمائمِ

وفيها : أَضَاعَهُمُ يومَ الخميس حفاظُهُمْ ... وكَرُّهُمُ في المأزق المتلاحِمِ

وفيها : سلامٌ على الدنيا إذا لم يَلُحْ بها ... مُحَيَّا سليمان بن موسى بن سالِمِ

---

(١) م : مضت . (٢) اد ص ١٩١ .

ورثاه أيضاً الفقيهُ الكاتبُ أبو المطرِّف أحمد بن عبد الله بن عَميرة المَخْزُومِىُّ ، فقال من قصيدة [متقارب] :

وأعْظَمُ مَيْتٍ فُجِعْنَا بِهِ ... حليفُ النّدى الماجدُ الواهبُ
وذاك سليمان لا غائبٌ ... إذا الأمرُ جَدٌّ ولاَ لاعِبُ
فلِلّهِ من حَقِّــــهِ جانبٌ ... وللصَّحْب من أُنْسِهِ جانِبُ
فَأَىُّ امرِئٍ صار نحوَ الرَّدَى ... كما صَمَّمَ الصارمُ القاضِبُ
وأىُّ مناقبَ مِلْءَ الزمان ... يُلِمُّ بها بعـــده النادِبُ
فيا نورَ عِلْمٍ تبــــدَّى لنا ... شهابٌ لنــــاظره ثاقِبُ
ويا طودَ حِلْمٍ هوى سائخًا ... وَهْـــوَ على حاله راسِبُ
ألاَ فى سبيل هُدَاةِ السبيل ... مضاؤك حين نبا الهائِبُ
هربتَ إلى الله فى موطنٍ ... على عاره حصَّل الهارِبُ
وغودِرْتَ نَهْبَ عُفاةِ العُلَى ... فنَالَ الذى شَاءَهُ النَّاهِبُ
إذا كان للدّود ميتُ القبور ... فَلَلذِّئْبُ أَكْرَمُ والناعِبُ
تَلَقَّاكَ رَبِّى برضْـــوَانِهِ ... وجادَكَ منه الحيا الساكِبُ
وَإِنَّ الذى نلْتَ من قربه ... لَأَفْضَلُ ما يطلبُ الطالِبُ
عليكَ السَّـــلامُ إلى غَايَةٍ ... مِنَ الموتِ كُلٌّ لها ذاهِبُ

٣١ — أُورِيط

مدينةٌ قديمةٌ بالأندلس ، كانَتْ عظيمةً مذكورةً مع طُلَيْطُلَة ، وهى معها فى حدٍّ واحدٍ من قسمة قُسْطَنْطِين ، وإنَّما عُمِّرَتْ قلعةُ رَباح وكَرَكَىْ بخرابِ أُورِيط .

٣٢ — أُورِيُولَة

حصنٌ بالأندلس ، وهو من كُوَر تُدْمِير ، وأَحَدُ المواضع السبعة التى صَالَحَ عليها تُدْمِيرَ بْنَ عبدوس عبدُ العزيز بْنُ موسى بن نُصَيْر ، حين هزمه عبدُ العزيز ووضع المسلمون السيفَ فيه ، فصَالَحَهُ على هذه المعاقِل وعلى أداء الجزية ، وكان حصنُ أُوريولة قاعِدَةَ تُدْمير ، وذِكْرُهُ مشروحٌ فى ذكر قَرْطَاجَنَّة .

وبين أُوريولة وأَلْش ثمانية وعشرون مِيلاً ، ومدينةُ أُوريولة قديمةٌ أَزَلِيَّةٌ . كانَتْ قاعِدَةَ العَجَم وموضِعَ مملكتِهم ، وتفسيرُها باللَّطينىّ « الذَّهَبِيَّة » .

* ولها قَصَبَةٌ فى نهايَةٍ من الامتناع على قنَّة جبلٍ ، ولها بساتينُ وجنَّاتٌ فيها فواكه كثيرة ، وفيها رَخاء شاملٌ وأسواقٌ وضياعٌ ، وبينها وبين مرسية اثنا عشر مِيلاً ، وبيْنها وبيْن قَرْطَاجَنَّة خمسة وأربعون مِيلاً[1] .

وَلِيَ قَضَاءَهَا أبو الوليد الباجِىُّ .

٣٣ — أُولِيَة السَّهْلَة

بالأندلس قريبةٌ من قرطبة ، تُعْرَفُ بالرَّمْلَة ، وهى أُمُّ الأقاليم ، كثيرةُ الأهْل ، واسعةُ الخطَّةِ ، مثمرةُ الأرَضين ، بها ديارٌ للعَجَم متقنةُ البنيان ، فى إحداها أربعُ سَوَارٍ مجزَّعةٌ من نفيسِ الرخام فى نهايَةِ العظمِ والطولِ ، عَلَيْهَا الناقوسُ .

---

(١) اد ص ١٩٣ .

٣٤ ـ أَوْنَبَـــة

مِن مُدُن جبل العُيُون بالأندلس ، وهى مدينةٌ ممتنعةٌ بين جبالٍ ضيِّقةِ المسالكِ ، وهى قديمةٌ ، لهـا آثارٌ للأُوَل ، فيها ماء مجلوبٌ فى أقْباءٍ واسعةٍ قد خُرِقَ بها الجبالُ الشامخةُ حتَّى وصلَ المـاءُ إلى أسْفَلِ هذه المدينة ، فيسقى بَعْضَ بساتينها ، ولا يُدْرَى مِن أيْنَ أصْلُ هذا الماء ، وشرقىَّ المدينة كنيسةٌ كبيرةٌ معظَّمةٌ عندهم ؛ يزعمونَ أنَّ أحَدَ الحَوَارِيِّين بها ، وما أَكْثَرَ ما يوجد فى حفائرِ هذه المدينة مِنْ آثارٍ عجيبةٍ .

وهـذه المدينة بَرِّيَّةٌ بَحْرِيَّةٌ ، بيْنها وبيْن البحْر نحو مِيلٍ ، وبيْنها وبين لَبْـلَة ستَّة فَرَاسِـخ .

حرف الباء

٣٥ – بَاجَـةُ

وأمّا باجَةُ الأندلسِ فهى من أقْدَم مَدَائِنها ، بُنِيَتْ فى أيّام الأقَاصِرَة ، بينها وبين قرطبة مائة فَرْسَخ ، وهى مِن الكُوَر المُجَنَّدَةِ ، نزلها جُندُ مِصْرَ وكان لِوَاؤُهم فى المَيْسَرة بعد جُنْد فِلَسْطِين ، وهم النازلونَ بشَذُونة ، فحمل الأميرُ عبد الرحمٰن بن معاوية لِوَاءهم ، وأسْقَطَ جُنْدَهم ، وأخْمَلَ ذِكْرَهم ؛ وكان سببُ ذلك أنّ العَلاَءَ بن مُغيث اليَحْصُبِيَّ كان رئيسَ جُنْدِ باجَة ، فثار بها ، وقام بها بدعوة بنى العبّاس ، ولَبِس السَّوادَ ، ورفعَ رايةً سوداء ، واجتمعَ إليه قُيّامٌ مِن الناسِ ؛ فقاتَلَهُ عبدُ الرحمٰن بن معاوية فى قريةٍ مِن قُرَى إشبيلية تُعْرَفُ بالكَرْم ، حتّى هَزَمَهُ الإمامُ وَقَتَلَهُ .

ومدينةُ باجةَ أقْدَمُ مُدُنِ الأندلس بنيانًا ، وَأوّلُهَا اختطاطًا ، وإليها انتهى يُولِيش القَيْصَر ، وهو أوّلُ مَنْ سُمِّىَ قَيْصَر ، وهو الذى سمّاها بَاجة ، وتفسيرُ بَاجَة فى كلام العجم « الصُّلْحُ » ، وحَوْزُ باجة وخِطَّتُهَا واسعةٌ ، ولها مَعَاقِلُ موصوفة بالمنعة والحصانة .

ومنها الإمام القاضى أبو الوليد الباجىُّ ، سليمانُ بن خَلَف ، شارِحُ المُوَطّأ ، الفقيهُ الأديبُ ، العالمُ المتكلّمُ ، رَحَل إلى الحِجاز والعِرَاق ، ولَقِىَ العُلَمَاء ، وتَجَوّلَ ثلاثة عشر عاماً ، وَصَنّف فى الأُصُولِ والفُرُوع .

وله [متقارب] :

إذَا كنتُ أعلمُ عِلْمًا يَقِينًا بأنّ جميع حَيَاتى كَسَاعَهْ
فَلِمْ لا أكون ضَنِينًا بها وَأجْعَلُها فى صلاحٍ وطاعَهْ

ذكر ابن عَسَاكِر فى تأريخه أنَّهُ توفِّى فى سنة ٤٧٤ بالمريَّة ، وقبره فى الرِّباط ، على حاشيةِ البَحْر .

٣٦ — بُبَشْتُر

بالأندلس ، حِصْنٌ منيعٌ بينه وبين قرطبة ثمانون ميلاً ، وهو حِصْنٌ تزلُّ عنه الأبصارُ ، فكَيْفَ الأقدامُ ، على صَخْرَةٍ صَمَّاء منقطعةٍ ، لهـا بابَانِ يتوصَّل إلى أعْلاَهما من شعب يسلكه الرَّاجِلُ الخفِيفُ ، وطريقُه عند الطلوع والهبوط على النَّهر ، وأعْلَى الصخرةِ سهلةٌ مربَّعةٌ ذاتُ مِياهٍ كثيرةٍ تقطع الحَجَر ، فينبعث الماء العذبُ ، ويُنْبط فيها الآبارُ بأيسرِ عملٍ وكدٍّ .

وحصنُ بُبَشْتُرُ كان قاعدةَ العَجَم ، كثيرَ الديارات والكنائس والدَّواميس ، ولهذا الحصن قُرًى كثيرةٌ ، وحصونٌ خطيرةٌ ، وما حولَهُ كثيرُ المياه ، والأشجار ، والثمار ، والكروم ، وشجر التين ، وأصناف الفواكه ، والزيتون ؛ وما بها الآنَ إلاَّ نَبْذٌ ممَّا كان ، فإنَّ فِتْنَةَ ابن حَفْصُون أتَتْ على أكْثَرِ ذلك .

٣٧ — بَجَّانَة

(بفتح الباء بعدها جيم مفتوحةٌ مشدَّدةٌ بعدها ألِفٌ وبعد الألِف نون) .

مدينةٌ بالأندلس ، كانت فى قديم الدهر من أشرفِ قُرَى أُرْشِ اليَمَن ، وإنَّما سُمِّى الإقليم أُرْش اليَمَن لِأنَّ بنى أُميَّة لمَّا دخلُوا الأندلُس أنزلوا بنى سِرَاج القُضَاعِيِّين فى هذا الإقليم ، وجعلُوا إليهم حراسةَ ما يَليهم من البحر وحفْظَ الساحل ، فكان ما ضَمَّنُوا من مَرْسَى كذا إلى مَرْسَى كذا يُسَمَّى أُرْشَ اليَمَن ، أى عَطِيَّتُهُمْ ونحلتهم .

وبقرب بَجَّانة كان جامعُ الإقليم الأعظمُ ، إلاَّ أنَّهَا كانَتْ حارات مفترقةً حتَّى نزلها البَحْرِيُّونَ وتغلَّبوا على ما كان فيها من العَرَب وصار الأَمر لهم فجمعوها وبَنَوْا سورَها ، وامتثلُوا في ذلك بِنْيَةِ قرطبة وتَرْتيبِها ، وجعلُوا على أَحَدِ أَبْوَابِهَا صورةً تُشا كِلُ الصُّورَةَ الَّتِي عَلَى باب القنطرَةِ ، فأَمَّتْهَا النَّاسُ من كلِّ جهةٍ وانجفلُوا إليها من كلِّ ناحيةٍ ، فارِّين من الفِتَن التي كانَتْ إذ ذاك شاملةً ، فكانَتْ أَمْنًا لِمَنْ قَصَدَهَا ، وحَرَمًا لِمَنْ لَجَأَ إلَيْهَا ، وكانَتْ الميرة تُجْلَبُ إليها من العُدْوَةِ ، وضُرُوبُ المَرافق والتجارات ؛ وكان ذلك أيضًا من الأَسْباب الداعية إلى قَصْدِها واسْتيطانها ، وصارَ حَوْلَهَا أَرْبَاضٌ كثيرةٌ . ويَدْخُلُهَا من النَّهْرِ جَدْوَلانِ ، أحدُهما بأعْلى المدينة من جانب الشرْق ويَسْقِي بَسَاتِينَهَا كلَّها ، والثاني يشقُّ الأَرْبَاض الجوفيَّة ، ويخرُج عنها إلى الأرباض القبليَّة ، حتَّى يَقَعَ في النَّهْر هناك ؛ وجامِعُهَا داخِلَ المدينة ، بَنَاهُ عمر بن أَسْود ، وفيه قبوٌ على قُبَّةٍ فيها إحدى عشر حنيَّة ، منضربَةٌ عَلَى أربعة عشر عَموداً ، فنُقِّشَ أعاليه بنقوشٍ عجيبة . وبغربيّ القبو ثلاث بلاطات أوسعُ من الشرقيَّة عَلَى عُمُد صَخْرٍ ، وفي الصَّحْنِ بِئْرٌ عَذْبَةٌ ؛ وكان بمدينة بَجَّانَة إحدى عشر حمَّامًا ، وطُرُزُ حريرٍ ، ومَتَاجِرُ رابحةٌ ، وكان يُذْهِبُ الوادي الآتي من شرقيّها كثيراً من أرباضِها وأسْوَاقِها عِنْدَ حَمْلِهِ .

وبشرقيّ بَجَّانة على ثلاثة أميالٍ جبلٌ شامخٌ فيه مَعَادِنُ غَرِيبةٌ ، وفيه الحَمَّةُ العجيبة الشأْن ، ليس لها نظير في الأندلس ، في طيب مائها وعذوبتِهِ وصفائِهِ وبَذْرَقَتِهِ[1] ونفعِهِ وعموم بَرَكَتِهِ ، يقصدُها أهلُ الأسقام والعاهات من جميع النواحي ، فلا يكاد يخطئهم نفعُها ، وعليها من بِنَاء الأَوَّلِ صهريجٌ إلى جانبِ العين مربَّعٌ واسعٌ كانوا قد

(١) ت : « وبدوقته » .

بَنَوْا على شرقيّه قيوَيْن[1] ، فأعلاهُمَا هناك ظاهرٌ إلى اليوم ، والجُدُر الباقيةُ حواليه ، واتّخذوا على ذلك الماء قريةً كثيرةَ الزيتون والأشجار وضروب الثمار ، يُسْقَى جميعُها من هذا الماء ، تُعرف بقرية الحَمَّة ، وما فضل عن سَقْى هذه القرية يجتمع أسْفَلَهَا فى صهريجٍ عظيمٍ من بناء الأَوَلِ أيضاً ، فإذا تكامل فيه الماء سُرِب إلى قريةٍ متَّخذةٍ تسمَّى آبلُه ، فَسُقِيَتْ بذلك الماء .

وبجوفيّ مدينة بجّانة حَمّةٌ أخرى أغزرُ من الحَمّة الأولى ، أنجعُ فى الأسقام ، وأصلحُ للأبدان ، وَهُمْ يزعمون أنَّ جَرْىَ الأولى على الكبريت ، وجَرْىَ هذه على النُّحاس ؛ وتذكر الأَعَاجِمُ أنَّ مَلِك تُدْمِير ومَلِك رَيُّه فى غابر الدَّهْر خَطَبَا ابنةَ ملكِ أُرْشِ اليَمَنِ وما يَلِيه ، فَشَرَطَتْ ابنَةُ الملكِ أنَّ من بَلَّغَ ماءَ إحدى الحَمَّتَيْنِ حتَّى يُدْخِلَهُ فى دار سُكْنَى أبيهَا (وكان فى موضع مدينةِ بَجَّانة اليومَ) أنّهُ أَحَقُّ بِبُضْعِها ؛ فَجَدَّ كلٌّ واحدٍ منهما فى ذلك وجهد جهدَه ، وبَنَيَا قِنِيًّ[2] يجلبون الماءَ فيها ، فاعترضَ صاحبَ الحَمَّة الجوفيّة خندقٌ ، ولم يكُنْ بُدٌّ من بناءِ قَنَاطِرَ عليه ، فشغله ذلك حتَّى بَلَّغَ صاحبُ الحَمَّة الشرقيّة ماءَه ، فزوَّجَهُ المَلِكُ ابنتَهُ ؛ وأَثَرُ ما حاوَلاهُ من ذلك باقٍ فى الجانبَيْنِ إلى اليَوْم ؛ وبين بجّانة والمريّة خمسة أميال أو ستّة أميال .

٣٨ – بُرْبُشْتَر

* هى مدينة من بلاد بَرْبطَانِيَة[3] بالأندلس ، وهى حصن على نَهرٍ مَخْرَجُهُ من عَيْنٍ قريبةٍ منها ، وبَرْبُشْتَر من أُمّهاتِ مُدُن الثَّغر الفائقةِ فى الحصانة والامتناع ، وقد

(١) ش : « قيرين » . (٢) ش : « قينا » . (٣) ش و ف و م : « برطانية » .

غزَاها على غِرَّةٍ ، وقِلّةِ عَدَدٍ من أهلها ، وغُدَّةٍ ، أَهْلُ غَالِيش والروذمانون ، وكان عليهم رئيسٌ يُسَمّى أَلْبيطُش[١] ، وكان فى عَسْكَره نحو أربعين ألف فارسٍ ، فحصرها أربعينَ يومًا حتّى افتتحها ، وذلك فى سنة ٤٥٦ ، فقتلوا عامَّةَ رجالِها ، وسبَوْا فيها من ذرارى المسلمين ونسائِهم ما لا يُحْصَى كثرةً ؛ ويُذكر أنّهم اختاروا من أبكارِ جوارى المسلمين وأهل الحُسْنِ منهنّ خمسةَ آلاف جارية ، فأهدوهنّ إلى صاحب القسطنطينية ، وأصابوا فيها من الأَموال والأَمْتِعَة ما يعجز عن وَصْفِه[٢] ، وتخلّفُوا فيها من جلّة رجالهم وأهل البأس منهم[٣] من وَثِقوا بضبْطِهِ لها ، ومنْعِهِ إيّاها ، واستوطنوها بالأهلِ والولد وجعلوها ثَغْرًا من ثغورهم ، ثمّ انصرفوا عنها .

وفى ذلك يقول الفقيهُ الزاهِد ابن العسّال من قصيدة [كامل] :

وَلَقَدْ رَمَانَا الْمُشرِكُونَ بِأَسْهُمٍ ... لم تُخْطِ لكن شأْنُها الصَّمَّاءُ
هتكُوا بخَيْلِهِمُ قصورَ حريمها ... لم يبْقَ لاَ جبَلٌ وَلاَ بَطْحَاءُ
جاسُوا خِلالَ دِيَارِهِمْ فَلَهُمْ بها ... فى كلِّ يَوْمٍ غارةٌ شَعْواءُ
باتَتْ قُلُوبُ المسلمين برعبِهِمْ ... فحُماتُنا فى حَرْبِهِم جُبَنَاءُ
كَمْ مَوْضِعٍ غنموه لم يُرْحَمْ به ... طِفْلٌ ولا شيخٌ ولا عذْراءُ
ولَكَمْ رضيعٍ فرَّقُوا من أُمِّهِ ... فَلَهُ إليها ضَجَّةٌ وبغاءُ
وَلَرُبَّ مولودٍ أَبُوه مُجدَّلٌ ... فَوْقَ التُّرَاب وفَرْشُه البيْداءُ
ومصونةٍ فى خِدْرِها محجوبةٍ ... قد أبْرَزُوها مَا لَهَا استخفاءُ

(١) ف و م : « البطش » ، ب ويه : « البيطين » . (٢) ب ويه ص ٢٥٥ .
(٣) يه ف ف أوله : « وأصابوا » .

وعزيزِ قومٍ صارَ فى أيديهمُ   فعَلَيْهِ بَعْدَ العِزَّةِ استخذاءُ
لَوْلا ذنوبُ المسلمين وأنّهمْ   ركبوا الكبائرَ ما لَهُنّ خفَاءُ
ما كان يُنْصَرُ للنّصارى فارسٌ   أَبدًا عليهم فالذّنوبُ الداءُ
فشرارُهم لا يختفون بشرِّهم   وصلاحُ مُنْتَحِلِى الصَّلاحِ رياءُ

* ثمّ تداعَتْ لأَخْذِها ممَالِكُ الأندلس، وجَمَعَ أحمدُ بن سليمان بن هود صاحبُ سَرَقُسْطة وجهاتِها أهلَ الثغور، ونهد إليها فى جمعٍ كثيفٍ، ذوى جدٍّ وحدٍّ، ففتحَها الله عزَّ وجلَّ على يدَيْه عنوةً، فقتَلَ المقاتِلَةَ وسَبَى النساءَ والذُّرِّيّةَ، ودَخَلَ منها سَرَقُسطة نحوُ خمسة آلاف سبيةٍ مختارةٍ، ونحو ألف فَرَسٍ[1] وألف دِرْعٍ[2]، وأموالٌ كثيرةٌ، وثيابٌ جليلةٌ، وعُدّةٌ وسلاحٌ؛ وكان افتتاحُه لها لثمانٍ خلون من جُمادى الأولى سنة ٤٥٧، ولذلك تسمَّى بالمُقْتَدِر بالله، وكانَتْ مدّةُ مُلْكِ النصارى لها تسعةَ أشهرٍ[3].

٣٩ — برذال

مدينةٌ من إقليم بُرْغُش، كاملةٌ شاملةٌ بضروب النعم كثيرة الفواكه، بينها وبين البحر اثنا عشر ميلاً.

٤٠ — برذيل

فى بلاد جِلِّيقِيَّة، وإقليم برذيل من أشْرَفِ أقاليم تلك الناحية، وهو كثيرُ الكروم والفاكهة والحبوب، وهى مدينةٌ كبيرةٌ مبنيةٌ بالكِلْس والرمل، وهى على نهرٍ عجّاج يسمَّى جَرُونَة، ورُبّما عطبَتْ مراكبُ المَجُوس فيه عند الأهوال لاتّساعِهِ وانخراقِهِ، وبيْن هذه المدينة ومَوْقِعِ نَهْرِها فى البحر مائةٌ وخمسون ميلاً؛ وأهلُ برذيل فى

(١) م: «فارس». (٢) م: «دارع». (٣) ب ٧٨ ص ٢٥٥.

أخلاقهم ولباسهم على أخلاقِ الجِلِّيقيّين ؛ وبجوفيّ مدينة برذيل بنيانٌ مُنيفٌ على سوارٍ سامية جليلةٍ هو قصرُ طيطش ، وفي سواحِلِ هذه المدينة يوجَدُ العنبر .

٤١ — بُرْشَانَة

بالأندلس ، وهي حِصْنٌ على مُجْتَمَع نهرَيْن ، وهو من أمنع الحصون مكانًا ، وأَوْثقها بنيانًا ، وأكثرها عمارةً .

٤٢ — بَرْشلُونَة

* مدينةٌ للرُّوم بينها وبين طَرَّكُونة خمسون ميلاً ، وبرشلونَة على البحر ، ومَرْسَاها تَرْشٌ لا تدخُلُه المراكِبُ إلاّ عن معرفةٍ ، وبها رَبَضٌ ، عليها سورٌ منيعٌ ، والدخولُ إليها والخروجُ عنها إلى الأندلُس على باب الجَبَل المُسَمَّى بهيْكَل الزُّهْرة ، ويسكنُ برشلونَة مَلِكُ إفْرَنْجَة ، وهي دارُ مُلْكِهم ، وله مَرَاكِبُ تُسَافِرُ وتَغْزُو ، وللإفْرَنْج شوْكَةٌ لا تُطَاق[1] .

* وبرشلونَة كثيرةُ الحنطة والحبوب والعَسَل ، واليهودُ بها يعدلون النصارى كثرةً ، ولها رَبَضٌ خارجٌ منها ، وهي في القسم الثالث من الأندلُس ، وهي مُسَوَّرَةٌ كبيرةٌ[2] .

[وَصاحب برشلونَة اليوْمَ رَايْ مُنْدُ بن بَلَنْقِير بن بُرّيل ، وكان خرجَ يريدُ بَيْتَ المَقْدِس سَنَةَ ٤٤٦ ، فنزل في مدينة نَرْبُونَة على رَجُـل من كُبَراء أهلها ، فتعشَّق امرأتَه وتعشَّقَتْه ، ثمّ تمادى في سَفَره حتّى وصل بَيْتَ المَقْدِس ، ثُمَّ كَرَّ راجعاً حتّى أتى نَرْبُونَة

(١) ادرس ص ٧٠ . (٢) بب وه ص ٢٥٦ .

فنزل على ضَيْفه بها وليْسَ له همٌّ إلاَّ امرأته ، فحكم ذلك التعشُّق بينَهما ، واتّفق معها على أنْ تعمل الحيلة فى الهروب إليه من بلدها ، فيزَوّجها من نفسه ؛ فلمّا وصل إلى برشلونَة أرسَل إليْها قوماً من اليهود فى ذلك ، ودخل صاحب طُرْطُوشة فى الأمر فأوصلهم فى الشوانى إلى نَرْبُونَة ، فلم تتوجّه لليهود الحيلة فى أمرها ، وأحسّ زوجُهَا ببعض شأنها ، وكان بها كَلِفًا فثقَّفها ، فكان تثقيفُه لها سَبَباً لمعونَة أهلها على مرادها ، فوصلَتْ مع قوم منْهم إلى برشلونَة ، فنزل رايْ مُنْدُ عن امرأته وتزوّجَ النَّرْبُونيّة ، فلبست الأولى المسُوح ، وخرجت مع جماعة من أهل بيْتها إلى رُومَة حتى أتَتْ عظيمَها وصاحبَ الدّين بها ، وهو الذى يسمّونه البابَه ، فشكت إليه ما صنَع زوجُها ، وأنّه تركها بغير سَبَب ، وهو أمْر لا يَحلُّ فى دِينهم ، وأنَّهم لا يجوز لهم فعلُه ، وإنما حملهُ على ذلك عشقُه لها ، وشهد لها شهود قَبلَهُمْ ، فحرّم البابَه على صاحب برشلونَة دخولَ الكنائس ، وأمر أن لا يُدْفَنَ له ميتٌ ، وأنْ يتبرّأَ منـه جميعُ من يعتقد النصرانيّـة ، فلمّا علم ذلك ، علمَ أنّه لا حيـلَةَ له معه ، ولا بقاءَ فى أُفقٍ يكون فيـه لنصرانىّ حكْمٌ ؛ فبذل الأموالَ ودسّ مشاهير الأسَاقفة والقسّيسين ، وأوطأهم على الشخوص إلى البابَه ، وأنْ يشهدوا له أنه تقصّى عن نسب المرأة التى ترَكَ ، فوجدها منه بقُرْبى يُحَرِّمُها عليه ، وأنَّ النَّرْبُونيّة فَرّتْ من زوجها لذلك ، لأنّه كانت منه بنسبٍ ، وكان يُكْرِهُها على المقام معه ، فنفذ القومُ إلى البابَه ، وشهدوا للقُومِس ما أوصاهم عليه ، فَقَبِلَهُمْ ، وأباح له دُخولَ الكنائس ودَفْنَ من مات لَه ، وسائرَ ما حجر عليه[1] .]

---

(١) ز . ب ورقة ص ٢٥٦ — ٢٥٧ .

٤٣ – بُرْغُش

فى بلاد الروم بالقرب من مدينة لِيُون ، * وهى مدينةٌ كبيرةٌ يفصلها نهرٌ ، ولكل جزء منها سورٌ ، والأَغْلَبُ على الجزء الواحدِ منها اليهودُ ، وهى حصينةٌ منيعةٌ ، ذاتُ أسواقٍ وتجّارٍ ، وعُدَدٍ وأموالٍ ، وهى رصيفٌ للقاصِد والمُتَحَوِّل ، وهى كثيرةُ الكروم ، ولها رَسَاتِيق وأقَالِيم معمورةٌ[1] .

٤٤ – بُرِيَّانَة

بالأندلس بقرب عَقَبَة أُنيشَة .

* وهى مدينةٌ جليلةٌ عامرةٌ ، كثيرةُ الخصب والأشجار والكروم ، وهى فى مستوٍ مِن الأرض ، وبينها وبين البحر ثلاثة أميالٍ ، وهى قريبةٌ من بلنسية[2] .

٤٥ – بِزِلْيَانَة

* قريةٌ على ساحِلِ البحرِ ، قريبةٌ من مالقة ، وهى قريَةٌ تشبه بالمدينة فى مُستوٍ مِن الأرض ، وأرضُها رملٌ ، وبها الحَمَّام والفَنَادِقُ ، ويُصاد[3] بها الحوتُ الكثير ، ويُحْمَلُ منها إلى الجِهات المُجاوِرَةِ لها ، وبينها وبين مالقة ثمانية أميال[4].

٤٦ – بَسْطَة

* مدينةٌ بالأندلس بالقرب من وادى آش ، وهى متوسّطة المقدار ، حَسَنَة المَوْضِع ،

(١) ار س ص ٦٧ . (٢) ار ص ١٩١ . (٣) ز ار : « وشباك » .
(٤) ار ص ٢٠٠ .

عامرةٌ ، آهلةٌ ، حصينةٌ ، ذاتُ أسواقٍ ، وبها تجارات ، وفَعَلَة بضروب الصناعات ، وبينها وبين جَيّان ثلاث مَراحِل(١) ؛ وهى من كُوَر جيّان ، وشجرُ التوت فيها كثيرٌ . وعلى قدر ذلك غَلّةُ الحرير والزيتون ، وسائرُ الثمار بها على مثل ذلك من الكثرة ، وأرضُها عَذَاةٌ كثيرةُ الريع ، وبها كانَتْ طُرُزُ الوِطاء البَسْطِىّ من الدِّيبَاج الذى لا يُعلم له نظيرٌ ؛ وببَسْطَة بِرْكَةٌ تُعرف بالقُوبَة(٢) ، لا يُدركُ لها قعرٌ ، وماؤُها على قامةٍ من شَفيرِها ، وبها جبلٌ يُعرف بجبل الكُحْل ، لا يزال يُنْقَرُ منه كُحْلٌ أسْوَد ، يزيد بزيادةِ القمر ، وينقصُ بنقصانِه ، لم يزل على ذلك من قديمِ الدَّهرِ .

ومدينةُ بَسْطة مدينةٌ مفردةٌ مِن الجُزْء الرابع من قسمة قُسْطَنْطِين ، وهى مشهورة بالمياه والبساتين ، وكان الأديبُ أبو الحسن علىُّ بن محمّد بن شفيع البَسْطِىُّ يقول : « لو طُبعتُ على الزُّهد لَحَمَلَنى حُسْنُ بلادِى على المجون والتّعَشُّق والراحات ! » ، وكان شاعِرَ بَسْطة .

٤٧ — بطَرْوْش

* بالأندلس فى طريق قرطبة ، وهو حصنٌ كثيرُ العِمارة ، شامخُ الحِصَانة ، لأهْلِهِ جلادةٌ وحَزْمٌ على مُكَافحةِ أعْدَائِهم ، ويُحيطُ بجبالهم وسهولِهم شجرُ البلّوط ، الذى فَاقَ طُعْمُه كلّ بلّوط على وَجه الأرض ، ولهم اهتمامٌ بحِفْظِه وخِدْمَتِه ، وهُوَ لهم غَلّةٌ وغياثٌ فى سِنِي الشّدّةِ والمَجاعةِ(٣) .

(١) ار ص ٢٠٢ . (٢) ت : « القوبة » . (٣) ار ص ٢١٣ .

٤٨ ـ بَطَلْيَوْس

* بالأندلس من إقليم مَارِدة ، بيْنهما أربعون مِيلاً ، وهى حديثةُ الاتِّخاذ ، بناها عبدُ الرحمٰن بن مروان المعروفُ بالجِلِّيقىّ بإِذْنِ الأميرِ عبدِ الله له فى ذلك ، فأنْفَذَ له جُمْلَةً من البُنَاةِ ، وقِطْعَةً من المـال ، فشرع فى بناء الجامع باللَّبِن والطَّابِية ، وبنى صومعتَه خاصَّةً بالحَجَر ، واتَّخَذَ مقصورةً ، وبنى مسجداً خاصًّا بداخل الحِصْن ، وابتنى الحَمَّامَ الذى على باب المدينة ، وأقام البُنَاةُ عنده حتَّى ابتنَوْا له عدَّةَ مَسَاجِدَ ؛ وكان سورُ بَطَلْيَوْس مَبْنِيًّا بالتُّراب ، وهو اليومَ مبنىٌّ بالـكِلْسِ والجَنْدَلِ ، و [بُنِىَ] فى سنة ٤٢١[(١)] .

* وهى مدينةٌ جليلةٌ فى بسيطٍ من الأرض ، ولها رَبَضٌ كبيرٌ أكْبَرُ من المدينة فى شرقيّها ، فَخَلا بالفِتَنِ ، وهى على ضَفَّة نَهْرِها الـكبيرِ المسمَّى الغَوْر ، لأنّه يكون فى مَوْضِعٍ يحمل السُّفُنَ ، ثمَّ يغورُ تحتَ الأرض حتَّى لا توجدَ منه قطرةٌ ، فسُمِّى الغؤور لذلك ، وينتهى جريُه إلى حِصْن مارْتُلة ، ويصبُّ قريباً من جزيرة شَلْطِيش ؛ ومن بَطَلْيَوْس إلى إشبيلية ستَّة أيَّامٍ ، ومنها إلى قرطبة ستَّة مَرَاحِلَ[(٢)] .

٤٩ ـ بَلَاطَة

* فَحْصُ بَلَاطة بالأندلس بيْن أُشبونة وشَنْتَرِين . يقولُ أهلُ أُشبونة وأكْثَر أهل الغَرْب إنَّ الحنطةَ تزرع بهذا الفَحص ، فتُقيمُ فى الأرض أربعينَ يَوْماً فتُحْصَدُ ، وإنّ الـكَيْلَ الواحدَ منها يُعطِى مائة كَيْل ، ورُبَّما زادَ ونَقَصَ[(٣)] .

(١) ب و ه ص ٢٦٠ . (٢) او ص ١٨١ . (٣) او ص ١٨٦ .

٥٠ — بَلْطَش

بالأندلس ، إقليمٌ من أقاليم سَرَقُسْطة ، ونهرُ هذا الإقليم يَسقى مسافةَ عشرين ميلاً ، و بقرب بَلْطَش مَوْضِعٌ ينفجرُ بالماء العذبِ أوّلَ ليلةِ شهرِ أُغُشْت ، ومن الغَدِ إلى حدِّ الزوال ، ثمَّ يبدو فيه القلوصُ والنقصانُ ، فإذا غربَت الشمسُ ، جَفَّ إلى تلك الليلةِ من العام المُسْتَقْبل ، هذا دأبُهُ أبدًا .

٥١ — بَلَنْسِيَة

فى شرق الأندلس ، بينها وبين قرطبة على طريق بجّانة ستّة عشر يوماً ، وعلى الجادّةِ ثلاثة عشر يوماً .

* وهى مدينةٌ سهليّةٌ ، وقاعدةٌ من قواعِد الأندلس ، فى مستوٍ من الأرض ، عامرةُ القطر ، كثيرةُ التجارات ، وبها أسـواقٌ وحَطٌّ وإقلاعٌ ، وبينها وبين البحر ثلاثة أميال . وهى على نَهرٍ جارٍ يُنْتَفَعُ به ، ويسقى المزارِعَ ، ولها عليـه بساتينُ ، وجنّات ، وعمارات مُتَّصِلَة[1] .

والسُّفُنُ تدخُل نَهرَها ، وسُورُها مَبْنِيٌّ بالحَجَر والطَّوابى ، ولها أربعة أبوابٍ ، وهى من أمصارِ الأندلس الموصوفةِ ، وحواضرِها المقدَّمةِ ، ولأهلِها حُسْنُ زيٍّ ، وكرمُ طباعٍ ، والغالبُ عليهم طيبُ النفوس ، والمَيْلُ إلى الراحات ، وهى فى أكثرِ الأمورِ راخيةُ الأسعار ، كثيرةُ الفواكه والثمار ، جامِعَةٌ لخيرات البَرِّ والبَحْرِ ، ولها أقاليمُ كثيرةٌ ، وهى فى الجُزْء الرابع من قسمة قُسْطَنْطين[2] .

(١) ا و ص ١٩١ . (٢) فى جميع النسخ : « فلسطين » .

وكان الروم تَغَلَّبوا على بلنسية قديمًا ، ثمّ أحرقوها عند خروجهم منها سنة ٤٩٥[١]، فقال أبو إسحاق إبراهيم بن أبى الفتح بن خفاجة [كامل] :

عاثَتْ بساحتِكِ الظُّبَى يا دارُ وَمَحَا مَحَاسِنَكِ البلَى والنَّارُ
فإذا تردّدَ فى جنابِكِ ناظرٌ طَالَ اعْتِبَارٌ فيكِ واستعبارُ
أرْضٌ تقاذَفَتِ النَّوَى بقطينها وتمخّضت[٢] بخرابها الأقدارُ
فجعلتُ أُنْشدُ خير سادةِ أهلها لا أنتِ أنتِ ولا الديارُ ديارُ

وقال الأُستاذ أبو عبد الله محمّد بن عبد الرحمن بن خلصة البلنسىّ [بسيط] :

ورَوْضة زُرْتُها للانسِ مُبْتَغِيًا فأوحشتْنى لذكرى سادةٍ هَلَكُوا
تغيّرتْ بعدهم خزيًا وحقّ لها مكانَ نوّارها أن ينبُتَ الحَسَكُ
لو أنّها نطقتْ قالت لفقدِهِمُ بَانَ الخليط ولم يرثوا لمن تركوا

ثمّ فى سنة ٦٣٠ ، ملك الرُّومُ بلنسية صُلْحًا ، واستولى عليها مَلِكُ أرْغُون جَاقُمُه[٣]، وأَكْثَرَ أُدَبَاؤُها بُكَاءها ، والتأسّفَ عليها نَظْمًا ونَثْرًا ؛ فمن ذلك قولُ الكاتب أبى المطرّف ابن عَمِيرة ، خاطَبَ به الكاتبَ أبا عبد الله بن الأبّار ، جوَابًا عن رسالةٍ :

طارَحَنى حديثَ مَوْرِدٍ جَفّ[٤] ، وقَطِينٍ خَفّ ؛ فيالله لِأَتْرَابٍ دَرَجُوا ، وأَصْحَابٍ عن الأَوْطَانِ خَرَجُوا ؛ قُصّتِ الأجْنِحَةُ وقيلَ : طِيرُوا ، وإنما هو القتْلُ أو الأسْرُ أو تَسِيرُوا ؛ فَتَفَرّقُوا أيْدِىَ سَبَا ، وانتَشَرُوا مِلءَ الوِهَادِ والرُّبا ؛ فَفِى كُلّ جانبٍ عَوِيلٌ وزفْرَةٌ ، وبكلّ صَدْرٍ غَلِيلٌ وحَسْرَةٌ ؛ ولكلّ عَيْنٍ عَبْرَةٌ ، لا تَرْقَأُ مِن أجْلِهَا عَبْرَةٌ ؛

(١) وقع بتر كثير وتصحيف فى ت و فى من هنا إلى آخر هذه الترجمة فاعتمدت على م أو نقلت مصححة عن موه . (٢) م : « تمضمضت » . (٣) م : « جاقة » .
(٤) م : « صور وحف » .

داءٍ خامَرَ بلادَنا حِينَ أتاها ، وَمَا زال بها حتَّى سَجَّى عَلَى مَوْتاها ، وَشَجَا ليوْمِها الأَطْوَلِ كَهْلَها وفتَاها ؛ وَأَنْذَرَ بها فى القوْمِ بُحْرانُ أنيجَهْ ، يَوْمَ أثارُوا أُسْدَها المَهيجَه ؛ فكانَتْ تلك الحَطْمَةُ طَلَّ الشؤْبُوب ، وباكُورَةَ البَلاَءِ المَصْبُوب ؛ أَثْكَلَتْنا إخوانًا أبكانا نَعِيُّهُمْ ، فَلِلّهِ أَحْوَذِيُّهُمْ وأَلْمَعِيُّهُمْ ؛ ذَاكَ أبو رَبِيعِنَا ، وشَيْخُ جميعِنَا ؛ سَعِدَ بشَهَادَةِ يَوْمِه ، وَلَم يَرَ ما يَسُوءُه فِي أَهْلِهِ وَقَوْمِه ؛ وبَعْدَ ذلك أُخِذَ مِن الأمِّ بالمُخَنَّق ، وهى بَلَنْسِيَةُ ذاتُ الحُسْنِ والبَهْجَةِ والرَّوْنَق ؛ وَما لَبِثَ أنْ أُخْرِسَ مِن مَسْجِدِها لِسَانُ الأذَان ، وَأُخْرِجَ من جَسَدِها رُوحُ الإيمان ؛ فَبَرِحَ الخَفَاء ، وقيلَ على آثارِ مَنْ ذَهَبَ العَفَاء ، وانْعَطَفَت النَّوائِبُ مُفْرَدَةً ومُرَكَّبَةً كما تَعْطِفُ الفاء ؛ وَأَوْدَت الخِفَّةُ والحَصافَةْ ، وذَهَبَ الجِسْرُ والرُّصَافَةْ ؛ ومُزِّقَتْ الحُلَّة والسَّهْلَةْ ، وأوْحَشَت الجُرْف والرَّمْلَةْ ؛ ونَزَلَتْ بالحارَة وَقْعَة الحَرَّةْ ، وحَصَلَت الكَنِيسَةُ مِن جآذِرِها وظِبائِهَا عَلَى طُولِ الحَسْرَةْ ؛ فأَيْنَ تلك الخَمائِلُ ونَضْرَتُها ، والجَداولُ وخُضْرَتُها ؛ والأنْدِيَةُ وأَرَجُها ، والأوْدِيَةُ ومُنْعَرَجُها ؛ والنَّواسِمُ وهُبُوبُ مُبْتَلِّها ، والأَصائِلُ وشُحُوبُ مُعْتَلِّها ؛ دارٌ ضَاحَكَتِ الشَّمْسُ بَحْرَهَا وبُحَيْرَتَها ، وأزهارٌ تَرَى مِن أَدْمُعِ الطَّلِّ فى أَعْيُنِهَا تَرَدُّدَهَا وحيرَتَها ؛ ثمّ زَحفتْ كَتِيبَةُ الكُفْرِ بِزُرْقِهَا وَشُقْرِها ، حتَّى أَحاطَتْ بجَزِيرَةِ شُقْرِها ؛ فآهًا لمِسْقَطِ الرَّأْس هَوَى نَجْمُهُ ، وَلِفادِحِ الخَطْب سَرى كَلْمُهُ ؛ وبالجَنَّةِ أجْرَى الله تعالى النَّهْرَ تحْتَها ، ورَوْضَةٍ أجادَ أبو إسْحٰق نَعْتَها ؛ وإنَّما كانتْ دارَه التى فيها دَبَّ ، وعلى أوْصَافِ محاسِنِها أَلَبَّ ، وفيها أتَتْهُ مَنِيَّتُهُ كما شاءَ وأَحَبَّ ؛ ولم تعدَمْ بعدَهُ مُحِبِّينَ قَشِيبُهُمْ إليها سَاقُوه ، وَدَمْعُهُم عليها أرَاقُوه .

وله من رسالةٍ أُخْرَى فى المَعْنَى : ثمَّ ردف الخطابُ الثانى بقاصمةِ المُتون ،

وقاضيةِ المَنُون ، ومضرمةِ نارِ الشجُون ، ومذريةِ ماء الشؤون ؛ وهو الحادثُ فى بلنسية دارِ النحْر ، وحاضِرَةِ البرّ والبَحْر ؛ ومَطمَحِ أهلِ السيادَهْ ، ومَطْرَح شُعاعِ البهجةِ والنضادَهْ ؛ أوْدَى الـكفرُ بإيمانها ، وأبطلَ الناقوسُ صوتَ أذانها ؛ ودهاها الخطب الذى أنْسَى الخطوب ، وأذَابَ القلُوب ، وعلَّم سهام الأحزان أن تُصيب ، ودموع الأجفان أن تصُوب ؛ فيا ثُـكْلَ الإسلام ، ويا شَجْو الصلاةِ والصيام ؛ يوم الثلاثاء ، وما يوم الثلاثاء ، يا وَيْح الدَّاهِيَة الدَّهْيَاء ، وتأخيرِ الإقدام عن موقف العَزاء ؛ أين الصبرُ وفُؤادى أُنْسِيَه ، لمْ يبْقَ لِقَوْمى على الرمْي سِيَه ؛ هَيْهات نجد ما مضى من أُتَنْسِيّه ، من بعد مُصَابٍ حلَّ فى بلنسِيَه .

يا طول هذه الحَسْرَهْ ! ألا جابر لهذه الـكَسْرَهْ ؟ أكلُّ أوقاتِنا ساعةُ العُسْرَهْ ؟ أخى ! أين أيّامنا الحوالى ؟ ولياليناعلى التوالى ؟ ولأية عيش نعم بها الوالى ؟ ومسنديات أنس يعدها الرواةُ من الغَوَالى ؛ بعدًا لك يا يومَ الثلاثا من صفر ، ما ذنبُك عندى بشىء يغتفَر ؛ قد أشْمَتَّ بالإسلام حِزْبَ مَنْ كفر ، من أين لنا المَفَرُّ كلا لا مفر .

كلّ رزء فى هذا الرزء يندرِج ، وقد اشتدّت الأزمة فقُلْ لى متى تنفرِج ، كيف انتفاعُنا بالضحى والأصائل إذا لم يعُد ذلك النسيم الأرِج ؛ ليس لنا إلاّ التسليم ، والرِّضى بما قضاه الخلاّق العليم .

وقال فى رسالةٍ أُخرى فى المعنى : وأَجرَيْتَ خبَرَ الحادثةِ الّتى مَحَقَتْ بَدْرَ التَّمام ، وَذهَبَتْ بنضَارَة الأيّام ؛ فيَا مَنْ حَضَرَ يوْمَ البطْشَة ، وعُزِّىَ فى أُنْسِه بَعْدَ تلْكَ الوحشَة ؛ أحَقًّا إنَّهُ دُكَّت الأرْضُ ، ونَزَفَ المَعِينُ والبَرْضُ ؛ وصَوَّحَ رَوْضُ المُنَى ، وصَرَّحَ الخطْبُ وما كَنَى ؟ أينَ لى كيفَ فُقِدَتْ رَجَاحةُ الأحلام ، وعُقِدَتْ مَنَاحةُ الإسلام ؛

وجاء اليومُ العسِرُ ، وأُوقِدَتْ نارُ الحُزْنِ فلاَ تَزَالُ تَسْتَعِرُ ؛ حُلْمٌ ما نَرَى ؟ بل ما رَأى ذا حالم ، طوفانٌ يُقال عِنْدَهُ لاعاصِم ، من يُنْصِفُنا مِن الزّمان الظّالِم ، اللهُ بما يَلْقَى الفُؤادُ عالِم ؛ بالله أيّ نَحْوٍ تنحُو ، ومَسْطورٍ تَثْبتُ وتَمْحُو ؛ وَقَدْ حُذِفَ الأَصْلِيّ والزّائدُ ، وَذَهَبَتِ الصِّلَةُ وَالعائدُ ؛ وبابُ التّعجُّبِ طَالَ ، وَحالُ البائِسِ لاَ تَخْشَى الانْتِقالَ ؛ وَذَهَبَتْ عَلاَمَةُ الرّفعِ ، وفُقِدَتْ سَلاَمَةُ الجَمْعِ ؛ والمُعْتَلُّ أَعْدَى الصّحِيحِ ، والمُثَلّثُ أَرْدَى الفَصِيحَ ؛ وامْتَنَعَتِ العُجْمَةُ مِن الصّرْف ، وأَمِنَتْ زِيادَتُها مِن الحذْف ؛ وَمالَتْ قَواعِدُ المِلّةْ ، وصِرْنا إلى جَمْعِ القِلّةْ ؛ وللشِّرْكِ صِيَالٌ وتَخَمُّطٌ ، ولِقِرْنِهِ في شَرَكِهِ تَخَبُّطٌ ؛ وقد عَادَ الدِّينُ إلى غُرْبَتِهِ ، وشَرِقَ الإسلامُ بِكُرْبَتِهِ ؛ كأنْ لَمْ يُسْمَعْ بنَصْرِ ابن نُصَيْرٍ ، وطَرْقِ طارِقٍ بكلِّ خَيْرٍ ؛ ونَهَشَاتِ حَنَشٍ وكَيْفَ أَعْيَتِ الرُّقَى ، وَأَذالَتْ بليلِ السّلِيم يَوْمَ المُلْتَقَى ، وَلَمْ تُخْبَرْ عن المَرْوانيّة وَصَوائفِهَا ، وَفَتَى مَعافِرَ وَتَعْفِيرِهِ للأَوْثانِ وطوائفِهَا : لِلّهِ ذلكَ السّلَفُ ، لَقَدْ طَالَ الأَسَى عَلَيْهِمْ والأَسَفُ .

وقال في رسالةٍ أخرى : وما الذى نبغيهِ ، وأيّ أملٍ لا نطرحه ونلغيهِ : بعد الحادثةِ الكبرَى ، والمصيبةِ التى كلُّ كَبِدٍ لها حرَّى ، وكلُّ عينٍ من أَجلِها عبرَى : لكن هو القضاء لا يُرَدُّ ، ولله الأمرُ من قبل ومن بعدُ .

ومما قاله في ذلك من المنظوم قوله [كامل] :

ما بَالُ دَمْعِكَ لا يَنِي مِدْرَارُهُ — أَمْ مَا لقلبك لا يقرُّ قَرَارُهُ
أَللَوْعَةٍ بين الضُّلُوعِ لظاعِنٍ — سَارَتْ رَكائبُهُ وشَطَّتْ دَارُهُ
أَمْ لِلشَّبَابِ تَقَاذَفَتْ أَوْطَانُهُ — بَعْدَ الدُّنوّ وأَخْفَقَتْ أَوْطَارُهُ
أَمْ للزَّمَانِ أَتَى بِخَطْبٍ فَادِحٍ — من مِثلِ حَادِثِهِ خَلَتْ أَعْصَارُهُ

بَحْرٌ من الأَحْزَانِ عَبَّ عُبَابُهُ وارتَجَّ مَا بَيْنَ الحشا زَخَّارُهُ
فى كلِّ قَلْبٍ مِنْهُ وَجدٌ عنده أَسَفٌ طَوِيلٌ لَيْسَ تَخْبُو نَارُهُ
أَمَّا بَلَنْسِيَةٌ فَمَثْوَى كافِرٍ حُفَّتْ بِهِ فى عُقْرِها كُفَّارُهُ
زَرْعٌ من المكْرُوهِ حَلَّ حِصَادُهُ عِنْدَ الغُدُوِّ غداةَ لَجَّ حِصَارُهُ
وعَزِيمةٌ للشِّرْكِ جَعْجَعَ بالهُدَى أَنْصَارُهَا إِذْ خَانَهُ أَنْصَارُهُ
قُلْ كَيْفَ تَثْبتُ بَعْدَ تمزيقِ العِدَا آثَارُهُ أَمْ كَيْفَ يُدْرَكُ ثَارُهُ
مَا كانَ ذَاكَ المِصْرُ إِلاَّ جنَّةً لِلْحُسْنِ تجْرِى تَحْتَهُ أَنْهارُهُ
طَابتْ بطيبِ نَهارِهِ آصالُهُ وتعَطَّرتْ بنَسِيمِهِ أَشْجَارُهُ
أَمَّا السرار فقَدْ غَدَاهُ وَهَلْ سِوَى قمرِ السَّماءِ يَزُولُ عَنْهُ سِرَارُهُ
قَدْ كانَ يُشْرِقُ بالهِدَايَةِ لَيْلُهُ وَالآنَ أَظْلَمَ بالضَّلالِ نَهارُهُ
وَدَجا بِهِ لَيْلُ الخُطُوبِ بِصُبْحِهِ أَعْيا على أَبْصارِنَا إِسْفَارُهُ

ومِمَّا صَدَرَ عن الكاتب أبى عبد الله محمد بن الأَبَّار فى ذلك من رسالةٍ :

وأَمَّا الأَوْطانُ المُحَبَّبُ عَهْدُها بحُكْمِ الشَّبَابِ ، المُشَبَّبُ فيها بمحاسِنِ الأَحْبَابِ : فَقَدْ وَدَّعْنَا مَعَاهِدَها وَدَاعَ الأَبَدِ ، وَأَخْنَى عليْهَا الذِى أَخْنَى على لُبَدِ ؛ أَسْلَمَهَا الإِسْلامُ ، وانْتَظَمَهَا الانْتِثَارُ والاصْطِلامُ ؛ حينَ وَقَعَتْ أَنْسُرُها الطائِرَةُ ، وطَلَعَتْ أَنْحُسُها الغَائِرَةُ ؛ فَغَلَبَ على الجَذَلِ الحَزَنُ ، وذَهَبَ مع المَسْكَنِ السَّكَنُ : [بسيط]

كَزَعْزَعِ الرِّيحِ صَكَّ الدَّوحَ عَاصِفُهَا فَلَمْ يَدَعْ مِنْ جَنًى فيها ولا غُصُنِ
واهاً وَوَاهاً يمُوتُ الصَّبْرُ بَيْنَهُمَا مَوْتَ المَحَامِدِ بَيْنَ البُخْلِ والجُبُنِ

أَيْنَ بَلَنْسِية ومَغَانِيهَا ، وأَغَارِيدُ وُرْقِهَا وأَغَانِيهَا ؛ أَيْنَ حُلَى رُصَافَتِها وجِسْرِها ،

ومَنْزِلاً عَطَائها ونصرها ؛ أينَ أفياؤها تَنْدَى غَضَارَهْ ، ورِكاؤها تبْدُو مِن خُضَارَهْ ؛ أَيْنَ جداولها الطَّفَّاحَةُ وخمائلها ، أيْنَ جنائبها النَّفَّاحَةُ وشمائلها ؛ شَدَّ ما عَطِلَ من قلائد أزهارها نَحْرُها ، وَخلعتْ شَعْشَعَانيَّةَ ضُحَاها بُحَيْرتها وبحرها ؛ فأيَّةَ حِيلَةٍ لاَ حيلَةَ فى صَرْفِها مَعَ صَرْف الزَّمَان ، وَهَلْ كانَتْ حتَّى بَانَتْ إلاَّ رَوْنَقَ الحقِّ وَبَشَاشَةَ الإيمان ؛ ثمَّ لم يلبثْ داءُ عُقْرِها ، أنْ دَبَّ إلى جزيرةِ شُقْرِها ؛ فأمَرَّ عَذْبَهَا النَّمِيرُ ، وذَوَى غُصْنُها النَّضِيرُ ؛ وَخَرِسَتْ حَمَائمُ أَدْوَاحِها ، وركَدَتْ نَوَاسِمُ أرْوَاحِها ؛ ومع ذلك اقْتُحِمَتْ دَانِيَهْ ، فنَزَحَتْ قُطُوفُها وهى دَانِيَهْ ؛ وَبالشَاطِبَة وبطحائها ، مِن حيفِ الأيَّام وإنحائها ؛ وَلهفاه ثمَّ لهفاه على تُدْمِيرِ وتلاعِهَا ، وجَيَّان وقلاعِها ؛ وقُرطبَة ونَوادِيها ، وحِمْص ووادِيها ؛ كُلُّها رُعِيَ كَلَأُها ، وَدُهِيَ بالتَّفْرِيقِ والتمزيقِ مَلَأُها ؛ عَضَّ الحصارُ أكْثَرَها ، وطَمَسَ الكُفْرُ عَيْنَها وأثَرَها ؛ وتلك إلبيرةُ بصَدَدِ البَوَار ، وَرَيُّه فى مثل حَلْقَةِ السِوار ؛ ولا مِرْيَةَ فى المَرِيَّةِ وَخَفْضِها على الجِوار ؛ إلى بُنيَّاتٍ لَوَاحِقَ بالأُمَّهاتِ ، ونواطِقَ بِهَاكَ لأوَّل ناطِقٍ بهاتِ ؛ ما هـذا النَّفْخُ بالمَعْمُور ، أهُوَ النَّفخُ فى الصور ، أم النَّفرُ عارياً مِن الحجِّ المَبْرُورِ ؛ ومالأندلس أُصيبتْ بأشرافِها ، ونُقِصَتْ مِن أطرافِها ؛ قُوِّضَ عن صوامِعِهَا الأذانُ ، وَصُمَّتْ بالنواقيسِ فيهـا الآذانُ ؛ أَجَنَتْ ما لم تَجْنِ الأَصْقَاعُ ، أعَقَّتْ الحقَّ لحاقَبها الإيقاعُ ؛ كلاَّ بل دانَتْ للسُّنَّهْ ، وكانتْ مِن البدع فى أحْصَنِ جُنَّهْ ؛ هذه المَزْوانيَّةُ مع اشتداد أركانِها ، وامتدادِ سُلطانِها ؛ ألْقَتْ حُبَّ آلِ النُّبُوَّةِ فى حبَّاتِ القُلُوب ، وَأَلْوَتْ ما ظفرتْ مِن خلعةٍ ولا قَلْعَةٍ بمطلُوب ؛ إلى المُرَابطَة بأقاصى الثُّغُورِ ، والمُحافَظَةِ على معالى الأُمُورِ ، والرُّكُون إلى الهَضْبَةِ المَنِيعَهْ ، والرَّوْضَةِ المَرِيعَهْ ، مِن مُعادَاةِ الشِّيعَهْ ، ومُوالاةِ الشَّرِيعَهْ ؛ فلَيْتَ شِعْرِى بم استوثق

تمحيصُها ، ولِمَ تعلّقَ بعمومِ البلْوَى تخْصيصُها ؛ اللّهُمَّ غُفْراً ! طالَمَا ضَرَّ ضجرٌ ، وَمِنَ الأنباء ما فيه مُزْدَجَرٌ ؛ جرَى بما لم تُقدِّره المقدُورُ ، فما عَسى أَنْ ينفُثَ بِهِ المَصْدُورُ ؛ وربُّنا الحكيمُ العليمُ ، فحَسْبُنا التَّفويضُ له والتَّسليمُ ؛ وَيا عجباً لبَنِى الأصفر ، أَنَسِيَتْ مَزْجَ الصُّفَر ، وَرَمْيَها يومَ اليرموكِ بكلِّ أغْلَبَ غَضَنْفَر ؛ دَعْ ذا فالعَهْدُ بهِ بَعِيدٌ ، ومَن اتَّعظَ بغيرِه فهو سَعِيدٌ ؛ هَلاَّ تذكَّرت العامِرِيَّة وغزَواتِها ، وهابَت العامِرِيَّةَ وهَبَوَاتِها .

ومما قاله فى ذلك من المنظوم ، قصيدتُه السينيَّة التى أوَّلها : [بسيط] .

أدْرِكْ بخَيْلِك خيلِ الله أندَلُسَا

يقول فيها :

يا للجزيرة أضْحَى أهلُها جَزَراً   للحادثات وأمسى جدها تعِسا
يا للمساجد عادت للعدى بِيَعاً   وللنداء يُرى أثناءها جرَسا
لَهْفى عليها إلى استرجاع فائتِها   مدارساً للمثانِى أصبحَتْ دُرُسَاً
كانت حدائقَ للأحداق مونقةً   فصوّح النَّضْر من أدواحها وعسَا
وحال ما حولها من منظر عجبٍ   يستجلسُ الرَّكبَ أو يستركبُ الجُلَسَا
محا محاسنَهَا طاغٍ أُتيحَ لها   ما نام عن هضمها حيناً ولا نعسَا
وَرَجَّ أرْجَاءها لمَّا أحاطَ بِهَا   فغَادر الشُّمَّ من أعلامها خُنُسَا
مدائنٌ حلَّها الإشراكُ مُبْتَسِما   جذْلانَ وارتحَلَ الإيمانُ مُبْتئسا
وَصَيَّرَتْهَا العوَادى العَائثَاتُ بها   يَسْتَوْحِشُ الطَّرْفُ منها ضعف ما أنِسَا

وفى بَلَنْسِيَةٍ منها وقرطبــة ما يُنْسِفُ النَّفسَ أو ما يُنْزِفُ النَّفَسَا

وهى طويلة .

وفى بلنسية ، يقول أبو عبد الله بن عيَّاش [طويل] :

بلنسيةٌ بِينى عن القلب سلوةً فإنَّكِ روضٌ لا أحِنُّ لزهرِكِ
وكيف يحبُّ المرءُ دارًا تقسَّمَتْ على صارِمَىْ جوعٍ وفتنة مُشْرِكِ

وانتقض من هذا القول أبو الحسن بن حريق فأجاب [وافر] :

بلنسية نهاية كل حسن حديثٌ صحَّ فى شرق وغربِ
فإن قالوا محلُّ غلاء سِعْرٍ ومسقطُ دِيمَتَىْ طعن وضربِ
فقل هى جنَّة حُفَّتْ رُباها بمكروهَيْنِ من خَوْفٍ وحربِ

٥٢ — بنبابش

مدينةٌ فى بلاد الإفْرَنْجَة ، عامرةٌ ، كثيرةُ الأهل ، سورُها بالآجُرّ والكِلْس ، وبها نحوٌ من خمسمائة حدَّاد ، يعملون الدروع والسيوف والبيضات والرماح ؛ وهو بلدٌ واسعُ الخطة ، كثيرُ الخير ، وتنتهى أحوازُها فى الجوف إلى البحر المحيط مسيرةَ ثلاثة أيَّامٍ ، وأهلُ بنبابش يزعمون أنَّهم من الإفْرَنْج ، يشبهونهم فى صِفَتِهم وملابسهم وهيئتِهم وأخلاقِهم .

٥٣ — بَنْبَلُونَة

مدينةٌ بالأندلس ، بينها وبين سَرَقُسْطة مائة وخمسة وعشرون مِيلاً ، بها كانت دارُ مملكةِ غَرْسِيَة بن شَانْجُه سنة ٣٣٠ ، وهى بين جبالٍ شامخةٍ ، وشعابٍ غامضةٍ ،

قليلةُ الخيرات ، أهلُها فُقَرَاء ، جَاعَةٌ لُصُوصٌ ، وأكثرهم متكلّمون بالبَشْقِيّة لا يُفْهَمون ؛ وخيلُهم أَصْلبُ الدوابِّ حافِرًا لخشونة بلادهم ، ويسكنون على البحر المحيط فى الجوف .

٥٤ – بَنْشُكُلَة

حصنٌ بالأندلس ، وبالقرب من طَرَّكُونة ، * منيعٌ على ضَفَّة البحر ، وهو عامرٌ آهِلٌ ، وله قُرًى وعمارات ومياهٌ كثيرةٌ[١] ، وبه عينٌ ثرّة تريق فى البحر ، ويقابلُ مَرْسَى بَنِشْكُلَة من برِّ العدوة جزائرُ بنى مَزْغَنَّاى ، بيْنه وبيْنها ستَّة مَجارٍ .

٥٥ – البُونْت

هى قريةٌ من أعمال بلنسية ، يُنسب إليها صاحبُ الوثائق المجموعة ، عبد الله بن فتوح بن عبد الواحد .

٥٦ – بَيَّارَة[٢]

مدينة بالأندلس ، قريبة من بلكونة[٣] ، بينهما عشرة أميال ، وكان ميناها[٤] على النهر الأعظم معقوداً بالرَّصِيف ، وكانت المَحَجَّة العُظْمى عليها من باب نَرْبُونة إلى بابها إلى باب قرطبة ، وحنيةُ بابها باقيةٌ لم تَتَثَلَّمْ[٥] وهى عاليةٌ ، لا يدركُ أعلاها فارسٌ بقناته ، وكانَتْ من بناء رَكَّارِد بن لِوُيلد[٦] مَلِكِ القُوطِ ، وهو الذى جمع الفِرَق ، وقطع الشعوب ، وبثَّ الاختلاف ، وقدَّم ثمانين أُسْقُفاً على ثمانين مدينة ، وكان مستقرُّه طُلَيْطُلَة ، وهو الذى بنى الكنائِسَ الجليلة فى نواحى الأندلس ، وهو الذى قال بالتَّثْلِيث .

(١) ارص ١٨١ . (٢) ت و م : « يابرة » . (٣) ت و ف : « سلكونة » .
(٤) ت و ف : « مبناها » . (٥) ت : « يشتلم » ، ف : « تتسلم » .
(٦) س : « كدلو مرلوس » ، ف : « كد بن لوسد » .

٥٧ – بَيَّاسَة

بالأندلس أيضاً .

* بينها وبين جيَّان عشرون ميلاً ، وكلٌ واحدةٍ منهما تظهر من الأُخرى ؛ وبيّاسة على كُدْيةٍ من ترابٍ ، مُطِلَّةٍ على النهر الكبير المنحدِر إلى قرطبة ، وهى مدينةٌ ذات أسوارٍ وأسواقٍ ومتاجرَ ، وحولها زراعات ، ومستغلاّت الزعفران بها كثيرة(١) .

وفى سنة ٦٢٣ ، ملك الرومُ بيّاسة يوم عَرَفَة من ذى حِجَّتها ، وكان صاحبُ جيّان إذ ذاك عبد الله بن محمّد بن عمر بن عبد المؤمن ، قد تغيّر له عبدُ الله العادلُ بن المنصور ، صاحبُ إشبيلية ، فخافه فخرج إلى بيّاسة ودخلها ، وكلّم أهلَها فى مساعدته وامتناعِهِم ، إلى أن يأخُذَ لنفسه الأَمان ، فساعدوه على مُرَاده ، ومنعوه عن رأيه ، فجهّز إليه العادلُ العساكرَ ، وقدّم عليهم إدريس بن المنصور ؛ فلمّا نزلوا بظاهرِ بيّاسة مكثوا عليها أيّامًا ، والزمانُ شاتٍ ، فلم يغنوا شيئًا ؛ وأراد عبدُ الله صاحبُ بيّاسة تفريق ذلك الجمع بما أمكن ، فداخله بأنْ صالَحَهُ على أن يدفع له ابنًا صغيرًا ليكون رهينةً لَدَيْه بطاعتِه ؛ فوجد إدريس السبيل إلى الانصراف عنه ، وكان أكبر همّه ؛ إذْ قد جهَدَهُ وأصحابَه شِدَّةُ البَرْد ونزولُ المطر ، إلى ما كانوا يخافونه من مَدّ النهر ، ووصول رُومِ طليطلة ، الذين كانوا أوْلياء لصاحب بيّاسة ، وأنصارًا له ؛ فخاف أن يدعو بهم ، فيُلبّوه ، إذْ كان حصّل من أنفسهم مَحَلاًّ كثيرًا لشجاعته ؛ فارتحل أبو العَلاء لذلك ، ورأى أنّهُ قد صنع شيئًا ، وأنّه قد أقام عُذْرَه ؛ فلما وصل إلى إشبيلية ، استُقْصِر فعلُه ، واستُهْجِنَ رَأْيُه ، وبقى عندهم كالخامل المتخوّف .

(١) ار س ٢٠٣ .

ثمّ جهّزوا بَعْدَهُ جيشاً آخر إلى بيّاسة ، قدّموا عليه عثمان بن أبي حَفْص ، فسار حتّى بلغ قِبْلِيّ بيّاسة ، خلف النهر الكبير ، على خمسة أميال[١] من بيّاسة ، فبرز إليهم دون المائة من فرسان عبد الله صاحب بيّاسة ، ومن الروم الذين معه ؛ فلما رأوهم انهزموا ، وولّوا الأدبار ، ولم يجتمعْ منهم أحدٌ ؛ وبقى صاحب بيّاسة ببلده ، ولا أحد يرومه ، إلى أن تملّك قرطبة ومالقة وغيرهما ؛ وكاد يستولى على الأمر لو ساعده القَدَرُ[٢] ، وخرج فأوقع بأهل إشبيلية بفَحْص القَصْر سنة ٦٢٢ ، وقتل منهم نحواً من ألفَيْ رجل ، وانصرف عنها مكسوراً مفلولاً .

وقد كان أدخل الرومَ قَصَبَةَ بَيّاسة وأسكنهم فيها ، والمسلمون معهم فى سائر المدينة ، وكان دَفْعُهُ القَصَبَةَ إليهم على سبيل الرهن فى مال كان تعيّن لهم عليه ؛ فبقوا فى القصبة ساكنين ، والمسلمون فى البلد يداخِلونَهم ويعامِلونَهم ، وهو إذْ ذاك فى قرطبة مقيمٌ ؛ فلمّا غزا إشبيلية وانصرف عنها مفلولاً مكسوراً ، ثار به أهلُ قرطبة ؛ إذْ توهّموا أنّه يريد إدخالَ النصارى مدينتَهم ، فخرج عنهم فارًّا إلى الحِصْنِ المُدَوَّرِ فأقام هناك ، وبقيت قَصَبَة بيّاسة بيَدِ الروم وغَلِقَ الرّهْنُ ، وأحَبَّ أهلُ بَيّاسة إخراجَ الروم عن قَصَبَتِهِمْ ، فداخلوا صاحبَ جيّان عُمَرَ بنَ عيسى بن أبي حَفْص بن يحيى ، وسألوه المسيرَ إليهم فى جموعه ، فجاءهم بحشوده ومعه محمّد بن يوسف المَسْكُدالىُّ ، فدخلوا بيّاسة ، وأمّا من كان بالقَصَبَة من الروم فلم ينالوا شيئاً ، وأمّا من كان منهم بالمدينة فأتى عليهم القتلُ بعد أنْ أبْلَوْا فى الدفاع ، إلا أنّهم غُلِبُوا بالكثْرة ، وبقى أهلُ القَصَبَة لا يستطيع أحدٌ الوصولَ إليهم لحصانتها ، ولو أراد الله تعالى لَوَفّق هذا الوالىَ إلى المُقام ؛ فإنّ أهلَ

(١) ث و ف : « أيام » . (٢) م : « المقدار » .

القصَبَة لم يكن عندهم شيء يقتاتونه إلاّ ما يأتيهم من المدينة مياومةً ، فلو مكث عليها يوماً أو يومَيْن لضاقوا وخرجوا ؛ ولم يكن أهل مِلّتهم نَصَروهم إلاّ فى مُدّةٍ بعيدة لِبُعْد المسافة ، لكن أبَى المِقدارُ إلاّ أنْ يفرغ فى يومه ذلك ، ولم يَخْتَرْ على المبيت ليلةً واحدةً وظَنَّ أنّ الفِجَاج تَرْميه بالخيل والرجال ، فقال لأهل البلد : أنا راجعٌ ؛ فَمَنْ أحَبَّ أن يَخْرُجَ فليخرُجْ ، وَمَنْ أحَبَّ أن يَقْعُدَ فليقعدْ ! فرغبوه أن يمكث يوْماً أو يوْمَيْن فأَبَى عليهم إلاّ الرجوع فى يومه ، فلم يكن لأهل البلد بُدٌّ من فراق بلدهم والخروج عن نعمتهم فتفرّقوا فى البلاد ، وبقِيَ الرومُ فى جميع المدينة ، وملكوها كلّها .

ومن أهلِ بَيَّاسة الأديبُ التَّأريخىُّ أبو الحجَّاج يوسف بن إبراهيم البَيَّاسِىُّ مُصَنِّفُ كتاب الإعْلام لِحُرُوبِ الإسلام ، وغيره من تصانيفه .

٥٨ — بَيَّانَة

بالأندلس من أعمال قرطبة ، وهى مِن مُدُن قَبْرَة ، وعلى يمين الطريق الذاهب إلى قرطبة ، وشرقىَّ قَبْرَة ، بينهما عشرة أميال ، وهى على ربوة من الأرض ، طيِّبة التربة ، كثيرة المياه السائحة ، ولها حِصْنٌ منيعٌ ، وبها جامعٌ بَنَاهُ الإمام عبد الرحمن ومنبرٌ ، وكانت قبل الفتنة من غُرَر البلدان ، وكان بها أسواق عامرة ، وحمّامات ، وهى كثيرةُ البساتين والكروم والزيتون ، وهى على نهر مَرْبَلّة ، يأتيها من جهة القِبْلة ، وهو نهر كبير ، عليه الأرحاء الكثيرة .

ومن بَيّانة ، قاسم بن أَصْبَغْ بن محمّد بن يوسف بن ناصِح بن عَطَاء البيّانىُّ ، مَوْلَى الوليد بن عبد الملك ، سمع بقرطبة من بَقِى بن مَخْلَد وغيره ، وبمكّة من جماعة ، وبالعراق

من أحمد بن زُهَيْر بن حرْب ، وهو ابن أبي خَيْثَمَة ، وعبد الله بن أحمد بن حَنْبَل ، وعبد الله بن مُسْلِم بن قُتَيْبة ، ومحمّد بن يزيد المُبَرّد ، وثَعْلَب ، وغيرهم .

٥٩ — بَيْرَان

حصنٌ من حصون الأندلس ، ومن قصيدة ابن الأَبّار يمدح بها السيّد أبا زيد عند انقياد أهل بَيْران لابنه السيّد أبي يحيى أبي بكر سنة ٦٢٢ [بسيط] :

لِلّهِ قلعة بَيْرَان وعزّتها على الأعاصر في ماضي الأعاصيرِ
عَنَتْ ودانَتْ على حكم المنى فَرَقًا مِن سَيِّدٍ قَدْ هَوَتْ مِن أَرْفَع(١) السُّورِ
وأَذْعَنَتْ وهي الشَّماء ذروتُها على حِجاج لها من قَبْلُ مذكورِ
ولو أصَرّتْ عَلَى الإعراض ثانيةً لأصبَحَتْ بين تخريب وتَدْمِيرِ
مَدّتْ إليك أبا زيد بطاعتها يداً مخافة صَوْلٍ منك مشهورِ
وأكّدت في الرضى والصفح رغبَتَها كما تقدّم تأييد المقاديرِ
فجُدْتَ جودَكَ بالنعمي بما سألتْ من الأمان لها طَلْق الأساريرِ

٦٠ — بِيغُو

مدينةٌ بالأندلس من عمل غرناطة .

كان عبد الله صاحبُ بيّاسة من بني عبد المؤمن ، وهو المعروف بالبيّاسيّ ، استدعى عدوَّ الدين لمّا نزل عليه العادلُ ببيّاسة ، فحاصره فأقلع عنه دون شيء ، فلمّا لم

(١) في : « أعالي »

يجدْ فى المسلمين كبيرَ إعانة ، استدعى النّصارى فوصلوا إليـه ، فسلّم إلى الفُنْش بيّاسة ، وجازى أهْلَها شرَّ الجزاء ، بعـد ما آووه ونصروه ، فأخرجهم منها وسار مع الفُنْش ليأخـذ معاقل الإسلام باسمه ، فدخل قَيْجَاطَة من عَمَل جيَّان بالسيف ، وقتل العدوُّ فيها خلقاً كثيراً ، وأسر آخرين ، وكان حديثُها شنيعاً تنفر منه الأسماع والقلوب ؛ ثمّ نهض أيضاً ومعه العدوُّ إلى لَوْشة من عَمَل غرناطة ، فاستعصم أهلُها بسورها الحصين ، وقاتلوه أشدَّ قتال ، وأسمعوه ما هاج غيظَه ، فلما تمكّن منها سلّط عليهم عدوَّهم فى الدين ، ففتكوا بهم أشدَّ الفتك ، ثمّ سار إلى بِينُو هـذه فأطال مع الفُنْش حصارها إلى أن دخل البلد بعـد شدّةٍ ، وصالَحه أهلُ القلعة ، وما زال أمرُه يقوى إلى أن احتوى على قرطبة ومالَقة وكثير من مَعَاقل هاتَيْن القاعدتَيْن وبلادهما ، فخاف منه العادل بإشبيلية ، وجمع من عنده من الجُنْد ، ونظر فى كفّه عن جهته ، وكان ذلك فى سنة ٦٢٢ .

٦١ — بيُونَة

مدينة فى بلاد الروم على ساحل البحر وهى بالقرب من مدينة طُودَة[١] .

---

(١) ت و ف و م : « طنيطلة » .

حرف التاء

٦٢ — تَاجُـه

نهرٌ عظيمٌ يشقُّ طليطلة قَصَـبَة الأندلس فى الزمان الأقدم ، يخرج من بلاد الجَلاَلِقة ، ويصبُّ فى البحر الرومىّ ، وهو نَهْرٌ موصوف من أنهار العالم ، وعليه ، على بُعْدٍ من طليطلة ، قنطرةٌ عظيمةٌ ، بَنَتْها ملوكٌ سالفةٌ ، وهى من البنيان الموصوف .

٦٣ — تَاكُرُنَّا

مدينةٌ بالأندلس ، بمقربةٍ من إِسْتِجَّة ، وهى مدينةٌ أَزَلِيَّة ، إليها تُنْسَب الكُورة ، وبها بَلاطٌ من بناء الأُوَلِ لم يتغيّر .

وإقليم تاكُرُنّا مضافٌ إلى إقليم إسْتِجّة ، ومن مُدُن تاكُرُنّا مدينة رُنْدَة ، وهى قديمةٌ ، ولها آثارٌ كثيرة ، وسنذكُرها فى موضعها إن شاء الله تعالى .

٦٤ — تُدْمِير

مِن كُوَر الأندلس ، سُمِّيَتْ باسم مَلِـكها تُدْمِير .

ونسخةُ كتاب الصُّلْح الذى صالَحَهُ عليهِ عبدُ العزيز بن موسى بن نُصَيْر :

بسم الله الرحمٰن الرحيم ، كِتابٌ مِن عبـدِ العزيز بن موسى بن نُصَيْر لتُدْمِير ابن عبدوش .

أنه نزل على الصلح ، وأنّ له عَهْد الله وذمَّته ، وذمّة نبيّه (صلعم) ، ألاّ يُقَدَّمَ له

ولا لأحدٍ من أصحابه ، ولا يؤخِّر ، ولا ينزع من ملكه ، وأنّهم لا يقتلون ولا يسبون ولا يفرق بينهم وبين أولادهم ولا نسائهم ، ولا يُكْرَهُوا على دينهم ، ولا تحرق كنائسُهم ، ولا ينزع عن كنائسه ما يُعبد ، وذلك ما أدّى الذى اشترطنا عليه ، وأنّهُ صَالَحَ على سَبْع مدائِن : أُوريولة ، وبَلْتَنَةَ[1] ، ولقَنْت ، ومُولة ، وبِلانة ، ولَوْرَقة ، وأُلّه[2] ، لا يأوِى لنا آبقاً ، ولا يأوى لنا عدوًّا ، ولا يخيف لنا آمِناً ، ولا يكتم خبر عدُوّ عَلِمَهُ ، وأنّ عليه وعلى أصحابه ديناراً كلّ سنة ، وأربعةَ أمداد قمح ، وأربعة أمداد شعير ، وأربعةَ أقساط طلاء ، وأربعة أقساط خَلّ[3] ، وقِسْطَىْ عَسَلٍ ، وقِسْطَىْ زَيْتٍ ، وعلى العَبْد نِصْفُ ذلك ، وكُتِب فى رجب سنة ٩٤ من الهجرة .

٦٥ — تَرْجَالُه

مدينةٌ بالأندلس .

* كالحِصن المنيع ، لهـا أسوارٌ ، وأسواقٌ عامِرَة ، وخَيْل ورَجل يقطعون أعمارهم فى الغارات على بلاد الروم ، والأغلَب عليهم التلصُّص والخداع[4] .

وفى سنة ٦٣٠ نزل الروم على تَرْجَالُه فحاصرُوها ، فخرج إليهم محمّدُ بن يوسف بن هود طامِعاً فى انتهاز فُرْصَة فيهم فلم يمكنه ذلك ، فرحل إلى إشبيلية وأخذَ منها مَرَاحِلَهُ إلى تَرْجَالُه ، فجاءه الخبرُ بأخْذِ الروم لها ، فرجع إلى إشبيلية ؛ وكان تملُّكُ الروم لتَرْجَالُه فى ربيع الأوّل من هذه السنة .

---

(١) م : « بلتلة » . (٢) م : « وأنه » .

(٣) ش و م : « خلا » . (٤) ار ص ١٨٧ .

٦٦ – تُطيلة

مدينةٌ بالأندلس فى جوفىّ وَشْقَة ، وبين الجوف والشرق من مدينة سَرَقُسْطة ، ويُطيف بجنّات تُطِيلَة نَهْرٌ كالسَّ ، وهى مِن أكرم تلك الثغور تُربةً[1]، يجودُ زرعُها ، ويدر ضرعُها ، وتَطيبُ ثمرتُها ، وتكثُر بركتُها ، وأهلُ تُطِيلة لا يغلقون أبوابَ مَدينتهم ليلاً ولا نهاراً ، قد انفردوا بذلك بين سائر البلاد .

* ومن الغرائب المستطربة ، أنّه كان بتُطيلة بعد الأربعمائة من الهجرة ، أو على رأسها ، امرأةٌ لها لحيةٌ كاملةٌ سابغةٌ كَلِحَى الرّجال ، وكانت تتصرّف فى الأسفار ، وسائر ما يتصرّف فيه الناسُ ، ولا يُؤْبَهُ لها ، حتّى أمر قاضى الناحية نِسْوةً مِن القوابل بالنّظر إليها ، فَأَحْجَمْنَ عن ذلك لِمَا عَايَنَّهُ من منظرِها ، فَأَلْزَمَهُنَّ النَّظَرَ إليها ، فإذا بها امرأةٌ كسائرِ النساء ؛ فأمَرَ القاضِي بحلق لحيتها ، وأنْ تتزيّا بزيّ النساء ، ولا تسافر إلاّ مع ذى مَحْرم . ومن بنات تُطيلة مدينة طَرَسُونَة[2] .

ومن تُطيلة الشاعرِ المُجيد التُّطيلِيُّ الأعمى ، صاحب القصيدة المشهورة ، التى أوّلها [طويل] :

ألا حَدِّثانى عن فُلٍ وفُلانِ   لَعَلّى أرى باقٍ على الحدثانِ

٦٧ – التَّوْبَة

جزيرةٌ بالأندلس على البحر المُحيط ، قد أحاط بها خليجٌ ، وهى مأْوًى للصالحين ، ورباط لأخيار المسلمين ، وبها آبارٌ عذبة ، يمتلون عليها من أصناف البقول ما يقوم لمعايِشِهم مع مَرافِق البحر .

(١) م : « منزلة » .   (٢) ب و ، ص ٢٥٥ .

حرف الجيم

٦٨ – جُرْف مَوّاز

بالأندلس، على قرطبة جبلٌ يُقال له جَلْطَرَاء[١]، يُشْرِفُ على قرطبة وجميع مُتَنَزَّهَاتها وقصورِها، وهو وَعْرٌ في الشّتاء، ومَزَلَّةٌ لا يستمسك عليه قَدَمٌ، وفيه يقولُ بعضُ الظُّرفاء [خفيف]:

نَشَّبَتْني إخاءَ مَنْ ليس يَرْعى لأخيه الودود حقَّ الإِخاءِ[٢]
تُشْـــبِهُ الجَمْرَ والهواءُ مطيرٌ في جنوب الأجراف من جَلْطَرَاءِ

وفي هذا الجبل جُرْفٌ منقطع عالٍ جِدًّا، تحته مهوًى[٣]، بعيد مُشْرف على جميع بساتين رَمْلة قرطبة، يُعْرَفُ بجُرُف مَوَّاز؛ وَمَوَّاز رَجلٌ أسود مِن أهلِ هذه القرية، كان يأتي كلَّ غداة، فَيَقِفُ بأعلى هذا الجُرْف، فيُنادِي بأعلى صوته: يا أهلَ الرَّمْلة ١٠٠ ا ثلاثًا يُسْمِعُهم عن آخرهم، لجهارة صوته، وإشراف معانيه، فإذا تشوّفُوا له كَشَفَ لهم عن دُبُره، ويركع على أربع، قابضًا على أصل شُجَيْرَةٍ كَبَرٍ هنالك ثابتةٍ، يعتصِمُ بها مِن السُّقوط؛ فلمّا طالَ ذلك عليهم من فِعْلِهِ، دَسُّوا من قطع عروق تلك الشجرة التي كان يتمسّك بها، وسَوَّى عليها التراب كحالتها الأولى، وأتَى مَوّاز بالغد فصاحَ بهم عَلَى عادته، وصنع كمعهود صنيعه، فتهوّرَ مِن أعلى ذلك الجُرْف؛ فما وصل إلى الأرض إلاَّ مَيِّتًا، فَضُرِبَ به المَثَلُ، حتَّى قالَ بعضُ الشعراء [سريع]:

(١) ت و ف و م: « جَلطَران ».
(٢) ت و ف: « الاخفاء ».
(٣) ت و ف: « هواء ».

وَعَدتَّنِي وَعْـــداً وقرَّبْتَهُ تقريبَ مَنْ يُثْنِى بإِنْجَاز
حتَّى إذا قلتُ انقضت حاجتى رَميتَ بِى مِن جُرُف مَوّاز

٦٩ — جِلِّيقيَّة

* الجَلالِقة من ولد يافث بن نوح (عليه السلام) ، وهو الأصغر من ولد نوح ، وبلدهم جِلِّيقِيَّة وهى التى تَلِى المغرب ، وتنحرف إلى الجوف ، وكانوا حوالى مدينة براقرة التى فى وسط الغرب ، وبراقرة هذه أولية من بنيان الروم ، وقواعدِهم ودُورِ مملكتِهم شبيهة بمارِدة فى إتقان بنائها وصنعة أسوارها ، وهى اليوم مهدومة الأكثر خالية ، هدمها المسلمون وأجْلَوْا أَهْلَها[1] .

* وبلد الجِلِّيقيين سهلٌ ، والغالب على أرضهم الرَّمل ، وأكثر أقْواتهم الدُّخْنُ والذُّرة ومُعَوّلهم فى الأَشربة على شراب التفَّاح وأنيشكة[2] ، وهو شراب يتَّخذ من الدقيق ، وأهلها أهلُ غدرٍ ودناءةِ أخلاقٍ ، لا يتنظَّفون ولا يغتسلون فى العام إلا مَرّةً أو مرَّتَيْن بالماء البارد ، ولا يغسلون ثيابهم منذ يلبسونها إلى أن تنقطع عليهم ، ويزعمون أنَّ الوضر[3] الذى يعلوها من عرقهم به تتنعَّم أجسامُهم ، وتصلح أبدانُهم ، وثيابُهم أضْيَق الثياب ، وهى مفرَّجة تبدو من تَفَارِيجها[4] أكثرُ أبدانهم ، وفيهم بأسٌ شديد ، لا يرون الفرار عند اللقاء ، بل يرون الموت دونه[5] .

(١) ب ه ص ٢٤٣ . (٢) كذا فى م ، ه فى ب ه ، وفى ت : « النيشكة » وص : « البنشكة » .
(٣) ب ه و ت و ص : « الوضوء » (٤) ت و ص : « تبدو موتقا ريحها » .
(٥) ب ه ص ٢٤٥ .

وتنتهى أحواز الجليقيّين فى الجوف إلى البحر المُحيط ، وفى القبلة إلى أحواز مدينة طلسونة ، وقاعدتهم مدينة أقش ، وهى مبنية بالصخر المربّع الكبير الخ[1] .

٧٠ — جِنْجَالَة

حصنٌ بالأندلس فى شمال مُرْسية .

فيها حُبِس أبو زيد عبد الرحمن بن موسى بن وجّان بن يحيى الهِنْتَاتِىُّ ، الذى كان وزير المنصور من بنى عبد المؤمن ، ثمّ نُهِّض فى زمان ابنه الناصر إلى ولاية تِلِمْسان وإصلاح الطُّرُق من عُتَاةِ زَنَاتة ؛ ولما تمكّن أبو سعيد بن جامع وزير المستنصر سعى فى ولاية تِلِمْسان لعمِّهِ السَّيِّد أبى سعيدِ بن المنصور ، فحبس ابن وجّان ، وجعل بنوه يكتبون سُطُوراً فى البراءة من أفْعَاله وفرّقوها على البلاد ؛ ولما زار أبو سعيد بن جامع الوزيرَ غنكيت فى سنة ٦١٧ بعد تأخيره من الوزارة بلغه أنّ ابن وجّان شمت به وهو فى حبسه بتلمسان ، وتكلّم ورجا التسريح ، فما كان عنده خبر حتّى وصل إليه مَن جاز به[2] إلى الأندلس وحبّسه فى حِصْن جِنْجَالة .

ولمّا حُمِل إلى ذلك الثغر السحيق ، وظنّوا إذْ ذاك أنّه قد حُسم بذلك الإقصاء والتفريق ؛ وفرّقوا بنيه على البلاد ، قضى الله تعالى أن مات أبو سعيد بن جامع ، وخلص ابن وجّان من ذلك الحصن ، وقلّب الدولة ، وسعى فى الفتنة ، وذلك أنّه لما وصل الخَبر إلى مُرْسية بوفاةِ المُسْتَنْصِر يوسف بن محمّد الناصر بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن ، واستخلاف المُبارَك عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن بمرّاكش ،

---

(١) تكرار ما قيل فى ترجمة « اقش » أعلاه رقم ٢٢ . (٢) ت و ص و م : « خازنه » .

والأمر لابن وجّان بالمسير إلى جزيرة ميورقة ، قرأ قول الله تعالى : « وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ »(١) ، وطلب الاجتماع بالسيّد أبى محمّد عبد الله بن المنصور صاحب مُرْسية يومئذٍ ، فلمّا حضر عنده قال له : أراهم قد أخرجوا الإمامة(٢) عن عقب سيدنا المنصور رحمة الله عليه ، وأنا أشهد أنّه قال : إنْ لم يَصْلح محمّدٌ فعبدُ الله قد نُصر عليكم ، وإن طالبتموها لم يخالفكم أحدٌ مع كراهية الناس فى بنى جامِع الذين قد اتّخذوا الوزارة وراثةً ، وجعلوا يُقْصون من الحَضْرة كلّ من هو موَهّلٌ لوزارةٍ واستشارةٍ ، وقد وطّأ الله لكم هذا الأمر بأن جعلَ إخوتكم الميامِين أولاد المنصور بقرطبة ومالقة وغرناطة ، فأوّل ما قُدِّم مخاطبتُهم بذلك ، وتهييج حفائظهم فى خروج الإمامة عن بيتهم ، وكان السيّدُ أبو محمّد هذا لم يبايع عمّه عبد الواحد ، وهو ناظرٌ فى البيعة ، فأصْغَى إلى ابن وجّان وعلم أنّهُ قد تقدّم له فى هذا الأمر سابقةٌ بوزارة المنصور ، وأنّ الموحّدين يصيرون إلى قوله فى البرّيْن ، فنصب نفسه للإمامة ، وتلقّب بالعادل ، وخاطب إخوته فجاوبوه ، ثمّ انتقل العادل من مُرْسية إلى إشبيلية ومعه ابن وجّان ، وهو غالبٌ على جميع التدبير ، ناظرٌ فى مخاطبات ولاةِ العدوة ، والتطلّعِ لأخبار مَرّاكُش .

ثمّ إنّ العادِل أراد أن يستريحَ من ابن وجّان لتفرُّغ أتباعه إلى تدبير الآراء ، والاستبداد بحضرته فإنه غَمّ الجميع ، وكان ابن وجّان إذا احتوى على أمر ضَمّ أطرافَه ولم يترك لأحدٍ منه شيئاً ، ولذلك رماه أهل الدوَل عن قوس واحدةٍ ، فرسم له العادل ركوبَ البحر إلى سَبْتة ليكون بها نائبَ سلطانه ، وناظراً فى جميع برّ العدوة ، فركب فى القطائع من نهر إشبيلية إلى سَبْتة ، وذلك كلّه فى سنة ٦٢١ ، فاشتغل بالنظر فى بلاد العدوة .

(١) قرآن كريم — ١٣ : ٧ . (٢) س : « الأمانة » .

ثمّ إنّ العادل خلع ، واجتمع أهل الحلّ والعقد وقالوا : نحبُّ ألاَّ نبيت الليلةَ إلاَّ بإمامٍ ! فقال لهم ابن وجّان : إن رأيتم أن تتربّصوا حتّى تتحقّق أخبار أبى العُلَى[1] صاحب الأندلس ، فقد ظهرَتْ نجابتُه بتلك البلاد ، وقد ذاق الاستبداد ، وما أظنُّه يترك هذا الأمر لغيره . فعدلوا عن كلامه ، وأجمع أبو زكرياء بن الشهيد وأبو يعقوب بن علىّ على مبايعة أبى زكرياء يحيى بن محمّد الناصر .

ثمّ خاطب أبو العُلَى المذكور لابن وجّان يدعوه إلى مبايعته ، فأجابه ؛ وكذلك خاطبه هِلاَل بن مُقَدَّم أميرُ الخُلْطِ ، وعُمَر بن وقاريط شيخُ هَسْكُورة فى شأن مبايعة أبى العُلَى ، والتضييق على أهل مرّاكش الذين انحرفوا عن مبايعَة أبى العُلَى وأَخْذِ رَأْى ابن وجّان ومشاركته فى ذلك ، فأجابهما بأن : لا تزالا تشنّا الغارات طرفة عين ، وأن تجتهدا فى قطعَ الطُّرُق حتى تحوج الضرورة أهل مَرّاكُش إلى مبايعة أبى العُلَى ، وإخراج من لا ينفعهم ؛ فلما تواصلت مصائب العرب وهَسْكُورة على مَرّاكُش ، وصاروا لا يخرج منهم جيشٌ إلاَّ هزموه وغنموه ، حتّى أفْنَوْا كثيراً من رجالها ، اجتمع أهل الرأى فيها على قتل ابن وجّان ، إذْ كان فى اعتقادهم أنَّه يُغْرِى العدوَّ الظاهر بإهلاكهم ، فاطّلَعَ ابن وجّان وابنه الأكبر أبو محمّد على ذلك ، فاختفى هو فى غرفةٍ لبعض أتباعه فى جهةٍ ربّما يخفى عن العيون ، ووقع ابنه فى دَرْبٍ مِن دروب هَرْغَة فاختفى فى مسجد هناك ؛ ووقع النَّهْبُ فى جميع ما كان لهما ، وصار الزمّال والسائس والدُّخانىُّ[2] وأمثالهم يَضَعُ كلٌّ واحدٍ منهم يَدَهُ فيمن وقع له من الحرم وغير ذلك ، ولا أحدٌ ينكر ، ولا يقدر من ينكر أن يتلفّظ بذلك ، لأنهم كانوا عند العامّة مناطبين لأعدائهم ، ووقع البحثُ على

(١) م : « أبى المعالى » . (٢) م : « الدحال » .

الشيخ ابن وجّان وعلى ولده ؛ فأمّا الشيخ فانتهى إليه جزّارٌ ، فصاح بصاحبٍ له استعان به على جرّه فجرّاه ، وذبحه الجزّارُ ، وغدا برأسه إلى أبي زَيْد بن الشيخ أبي محمّد عبد الواحد ، إذْ هو ابن عمّه ، لأنّ أبا زيد المقتول هو عبد الرحمن بن وجّان بن يحيى الهِنْتَاتيُّ ، وأبو زيد الواصل بالعسكر هو عبد الرحمن بن عبد الواحد بن أبي جعفر بن يحيى ، فيحيى يجمع بيْنَ أبي حَفْص وبيْنَ وجّان ، وجعل الله تعالى بَيْنَ هذَيْن البيتَيْن ما جعل بيْن بني هاشِم وبني أُميّة ؛ وأمّا ابنه الوزير أبو محمّد فنمى خبرُه إلى أولاد أبي زكرياء ابن الشهيد فوصلوا إليه وأخرجوه وضربوا عُنُقه على باب المسجد ، وكان قتلُهما في سنة ٦٢٥ .

٧١ — جَيّان

* مدينةٌ بالأندلس ، بيْنها وبيْن بيّاسة ستُّون مِيلاً ، وهي كثيرة الخصب ، رخيصة الأسعار ، كثيرة اللحوم والعَسَل ؛ ولها زائدٌ على ثلاثة آلاف قرية ، كلُّها يربّى فيها دودُ الحرير ، وبها جنّات وبساتين ومزارع وغلاّت القمح والشعير والبَاقِلاَء وسائر الحبوب ؛ وعلى ميل منها نهر بُلُّون وهو نهرٌ كبير عليه أرحاء كثيرة جدًّا ، وبها مسجدٌ جامع وعلماء جلّة[١] .

وجيّان في سفح جبل عالٍ جدًّا ، وقَصَبَتُها من القِصَاب الموصوفة بالحصانة وهي من أغرّ المُدُن وشريف البِقاع ، وفي داخلها عيونٌ وينابيع مُطّرِدة ، منها عين ثَرّةٌ عَذْبة ، عليها قَبْوٌ من بناء الأُول ، ولها بِرْكة كبيرة عليها كان حَمّام الثَّوْر ، فيه صورةُ

(١) ٣ ر ص ٢٠٢ .

ثَوْرٍ من رخامٍ ، وحمَّام الوَلَد ، وهما للسلطان ، وحمَّام ابن السَّليم ، وحمّام ابن طَرَفة ، وحمّام ابن إسحٰق ، وتُسقى بفضلته بسائط عريضة ، ومن عيونها عين البَلاط ، عليها قَبْوٌ للأوّل ، وماؤها لا ينقصُ فى زمان من الأزمان ، على هـذه العين حمّامٌ يُعْرَف بحمَّام حُسَين ، وتسقى بها أيضاً أرضٌ كثيرة ، ومن عيونها عين سطرون ، وماؤها غزيرٌ نميرٌ وعليها سقىٌ كثير ؛ والأرحاء الطاحنةُ على أبواب المنازل بجيّان ، والجنَّات بظهور البيوت ؛ وجامِعُ جَيّان مُشْرِفٌ يُصْعَد إليه على دَرْجٍ من جميع نواحيه ، وهو من خمس بلاطات على أعمِدة رخام ، وله صحنٌ كبير حوله سقائف[1] ، وهو من بنـاء الإمام عبد الرحمٰن بن الحَكَم على يد مَيْسَرَة عاملِ جيَّان .

وجبلٌ من جبال جيّان إذا تبايع أهلُها أموالَهم فيه شرطوا أنّه فى مَجْرَى السَّحاب ، لِأَنَّ هـذا الجبل فى مكان لا يكاد يُخْطِئه السحاب بالرياح المختلفة ، فهم يغالون فيه لهذه الخاصِّيَّة .

وبِكُورَةِ جَيّان أقاليمُ عِدَّةٌ ، وبها أسواقٌ كثيرة ، وسوقها الجامع[2] يوم ...[3] ، وكورتُها من أشْرَفِ الكُوَر ، وهى أشبه الكُوَر بكورة إلبيرة فى طيبِ بقعتِها ، ووفور غلَّتِها ، ورفعِ بذرِها ، وكثرة خيرِها ؛ وجزيرتُها تفوق جزيرة إلبيرة طيباً .

ومن أمْثَال العامّة : « يذْكُرُ البُلْدان ، ويَسْكنُ جيّان ! » ؛ ولها أقاليمُ كثيرةٌ ، وقُرًى عامرةٌ ، وعمائرُ واسعةٌ .

ومن جيّان الحافظُ أبو علىّ الجيَّانىُّ الإمام الضابط ؛ وأنشد بعض أهل جيّان عند الخروج منها بتغلُّب العدوّ عليها [وافر] :

---

(١) س : « شفائف » .   (٢) ش وم : « الجامعة » .   (٣) بياض فى جميع الأصول .

أُوَدِّعُكُمْ أُوَدِّعُكُمْ جَيانِى(١) وأَنثُرُ عَبْرَتى نَثْرَ الجُمَانِ
وإنِّى لا أُريد لكم فراقًا وَلكِنْ هَكذَا حُكْمُ الزّمانِ

وقال الخطيبُ بها على المِنْبَر عند العزم على الانفصال عنها فى خُطْبَته: « وهذِهِ آخِرُ خُطْبَةٍ تُقَام بجيّان ! »

ومِن أهل جيّان الأُستاذُ أبو ذَرّ مُصْعَب بن محمّد بن مسعود بن عبد الله بن مسعود الخُشَنيُّ المعروفُ بابن أبى رُكَب ، وهو القائل بعد خروجه من جيّان [طويل] :

أجَيّان أنتِ الماء قد حيل دونه وإنى لَظمآنٌ إليكِ وصادِى
ذكرتُكِ إذْ هَبّت شمال وإذْ بدا لعينىَ من تلك المعالم بادِى
مَتَى ما(٢) أُرِدْ سيْرًا إليكِ تَرُدُّنى مخافةُ آسادٍ هناك عوادِى

وكان سكن إشبيلية ووَلِىَ خُطَّة المناكِح بها ، ثمّ سكن فاسًا وأقرأ بها ، ثمّ وَلِىَ قضاء بلدِهِ جيّان سنة ٥٠٩ ، ومِن شعره [طويل] :

أيا نَخْلَتَىْ جيّان(٣) بالله أسْعِدا غريبًا بكى مِن فقد أهْلٍ وجيرانِ
يحنُّ(٤) إلى ظِلَّيْكُمَا وفؤادُه رهينٌ بأظعانٍ حَلَلْنَ بجيّانِ
يُؤَمِّلُ أقْصَى الغَرْبِ والشرقُ همُّه(٥) ويذكر أوطانًا تحنُّ لأوطانِ
وما ذاك عن بُغضٍ ولا عن قِلًى لها ولكنْ عَدَتْ(٦) عنها تصاريفُ أزمانِ
عسى مَنْ قضى بالبعد عنهم بلطفه يُسَدِّدُ من حالى ويُصلِحُ من شانى

(١) م : « جنانى » . (٢) مه ف ت و ف . (٣) ت و ف : « أبى نخلتى يومًا » .
(٤) ت و ف : « يحق » . (٥) ت و ف : « سمه » . (٦) ت و ف : « صدتْ » .

حرف الخاء

٧٢ ــ الخَضْرَاء

بالأندلس ، وهى الجزيرةُ الخضراء ، ويقال لها جزيرةُ أُمِّ حَكِيم(١) ، وهى جارية طارِق بن زِيَاد مَوْلَى موسى بن نُصَيْر كان حملها معه فخلّفها هذه الجزيرة فنُسِبَتْ إليها ، وعلى مرسى أُمّ حَكِيم مدينة الجزيرة الخضراء ، وبينها وبينَ مدينة قَلْشانة أربعة وستُّون مِيلاً ، وهى على ربوةٍ مُشْرِفَةٍ على البحر وسورُها متّصل به ، وبشرقيّها خَنْدَق وبغربيّها أشجارُ تينٍ وأنهارٌ عذبة ؛ وقَصَبةُ المدينة موفيةٌ على الخندق وهى منيعة حصينة سورها حجارة وهى فى شرقيّ المدينة ومتّصلةٌ بها ؛ وبالمدينة جامعٌ حسن البناء فيه خمسُ بَلَاطات وصحنٌ واسعٌ وسقائفُ من جهة الجوف وهو فى وسط المدينة فى أعلى الربوة ، وأسواقُها متّصلة من الجامع إلى شاطئِ البحر ؛ وعلى البحر بيْنَ القبلة والشرق من مدينة الجزيرة مَسْجِدٌ سِوًى يُعرف بمسجد الرّايات ، رَكَزَتْ فيه المَجُوسُ راياتها ، فنُسِب إليها ، وله بابٌ مِن خشبِ سُفُنِ المجوسِ ، وبها كانتْ دارُ صِنَاعةٍ بناها عبدالرحمن بن محمّد أمير المؤمنين للأساطيل ، وأتقن بناءها ، وعلّى أسوارها ، ثمّ اتّخذها المتزون بها فى الفتنة قَصْراً ، وبقرب المدينة مَدْخَل الوادى فى البحر ، عليه بَسَاتينُ كثيرة ، ومَهْبَطُهُ من حيثُ تدخله السُّفُنُ ، ومنه شُرْبُ أهلِ الجزيرة ، ويسمّونه وادى العَسَل ، ويمدّه البحرُ إلى قدر شطْر المدينة ، وهو نحو نصف مِيل ، وتُجَاهَهُ أَثَرُ مدينةِ الجَلَنْدِيّ المَلِك صاحبِ

(١) ما يلى مصحح عن م ، وفى ت و ف تصحيف كثير .

قَرْطاجنَّةِ إفريقية بقبليِّ مدينة الجزيرة ، وهو اليومَ خربةٌ تزدرع ، وبها حائطٌ عريض مبنيٌّ بالحِجارة داخلَ البَحر ، ومِن هذا الحائط كانت تُشْحَنُ المراكبُ ، وبنى عليه محمّد بن بلال[1] بُرْجاً .

ومدينة الجزيرة طيّبة رفيقة بأهلها جامعةٌ لفائدة البرِّ والبحر قريبة المنافع من كلِّ وجهٍ لأنّها وُسْطَى مُدُن الساحل وأقْرَبُ مُدُنَ الأندلس مَجازاً إلى العدوة . ومنها تغلَّبَ ملوكُ الأندلس على ما تَغَلَّبوا عليه من بلاد إفريقيّة ؛ وبها ثلاث حَمّامات ، ولها كُوَرٌ كثيرة ، وكانت جبايتُها ثمانى عشر ألفًا وتسعمائة .

وأهلُ الجزيرة هذه هُمْ الّذين أبَوْا أن يضيّفوا موسى والخِضْرَ (عليهما السلام) ، وبها أقام الخِضْرُ الجِدَارَ وخرق السفينة ، والجلنديُّ هو الذى كان يأخذ كلّ سفينة غَصْبًا ، حُكى ذلك عن وَكِيع بن الجرّاح .

ومرسى الجزيرة مشتًّى مأمونٌ ، وهو أَيْسَرُ المراسى للجواز ، وأقربها من برّ العدوة ، ويُحاذيه مَرْسَى مدينة سَبتة ، ويُقطع البحرُ بينهما فى ثلاث مَجَارٍ ، ويتْلُوه جبلُ طارِق .

* وللخضراء هذه سورُ حجارةٍ مفرَّغٌ بالجيار ، ولها ثلاثة أبواب ، وبها دارُ صِناعةٍ داخلَ المدينة ؛ وعلى نهرها المسمّى نهر العَسَل بساتين وجنات بضفّتَيْه معاً ، وبالجزيرة الخضراء إنشاء وإقلاعٌ وحطٌّ ، وأمامَ المدينة الجزيرة المعروفة بأُمِّ حكيم المتقدّمة الذكر ؛ والجزيرة الخضراء أوّلُ مدينةٍ افتتِحَتْ من الأندلس فى صَدر الإسلام

(١) م : « فلان » .

سنة ٩٠ من الهجرة على يد موسى بن نُصَير من قِبَل المَرْوانيّين ، ومعه طارق بن عبد الله ابن وَنمو الزناتيّ فى قبائل البربر .

وعلى باب البحر مسجدٌ يسمّى مسجد الرايات يقال إنّ هناك اجتمعت رايات القوم للرّأى . وكان وصولهم أيضًا من جبل طارق ، وإنما سُمّى بجبل طارق لأنّ طارق ابن عبد الله لمّا جاز بالبربر الذين معه تحصّن بهذا الجبل . وقدّر أنّ العَرَب لا ينزلونه(١) فأراد أن ينفى عن نفسه التهمةَ ، فأمر بإحراق المراكب التى جاز بها فتبرّأ بذلك ممّا اتهم به . وبيْن هذا الجبل والجزيرة الخضراء ستّة أميال ، وهو جبلٌ منقطع مستديرٌ ، فى أسفله كهوف فيها ماء(٢) .

ولها من الأبواب الباب الكبير ، يُعْرَف بباب حَمْزَة غَرْبىّ ، وباب الخَوْخَة قِبْلىّ ، وباب طَرَفَة جوفىّ ؛ ولها ثلاثُ حمّامات . وتغَلَّب المَجُوسُ عليها فى سنة ٢٤٥ ، وأحرقت المسجدَ الجامعَ بها ؛ وفى الشرق من مدينة الجزيرة مسجدٌ يقال إنّه من بناء صاحبٍ من أصحاب رسول الله (صلعم) ، ويقال إنّه أوّلُ مسجدٍ بُنى بالأندلس ، ويُعرف الموضعُ الذى هو فيه بقَرْطَاجَنّة ، فإذا أقْحَط أهلُ الجزيرة استسقَوْا فيها فسُقُوا بفضل الله تعالى ورحمته .

والجزيرة فى شرقىّ شَذُونَة ، وقبلىّ قرطبة ، ولها أقاليمُ عدّةٌ .

---

(١) ت و ف : « تنق به » .   (٢) ا و س ١٧٦ — ١٧٧ .

حرف الدال

٧٣ — دَانِيَـــة

مدينةٌ بشرقيّ الأندلس .

* على البحر عامِرَةٌ حسنةٌ ، لها رَبَضٌ عامرٌ ، وعليها سورٌ حصينٌ ، وسورُها من ناحيـة المشرق فى داخل البحر قد بُنى بهندسة وحكمة ؛ ولها قَصَبَةٌ منيعة جدًّا ، وهى على عمارةٍ متّصلة ، وشجرِ تينٍ كثيرة ، وكروم ؛ والسُّفُن واردةٌ عليها ، صادرة عنها ، ومنها كان يخرج الأسطُولُ إلى الغزو ، وبها يُنْشَأُ أكثرُه لأنَّها دارُ إنْشاء ؛ وفى الجنوب منها جبلٌ عظيمٌ مستديرٌ ، تظهر من أعلاه جبالُ يابسةٍ فى البحر(١) .

ومن دانية أبو عمرو الدّانىُّ المقرئُ المعروفُ بابن الصَّيْرَفىّ ، له تواليف فى القراءات ، سمع بالأندلس من محمَّد بن عبد الله بن أبى زَمَنِين ، ووصل إلى المشرق ، فسمع من جماعةٍ ، توفّى بدانية سنة ٤٤٤ .

٧٤ — دَرُوقَة

مدينةٌ بالأندلس من عَمَل قَلْعَة أيُّوب ، عظيمةٌ فى سفح جبل ، وعلى مقربة منها كنيسةُ أبَرُونِيَة(٢) ، لها ثلاثمائة باب وستّون باباً ، وهى إحدى عجائب البنيات .

* وقيل بَيْنَ دروقة وبين قلعة أيُّوب ثمانية عشر ميلاً ، وهى مدينةٌ صغيرةٌ مختصرة ،

---

(١) ا ر ص ١٩٢ .   (٢) ت و ن « أبدونية » .

كثيرة العامر كثيرة البساتين والكروم ، وكلُّ شيء بها كثير رخيص ، وبيْنها وبيْنَ سَرَقُسْطة خمسون مِيلاً [١] .

٧٥ — دَلَايَة

قريةٌ بالأندلس من عَمَل المريّة .

(١) ا، ص ٢٨٩ .

حرف الراء

٧٦ — رُصَافَة

. . . ورُصَافَةٌ أُخرَى بقرطبة فى الجهــة الجوفيّة منها ، ورُصَافةٌ أُخْرَى ببلنسية بيْنها وبيْنَ البحر ، وأظنُّ منها الرُّصافىّ الشاعر ، مادح عبد المؤمن بن علىّ .

٧٧ — الرَّقِيم

. . . وفى الأندلس فى جهة إغْرَناطة ، بقرب قريةٍ تُسَمّى لَوْشة ، كهفٌ فيه مَوْتَى ، ومعهم كَلْبٌ رِمّةٌ ، وأكثرُهم قد انجرد لحْمُهُ ، وبعضُهم متماسكٌ ، وقد مضت القرون السالفة ولم نَجِدْ مَنْ علم شأنهم ، ويزعم أناسٌ أنّهُم أصحاب الكَهْف ، قال : ودخلتُ إليهم ورأيتهم سنة ٥٠٤ وهم بهذه الحالة ، وعليهم مسجدٌ ، وقريباً منهم بناء روميٌّ يُسَمّى الرّقيم ، كأنَّه قَصْر مُخَلَّق ، وقد بقى بعض جدرانه ، وهو فى فلاةٍ من الأرض خربةٍ ، وبأعلى حضرة إغرناطة مِمّا يَلِي القبلة آثارُ مدينةٍ روميّة يقال لها مدينة دَقيُوس ، وَجَدْنَا فى آثارها غرائبَ وقبُوراً .

٧٨ — رِكْلَة

مدينةٌ بالأندلس ، بقرب سَرَقُسْطَة وقَلْعة أيُّوب ، عاليةُ البنيان ، على وادى شَلُون ، وبساتينُها تُسقى منه ، ونزل بمدينة رِكْلَة فى أيّام بنى هُود بَرَدٌ عظيم ، حطم

أغصان شجر الكُمَّثرى حتى تركها جذوعاً دون أغصان ، وُجِدَ فى زِنَةِ واحد منها فى اليوم الثانى من نزوله ثلاثة أرطال بالبَغْدادىّ . فسبحانَ مَنْ له القدرة الباهرة !

٧٩ — رُنْدَة

بالأندلس من مُدُن تاكُرُنَّا ، وهى مدينةٌ قديمةٌ ، بها آثار كثيرةٌ ، وهى على نهر ينسب إليها ، واجْتُلِب الماء إليها من قريةٍ بشرقيّها ومن جَبَل طلوبرة بغربيّها ، فيوافى الماء داخلها من شرقيّها وغربيّها ، ويتوارى نهرُها فى غارٍ فلا تَرى جريتَه أميالاً ، ثمَّ يظهر حتى يَقَعَ فى نهر لَكُّه .

وبقرب مدينة رُنْدة عَيْنٌ تُعْرَف بالبراوة ، وتجرى من أوّل الربيع إلى آخر الصيف ، فإذا دخل الخريف نضب ماؤها فلا يفيض بقطرةٍ إلى أوّل الربيع من عامٍ ثانٍ .

٨٠ — ريمية

مدينةٌ بالأندلس تُعرف بمدينة بَنِى راشد ، بها أَنْشَامٌ عَادِيَةٌ ، يأوى إليها عقبان كثيرة فلا تؤذيهم فى شىء من دجاجهم ، وهى تأتى على ما فى سائر القُرَى المجاورة لها ، وإذا حَصَرَها الثلجُ هناك ومنعها من التصرُّف صَرْصَرَتْ من الجوع ، وأَرْمَقَتْ بأصواتها ، فيلقى لها أهلُ ريمية من فضولِ ما عندهم ، فتأكل وتسكت .

٨١ — رَيُّه

كورةٌ من كُوَر الأندلس ، فى قبلىّ قرطبة ، نزلها جُنْدُ الأُرْدُنّ من العرب ، وهى كثيرةُ الخيرات .

حرف الزاى

٨٢ – الزَّاهِرَة

مدينةٌ متَّصِلةٌ بقرطبة من البلاد الأندلسية ، بناها المنصورُ بن أبى عامر لمَّا استولى على دولة خليفته هشام .

قال ابن حَيَّان : كان الخليفة الحَكَم وقف من الأثر على البُقعة التى بُنِيَتْ فيها الزاهرةُ ، وكانَتْ ملوكُ المروانيَّة قبلَه تتخوَّف ذلك ، وكان اهتمَّ بشأنها الحَكَمُ ، فنظر فيها وقاس على جهاتها البقعة المدعوَّة بألَش (بفتح اللام) ، وهى بغربىِّ مدينة الزَّهْراء ، ووجد انتقال المُلْك إليها ، فأمر حاجبَه أبا أحمد المُصْحَفِىَّ بالسبق إلى بنائها ، طمعاً فى مزيَّة سعدها ، وألاَّ يخرجَ الأمرُ من يد ولده ، فأنفق عليها مالاً عظيما ؛ فمن الغرائب أنَّ محمَّد بن أبى عامر تولَّى له شأنَها ولا يُعْلَم يومئذٍ به ، ثمَّ وقع إلى الحَكَم أنَّ البقعة بغير ذلك المَوْضِع ، وأنَّها بشرقىِّ مدينة قرطبة ، فأنفذ رسولَه بالوقوف عليها ، فانتهى إلى منزل ابن بَدْر المسمَّى أُلُش (مضمومة اللام) ؛ وأصاب هناك عجوزاً مُسِنَّة وقفَتْه على حدِّ الارتياد وقالت له : سمعنا قديماً أنَّ مدينـةً تُبْنَى هنا ، ويكون على هذه البئر نزولُ مَلِكِها ، فكم سعى أمير المؤمنين بالسؤال عنها ، وأَمْرُ الله واقع لا مَحالة ! فعاد الرسولُ بالجليَّة ، فلم تطُلْ المدَّة حتى بناها محمَّد بن أبى عامر ، وبنى بأرجاء تلك البئر قرارَه .

قال الفَتْح بن خاقان[1] : لمـا استفحل أمرُه ، واتَّقد جمرُه ، وجَلَّ شأنه ، وظهر

(١) ما جاء بعده إلى آخر الترجمة نقله المَقَّرىُّ عن المطمح فى نفح الطيب (ج ١ ص ٣٨١ — ٣٨٣) ، وليس بموجود فى نسختى المطمح المطبوعة بالقسطنطينية والمطبوعة بمصر .

استبدادُه ، وكثر حُسّادُه ؛ وخاف على نفسه من الدخول إلى قصر السلطان ، وخشى أن يقع بِطالبه فى أشطان ؛ فتوثّق لنفسه ، وَكُشِف له ما سُتِر عنه فى أمْسه ؛ من الاعتزاز[1] عليه ، ورفض[2] الاستناد إليه ؛ وسما إلى ما سَمتْ إليه الملوك من اختراع قصرٍ ينزلُ فيه ، ويحلُّه بأهلِه وذَوِيه ؛ ويضمُّ إليه رياستَه ، ويتمُّ به تدبيره وسياستَه ؛ ويجمعُ فيه فتيانَه ، وغلمانَه ؛ ويحشر إليه صنائعه[3] . فارتاد موضع مدينته المعروفة بالزّاهِرَه ، الموصوفة بالمشيّدات الباهرَه[4] ؛ وأقامها بطرف البلد على نهر قرطبة الأعظم ، ونسق فيها كلّ اقتدار مُعْجِز ونظم[5] ؛ وشرَعَ فى بنائها سنة ٣٦٨ ، لحشر إليها الصُّنّاع والفَعَلَه ، وأبرزها بالذّهب واللازورد مُتوّجة مُنْعَلَه[6] ؛ وجلبَ نحوها الآلات الجليلَهْ ، وسربلها بهاءً يردُّ العيون كليلَهْ ؛ وتوسّع فى اختطاطها ، وتولّع بانتشارها فى البسيطة وانبساطها[7] ؛ وبالغ فى رفع أسوارِها ، وثابَرَ عَلَى تسوية أنجادها وأغوارها ؛ فاتّسَعت هذه المدينة فى المدّة القريبَه ، وصارَ بناؤها من الأبنية الغريبَه ؛ وبُنِىَ مُعْظَمُهَا فى عامَيْنِ . وفى سنة ٣٧٠ انتقل المنصور إليها ونزلها بخاصّته وعامّته ، فتبوّأها وشَحنها بجميع أَسْلِحَته ، وأمواله وَأَمْتِعَتِه[8] ؛ واتّخذ فيها الدواوين للعمّال ، ترتفعُ فيها ضروب الأعمال[9] ؛ والاصطبلات لأنواع الكراع وعمل داخلها الأهْرَاء ، وأطلق بساحتها الأرحاء ؛ ثمّ أقطع وزراءه وكُتَّابَه ، وقوّادَه وحُجّابَه ؛ القطائع الواسعَة فابتنوا بأكنافها كبار الدُّور ، وجليلات القصور ؛ واتّخذوا خلالَهَا المستغلاّت المُفيدَه ، والمَنَازِهَ المَشِيدَه ؛ فاتّسعت هذه المدينة

(١) ف : « الاعتذار » . (٢) مه : « رفع » . (٣) نه فى مه .

(٤) مه : « القصور » . (٥) نه فى ف . (٦) نه فى مه . (٧) نه فى مه .

(٨) نه فى ف ، وإنما : « وأوثق أبوابها وأتقن مصانعها » . (٩) مه : «بالدواوين والأعمال» .

فى المُدَّة القريبة[١] وقامت فيها الأسواق ، وكثرت فيها الأرزاق ؛ وَتَنَافَسَ الناس فى النزول بأكنافِها ، والحلول بأطرافِها ؛ للدُّنُوِّ من صاحب الدَّوْلَة ، وتناهى الغلوُّ فى البناء حولَهْ[٢] ؛ حتى اتّصلت أرباضُها بأرباض قرطبة ، وكان الفراغ منها فى سنة ٣٧٠ .

وفى هذه السنة نزل فيها بخاصّته ، وعامّته ؛ وخلع الخليفة إلاَّ من الاسم الخلافى ، *وصيَّر ذلك هو الرسم العافى[٣]] ؛ ورتَّبَ فيها جلوس وزرائِه ، ورؤوس أمرائِه ؛ وكتب إلى الأقطار بالأندلس والعدوة فى أن تُحمَلَ إلى مدينته تلك الأموال والجبايات[٤] ، ويقصدها أصحابُ الولايات ؛ فحشد إليها الناس من جميع الأقطار ، وحجرَ على خليفته كل تدبير ؛ واتّفق له ذلك بسرعة بطشِه ، وأقامَ الخليفة منذ نقل عنه الملك إلى قصر الزّاهرة مهجور الفنا ، محجور الغنا ؛ خفيَّ الذكر ، مسدود الباب ، محجوب الشخص ، لا يُخافُ منه بأس ولا يُرْجَى منه إنعام ، وليس له إلاَّ الرسم السُّلطانىُّ فى السكّة والدّعوة والاسم الخلافىّ ، وأزال أطماع الناس منه ، وصيَّرهم لا يعرفونه ، واشتدّ مُلكُه منذ نزلَ قَصْر الزّاهرة ؛ وتوسّع مع الأيّام فى تشييد أبنيتها ، وتجيد أفنيتها ؛ حتّى كملت أحسنَ كمال ، وجاءت فى نهاية الحسن والجمال ؛ وما زالت هذه المدينة رائقةً متناسقةَ السعود ، تُراوحها الفتوح وتغاديها ، لا توجَّه منها رايةٌ إلاَّ إلى فَتْح ، ولا يصدر عنها تدبير إلاَّ بنُجْح ؛ إلى أن حان يومُها المصيب ، وقُيِّضَ لها من المكروه أوفر نصيب ؛ فتولَّتْ فقيدَه ، وخَلَتْ من بهجتها كلُّ عقيدَه .

---

(١) ىه ف مو .   (٢) ىه ف ف .   (٣) ىه ف ف .

(٤) مو : « أموال الجبايات » .

٨٣ — الزُّقاق

بحر الزُّقاق وهو الداخل من البحر المحيط ، والذى عليه سَبْتة ، والذى يضيق من المشرق إلى المغرب حتَّى يكون عرضه ثمانية عشر ميلاً[١] ، وهو بساحل الأندلس الغربىّ بمكان يقال له الخَضْرَاء ، ما بيْن طنجة من أرض المغرب وبيْن الأندلس ، ثمَّ يتَّسع الزُّقاق كلَّما امتدَّ حتَّى يصير إلى ما لا ذرعَ له ولا نهاية ، وهو مَخْرَجُ بحر الرومِ المتصاعد إلى الشأم ، وسنذكر ذلك إن شاء الله عند ذكر سَبْتة .

وفى بعض الأخبار أنَّه قبل افتتاح المسلمين البلاد المصريَّة بمائة سنة ، طغى ماء البحر وزاد ، فأغرق القنطرةَ التى كانَتْ بيْن بلاد الأندلس وبيْن ساحل طَنْجة من أرض المغرب ، وكانَتْ قنطرة عظيمة لا يعلم لها فى المعمور نظيرٌ ؛ يقال إنَّها من بناء ذى القَرْنَيْن مبنيَّة بالحجارة ، عمرُّ عليها الإبل والدوابّ من ساحل المغرب إلى الأندلس ، وكان طولها اثنىْ عشر ميلاً ، فى عَرْضٍ واسعٍ وسموّ كبير ؛ ورُبَّما بدَتْ هذه القنطرةُ لأهل المراكب تحت الماء فعرفوها ، والناس يقولون : لا بُدَّ من ظهورِها قبْل فناء الدنيا .

٨٤ — الزَّلَّاقة

بَطْحَاء الزَّلَّاقة من إقليم بَطَلْيَوْس من غرب الأندلس ، فيها كانت الوقيعة الشهيرة للمسلمين على الطاغية عظيم الجَلالِقة إذْفُونْش بن فَرْذِلَنْد عهيد المعتمد محمَّد بن عبَّاد ، وكان ذلك فى الثانى عشر[٢] من رجب سنة ٤٧٩[٣] .

---

(١) صم : « ثلاثة أميال » (٢) فى جميع النسخ : « الموفى عشرين »

(٣) ما يأتى بعده نقله المقرى عن الروض المعطار باللفظ ماعدا القليل (راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٢٧٦ — ٢٨٦) ؛ ونقله بعده أحمد بن خالد الناصرىُّ السلاوىُّ فى تاريخه المسمي بكتاب « الاستقصاء » . (ط مصر ج ١ ص ١١١ — ١١٨) .

وكان السببُ فى ذلك فساد الصلح المنعقد بيْن الطاغية وبيْن المعتمد ؛ فإنَّ المعتمد اشتغل عن أداءِ الضريبة فى الوقت الذى صارَتْ عادتُه يؤدّيها فيه ، بغزو ابن صُمادِح صاحب المريّة ، واستنفاده ما فى يدَيْه بسبب ذلك ، فتأخَّر لأجل ذلك أداء الإتاوة عن وقتها ، فاستشاط الطاغية غضباً ، وتشطّط فطلب بعض الحصون زيادةً على الضريبة ، وأمعن فى التجنّى ، فسأل فى دخول امرأته القُمْطِيجَة إلى جامع قرطبة لتَلِدَ فيه من حملٍ كان بها ، حيث أشار إليــه بذلك القِسّيسُون والأَسَاقِفَة ، لمكانِ كنيسةٍ كانَتْ فى الجانب الغربىّ منه ، مُعَظَّمَةٍ عندهم ، عملَ المسلمون عليها الجامعَ الأعظم ؛ وسأل أن تنزل امرأتُه المذكورة بمدينة الزَّهْرَاء غربىَّ مدينة قرطبة ، تنزل بها فتختلف منها إلى الجامع المذكور ، حتّى تكون تلك الولادة بيْن طيب نسيم الزهراء ، وفضيلة ذلك الموضع الموصوف من الجامع ، وزعم أنَّ الأطِبّاء ، أشاروا عليه بالولادة فى الزهراء ، كما أشار عليه القِسّيسون بالجامع ، وسفر بذلك بَيْنَهما يهودىٌّ ، وكان وزيراً لابن فَرْذِلَنْد ، فتكلَّم بين يدَىْ المعتمد ببعض ما جاء به من عنــد صاحبه ، فأَيْأَسه ابنُ عبَّاد من جميع ذلك ، فأغلظ له اليهودىُّ فى القول ، وشافهه بما لم يحتمله ، فأخذ ابنُ عبَّاد محْبرةً كانتْ بيْنَ يدَيْه ، فأنزلها على رأس اليهودىّ ، فأَلقى دماغه فى حلقه ، وأمر به فصُلِب منكوساً بقرطبة .

واستفتى ابنُ عبَّاد الفُقَهاء لما سكت عنه الغضبُ ، عن حكم ما فعله باليهودىّ ، فبادَرَه الفقيهُ محمَّد بن الطلاَّع بالرخصة فى ذلك ، لتعدِّى الرسول حدودَ الرسالةِ إلى ما يستوجب له القتلَ ، إذ ليس له أن يفعل ما فعل ؛ وقال للفقهاء حين خرجوا : إنَّما بادَرْتُ بالفتوى خوفاً أن يكسلَ الرجلُ عمَّا عزم عليه من منابذة العدوِّ ، وعَسَى الله أن يجعل فى عزيمته للمسلمين فرجاً !

وبلغ الفُنْش ما صنع ابن عبّاد ، فأقسم بآلِهَتِه ليغزونّه بإشبيلية ، ويحصره فى قصره ؛ فجرّد جيشَيْن جعل على أحدهما كَلْباً من مساعِير كلابه وأمره أن يسير على كورة بَاجَة من غَرْب الأندلس ، ويغير على تلك التخوم والجهات ، ثمّ يمرّ على لَبْلَة إلى إشبيلية ، وجعل موعده إيّاه طَرْيَانَة للاجتماع معه ؛ ثمّ زحف ابن فَرْذِلَنْد بنفسه فى جيش آخر عرَمْرَم ، فسلك طريقاً غير طريق صاحبه ، وَكِلاَهما عَاثَ فى بلاد المسلمين وخرّب ودمّر ، حتى اجتمعا لموعدهما بضفّة النهر الأعظم ، قبالةَ قَصْر ابن عبّاد ، وفى أيّام مُقامِه هناك كتب إلى ابن عبّاد زارياً عليه : « كثُرَ بطول مقامى فى مجلسى الذبانُ ، واشتدّ علىَّ الحَرُّ ، فأَلْقِنِى من قَصْرِك بِمِرْوَحَةٍ أُرَوِّحُ بها على نفسى ، وأَطْرُدُ بها الذبابَ عنّى ! » فوقّع له ابن عبّاد بخطٍّ يده فى ظهر الرقعة : « قرأتُ كتابك ، وفهمتُ خيلاءك وإعجابَك ، وسأنظرُ لك فى مرَاوِحَ من الجلود اللّمْطِيّة ، فى أيدى الجيوش المُرَابِطِيّة ، تروّح منك ، لا تروّح عليك ، إن شاء الله ! » فلما تُرْجِم لابن فَرْذِلَنْد تَوْقيعُ ابن عبّاد فى الجواب ، أطرق إطْرَاقَ من لم يخطر له ذلك ببالٍ .

وفشا فى بلاد الأندلس خَبَرُ تَوْقيع ابن عبّاد ، وما أظهر من العزيمة على إجازة الصّحْرَاويّين والاستظهار بهم على ابن فَرْذِلَنْد ، فاستبشر الناس ، وفُتِحَت لهم أبواب الآمال ، وانفرد ابن عبّاد بتدبير ما عزم عليه من مداخلة يوسف بن تَاشُفِين ، ورأتْ ملوكُ الطوَائِفِ بالأندلس ما عزم عليه من ذلك ، فمنهم من كتب إليه ، ومنهم من شافَهَه . كلُّهم يُحَذِّرُهُ سوءَ عاقِبَةِ ذلك ، وقالوا له : المُلْكُ عقيمٌ ، والسيفان لا يجتمعانِ فى غِمْدٍ واحدٍ ! فأجابهم ابن عبّاد بكلمته السائرة مَثَلاً : رَعْيُ الجمال خيرٌ من رَعْى الخنازير ! أى أنّ كَوْنَهُ مأكولاً لابن تاشُفِين أسيرًا يرعى جِمَاله فى الصحْرَاء ، خيْرٌ من كونه مُمَزّقاً لابن فَرْذِلَنْد ، أسيرًا يرعى خنازيرَه فى قَشْتَالَة ؛ وكان

مشهوراً برزانة الاعتقاد . وقال لعذّاله ولوّامه : يا قوم أنا من أمري على حالتَيْن ، حالة يقين وحالة شكٍّ ، ولابدّ لي من إحداهما ؛ أمّا حالة الشكّ فإنّي إن استندتُ إلى ابن تاشفين أو إلى ابن فَرْذِلَنْد ففي المُمكن أن يَفِيَا لي ويُبْقِيَا عليّ ، ويمكن ألاّ يفعلا ؛ فهذه حالة الشكّ . وأمّا حالة اليقين ، فهي أنّي إن استندتُ إلى ابن تاشُفين فأنا أرضي الله ، وإن استندتُ إلى ابن فَرْذِلَنْد أَسخطتُ الله ، فإذا كانتْ حالة الشكّ فيها عارضةً فلأيّ شيءٍ أدع ما يُرضي الله وآتي ما يسخطه !وحينئذ أَقْصَرَ أَصحابُه عن لومه .

فلما عزم خاطب جارَيْه المتوكّل عمر بن محمّد صاحبَ بَطَلْيَوْس ، وعبد الله بن حَبُّوس ابن ماكْسَن الصُّنْهَاجيّ صاحبَ إِغرَناطة ، يأمرُهُما أَنْ يبعثَ إليه كلُّ واحدٍ منهما قاضيَ حضرته ، ففعلا ؛ ثمّ استحضر قاضي الجماعة بقرطبة أبا بكر عُبَيْد الله بن أَدْهَم ، وكان أَعْقلَ أهل زمانه ؛ فلما اجتمع القُضَاةُ عنده بإشبيلية ، أضاف إليهم وزيرَه أبا بكر ابن زَيْدُون ، وعرّفهم أربعتَهم أنّهم رُسُلُه إلى يوسف بن تَاشُفين ، وأَسْنَدَ إلى القضاة ما يليق بهم من وعظِ يوسف ، وترغيبه في الجهاد ؛ وأسند إلى ابن زيدون ما لابدّ منه في تلك السفارة ، من إبرام العقود السلطانيّة . وكان يوسف بن تاشُفين لا تزال تَفِدُ عليه وفودُ ثغور الأندلس ، مستعطفين ، مجهشين بالبكاء ، ناشدين الله والإسلام ، مستنجدين بفُقَهاءِ حضرته ، ووزراء دولته ، فيستمع إليهم ، ويصغي لقولهم ، وترقّ نفسُه لهم ؛ فما عبرتْ رُسُلُ ابن عبّاد البحرَ إلاّ ورُسُل يوسف بالمرصاد ؛ وقد آذن صاحب سَبْتة بقصده الغزو ، وتشوّقه إلى نصرة أهل الإسلام بالأندلس ، وسأله أن يخلي الجيوش تجوز في المجاز ؛ فتعذّر عليه ، فشكاه يوسف إلى الفقهاء ، فأَفْتَوْا أجمعين بما لا يَسُرُّ صاحب سَبْتة .

ولما انتهت الرُّسُلُ إلى ابن تاشُفين أقبل عليهم ، وأكرم مثواهم ، وجدّدوا الفتوى

فى حقّ صاحب سَبْتة ، واتصل ذلك بابن عبّاد ، فوجّه من إشبيلية أُسطولاً نحو صاحب سبتة ، فانتظمَتْ فى سلك يوسف ، ثمّ جرَتْ بينه وبين الرُّسُل مراوضات ، ثمّ انصرفت إلى مُرْسِلِها .

ثمّ عبر يوسفُ البحر عبوراً هنيئاً ، حتى أتى الجزيرةَ الخضراء ، ففتحوا له ، وخرج إليه أهلها بما عندهم من الأقوات والضيافات ، وجعلوا سِماطاً أقاموا فيه سوقاً ، جابوا عليه من عندهم من سائر المرافق ، وأذنوا للغزاة فى دخول البلد ، والتصرُّف فيها ، فامتلأت المساجد والرحبات بضعفاء المُطَّوِّعين وتواصَوْا بهم خيراً .

فلما عبر يوسف وجميع الجيوش ، انزعج إلى إشبيلية على أحسن الهيئات ، جيشاً بعد جيش ، وأميراً بعد أمير ، وقبيلاً بعد قبيل ؛ وبعث المعتمدُ ابنَه إلى لقاء يوسف ، وأمر عُمَّار البلاد بجلب الأقوات والضيافات ، ورأى يوسف من ذلك ما سرّه ونَشَّطه ، وتَوَارَدَت الجيوشُ مع أُمرائها فى إشبيلية ، وخرج المعتمدُ إلى لقاء يوسف من إشبيلية فى مائة فارسٍ ووجوه أصحابه ، فأتى محلّةَ يوسف فركض نَحْوَ القوم وركضوا نَحْوَهُ ، فبرز إليه يوسف وحده ، والتَقَيا منفردَيْن ، وتصافَحَا وتعانَقا ، وأظهر كلٌّ واحدٍ منهما المودَّة والخلوص ، فشكرا نعم الله ، وتواصيا بالصبر والرحمة ، وبشرا نفسهما بما استقبلاه من غزو أهل الكفر ، وتضرَّعا إلى الله تعالى فى أن يجعل ذلك خالصاً لوجهه ، مقرِّباً إليه وافترقا ؛ فعاد يوسفُ لمحلّته ، ورجع ابن عبّاد إلى جهته ، ولحق بابن عبّاد ما كان أَعَدَّه من هَدَايا وتُحَفٍ وألطافٍ ، أوسع بها محلّة ابن تاشفين . وباتوا تلك الليلة . فلمّا صَلَّوُا الصبح ركب الجميعُ ؛ وأشار ابن عبّاد على يوسف بالتقدُّم إلى إشبيلية ، ففعل ، ورأى الناس مِن عِزّة سلطانه ما سَرَّهم ؛ ولم يبْقَ من ملوك الطوائف بالأندلس إلاّ من

بادَرَ وأعان وخرج وأخرج ؛ وكذلك فعل الصَّحْراويُّون مع يوسف بكلّ صقعٍ من أصقاعه ، رابطوا وصابروا .

ولما تحقّق ابن فَرْذِلَنْد جوازَ يوسف ، استنفر جميعَ أهل بلاده وما يليها ، وما وراءها ، ورفع القِسّيسُون والرُّهْبانُ والأَسَاقفةُ صلبانَهم ، ونشروا أناجيلَهم ، فاجتمع له من الجَلاَلِقَةِ والإفرَنْجَةِ وما يليهم ما لا يُحصى عدده ؛ وجعل يصغى على أنباء المسلمين متغيظا على ابن عبّاد جافياً ذلك عليه ، متوعّداً له . وجواسيسُ كلّ فريقٍ متردّدون بين الجميع ، وبعث ابن فَرْذِلَنْد إلى ابن عبّاد : إنّ صاحبَكم يوسفَ قد تعنّى من بلاده ، وخاض البحورَ ، وأنا أكفيه العناء فيما بقى ، ولا أكلفكم تعباً ، أَمْضِى إليكم ، وأَلْقاكم فى بلادكم ، رفقاً بكم ، وتوفيرًا عليكم . وقال لأهل ودّه ووزرائه : إنّى رأيتُ إنْ أَمْكَنْتُهُم من الدخول إلى بلادى ، فناجَزُونى بين جدرها ، وربّما كانت الدائرة عَلَىّ ، فيكتسحون البلادَ ، ويحصدون مَنْ فيها فى غداةٍ ؛ لكن أجعلُ يومهم معى فى حوز بلادهم ، فإنْ كانَتْ عَلَىَّ اكْتَفَوْا بما نالوه ، ولم يجعلوا الدُّرُوبَ وراءهم إلاّ بعد أهبةٍ أُخْرى ، فيكون فى ذلك صونٌ لبلادى ، وجبرٌ لمكاسرى ! وإن كانت الدّائرة عليهم كان منى فيهم وفى بلادهم ما خِفْتُ أنا أنْ يكون منهم فىّ وفى بلادى إذا ناجزونى فى وسطها !

ثمّ برز بالمختار من أنجاد جموعه على باب دَرْبه ؛ وترك بقيّة جموعه خلْفَه ، وقال حين نظر إلى ما اختاره من جموعه : بهؤلاء أُقَاتِلُ الجنَّ والإنسَ وملائكةَ السماء ، فالمُقلِّلُ يقول : كان هؤلاء المختارون من أجناده أربعين ألف دارع ، ولا بُدَّ لِمَنْ هذه صِفَتُهُ أنْ يتبعَه واحد أو اثنان ، وأمّا النصارى فيتعجّبون مِمَّنْ يزعم ذلك ويقوله . واتّفق الكلُّ أنّ عدّة المسلمين كانت أقلّ من عدّة المشركين . ورأى ابن فَرْذِلَنْد فى نومه كأنّه

راكبٌ على فيلٍ ، فضرب نقيرة طبْلٍ فهالَتْه رُؤْياه ، وسأل عنها القسوس والرهبان فلم يُجِبْهُ أحدٌ ؛ ودَسَّ يهوديًّا إلى من يعلم تَأْوِيلَها من المسلمين ، فَدُلَّ على عابر فقصّها عليه ، ونسبها إلى نفسه ، فقال له العابر : كذبت ! ما هذه الرؤْيا لك ، ولا بدّ أن تخبرني مَن صاحبها وإلاّ لم أعبرْها لك ! فقال له : اكتمْ ، ذلك هو الفُنْش بن فَرْذِلَنْد ! فقال العابر : قد علمتُ أنها رُؤْياه ولا ينبغي أن تكون لغيره ، وهي تدلُّ على بلاءٍ عظيمٍ ، ومصيبةٍ فادحة ، تُؤْذِن بصَلْبه عما قريب ، أمّا الفِيل فقد قال الله تعالى : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ »[1] السورة ، وأما ضرب النقيرة فقد قال الله تعالى : « فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ »[2] الآية ؛ فانصرف اليهوديُّ إلى ابن فَرْذِلَنْد وجَمْجَمَ له وذكر له ما وافق خاطره ولم يفسرها له .

ثمّ خرج ابن فَرْذِلَنْد ووقف على الدُّرُوب ، ومَالَ بجيوشه إلى الجهة الغربيّة من بلاد الأندلس ، فتقدم يوسف فقصده ، وتأخر ابن عبّاد لبعض الأمر ، ثمّ انزعج يقفو إثره بجيش فيه حُمَاةُ الثغور ، ورُؤَساءُ الأندلس ، وجعل ابنَه عبد الله على مُقَدِّمته ، وسار وهو يتفاءل لنفسه ، مكمِّلاً البيت المشهور [كامل] :

لا بدَّ من فرج قريب   يأْتيك بالعجب العجيب
غزوٌ عليك مباركٌ   سيعود بالفتح القريب
لله سعدك إنّه   نكسٌ على دين الصّليب
لا بدَّ من يوم يكو   ن أخًا له يومُ القليب

ووافتِ الجيوشُ كلُّها بَطَلْيَوْس ، فأناخوا بظاهرها ، وخرج إليهم صاحبُها

(١) قرآن كريم : ١٠٥ — ١ .   (٢) قرآن كريم : ٧٤ — ٨ و ٩ .

المُتوَكِّلُ عُمَر بن محمد فلقيَهم بما يَجِبُ من الأقوات والضيافات ، وبذل مجهودَه ، ثمّ جاءهم الخبرُ بشخوص ابن فَرْذِلَنْد إليهم ، ولما ازدلف بَعضهُم إلى بَعْضٍ ، أذكى المعتمدُ عيونَه فى محلّات الصحراويّين خوفًا عليهم من مكايد ابن فَرْذِلَنْد ، إذْ هُمْ غُرَباء لا علم لهم بالبلاد ، وجعل يتولَّى ذلك بنفسه حتّى قيلَ إنّ الرجل من الصحراويّين كان يخرج عن طُرُق محلاّتهم لبعض شأنه ، أو لقضاء حاجته ، فيَجدُ ابن عبّاد بنفسه مُطِيفًا بالمحلّة بعد ترتيب الكَرَادِيس من خَيْلٍ على أفْوَاه طُرُق محلاّتهم ؛ فلا يكاد الخارجُ منهم عن المحلّة يخطىُ إذ ذاك من لقاء ابن عبّاد لكثرة تَطْوَافه عليهم .

ثم كتب يوسفُ إلى ابن فَرْذِلَنْد يدعوه إلى الإسلام أو الجزية أو يأذن بحربه فامتلأ غيظًا وعتا وطغا ورَاجَعَه بما يدلُّ على شقائه ، وقامت الأساقفةُ والرهبانُ فرفعوا صلبَهم ، ونشروا أناجيلَهم ، وخرجوا يتبايعون على الموت ؛ ووعظ يوسف وابن عبّاد أصحابهما ، وقام الفقهاء والعُبّاد يعظون الناس ويحضُّونهم على الصبر ، ويحذرونهم الفرار ؛ وجاءهم الطلائع بخبر أنّ العدوّ مُشْرِفٌ عليهم صبيحةَ يومهم ، وهو يوم الأربعاء ، فأصبح المسلمون قد أخذوا مَصَافَّهم ، فكَعَّ ابن فَرْذِلَنْد ورجع إلى إعمال الخديعة ، ورجع الناسُ إلى محلاّتهم ، وباتوا لَيْلَتَهم ، ثم أصبح يومُ الخميس فأخذ ابن فَرْذِلَنْد فى إعمال الحيلة ، فبعث لابن عبّاد يقول : غداً يوم الجمعة وهو عيدُكم ، وبعده الأحَد وهو عيدَنا فليكنْ لقاؤنا بينهما وهو يومُ السبت ! فعَرّف المعتمدُ بذلك يوسفَ ، فقال : نعم ! فقال له المعتمد : هذه خديعةٌ من ابن فَرْذِلَنْد ! إنما يريد غدرَ المسلمين ! فلا تطمئنَّ إليه ، وليكنْ النّاس على استعدادٍ له طولَ يوم الجمعة كلّ النهار ! وبات الناس ليلَتهم على أهْبةٍ واحتراسٍ بجميع المحلاّت ، خائفين من كيد العدوّ ، وبعد مضىّ جزء من الليل انتبه

الفقيه الناسك أبو العبّاس أحمد بن رُمَيْلة القرطبيّ (وكان فى محلّة ابن عبّاد) فرحاً مسروراً ، يقول إنّهُ رأى النبيّ (صلعم) فبشّره بالفتح والشهادة له فى صبيحة غدٍ وتأهّبَ وَدعَا وَدَهَنَ رَأسه وتَطيّب ، وانتهى ذلك إلى ابن عبّاد ، فبعث إلى يوسف يخبّره بها تحقيقاً لما توقّعه من غدر ابن فَرْذِلَنْد ، فحذروا أجمعين ، ولم ينفع ابن فَرْذِلَنْد ما حاوله من الغدر .

ثمّ جاء فى الليل فارسَانِ من طلائع المعتمد ، يخبران أنّهما أشرفا على محلّة ابن فَرْذِلَنْد وسمعا ضوْضاءَ الجيوش ، واضطرابَ الأسْلِحة . ثمّ تلاحَقَ بقيّةُ الطلائع محقّقين بتحرّك ابن فَرْذِلَنْد ، ثمّ جاءت الجوَاسِيسُ من داخِل محلّة ابن فَرْذِلَنْد يقولون : استرقنا السمعَ الساعةَ فسمعنا ابن فَرْذِلَنْد يقول لأَصحابه : ابن عبّاد مسعرُ هذه الحروب ، وهؤلاء الصحراويّون ، وإنْ كانوا أهْلَ حفاظٍ وَذَوى بصائرَ فى الجهاد ، فهم غير عارفين بهذه البلاد ، وإنّما قادَهُم ابنُ عبّاد ، فاقصدوه واهجموا عليه ، واصبروا ، فان انكشفَ لكم هان عليكم الصحراويّون بعده ، ولا أرى ابنَ عبّاد يصبر لكم إن صدقتموه الحملةَ ! وعند ذلك بعث ابنُ عبّاد كاتبه أبا بكر بن القصيرة إلى يوسف يعرّفه بإقبال ابن فَرْذِلَنْد ، ويستحثّ نُصْرَتَه ، فمضى ابن القَصِيرة يطوى المحلاّت حتّى جاء يوسفَ بن تاشُفين ، فعرّفه بجليّة الأمر ، فقال له : قُلْ له إنّى سأقرب منك إن شاءَ اللهُ تعالى . وأمرَ يوسف بعضَ قُوّاده أنْ يمضى بكتيبةٍ رسمها له حتّى يدخل محلّة النصارى فيضرمَها ناراً ، ما دام ابن فَرْذِلَنْد مُشتغلاً مع ابن عبّاد .

وانصرف ابن القَصِيرة إلى المعتمد ، فلم يَصِلْهُ إلاّ وقد غَشِيَتْهُ جُنودُ ابن فَرْذِلَنْد ، فصدمَها ابن عبّاد صدمةً قطعت آمالَهُ ، ولم ينكشِفْ له ، فحميت الحربُ بينهما ، ومال ابن فَرذِلَنْد على المعتمد بجموعه ، وأحاطوا به من كلّ جهةٍ فاستحرّ القتلُ فيهم ،

وصبر ابن عبّادٍ صبراً لم يعهد مثله لأحد ، واستبطأ يوسفَ وهو يلاحِظُ طريقَه ، وعضّتْه الحرْب ، واشتدَّ البلاء ، وأبطأ عليه الصحراويُّون ، وساءتْ ظنونُ أصْحابه ، وانكشف بعضُهم ، وفيهم ابنُه عبد الله ، وأُثخِنَ ابنُ عبّاد جراحات ، وضُرِب على رأسه ضربة فلقَتْ هامتَه ، حتّى وصلَتْ إلى صدغَيْه ، وجرحَتْ يُمْنى يدَيْه ، وطُعِنَ فى أحدِ جانِبَيْه ، وعُقِرَتْ تَحْتَهُ ثلاثةُ أَفراس ، كلّما هلك واحدٌ قُدِّم له آخَر ، وهو يقاسى حياضَ الموت ، ويضرب يميناً وشمالاً ، وتذكّر فى تلك الحالة ابناً له صغيراً ، كان مغرماً به ، تركه بأشبيلية عليلاً ، إسمه العَلاَء ، وكُنْيَتُهُ أبو هَاشِم ، فقال [متقارب] :

أباهَاشِم هشمَتْنى الشِّفارْ ... ولله صبرى لذاك الأُوَارْ
ذكرتُ شُخَيْصَكَ تحت العجاج ... فلم يثننى ذكره للفرارْ

ثمّ كان أوّل من وافى ابن عبّاد ، من قوّاد ابن تاشُفين ، داود بن عائشة ، وكان بطَلاً شَهْماً ، فنُفِّس بمجيئه عن ابن عبّاد ؛ ثمّ أقبل يوسف بعد ذلك ، وطبوله تصدع الجوّ ، فلما أبصره ابن فَرْذِلَنْد وَجّه أُشْكُولَتَهُ إليه ، وقصده بمعظم جنوده ، وقد كان عمل حساب ذلك من أوّل النهار ، وأَعَدّ له هذه الأُشْكُولَة ، وهى معظمُ جنوده ، فبادَرَ إليه يوسف وصدمهم بجمعه فردّهم إلى مركزهم ، وانتظم به شمل ابن عبّاد ، ووجد ريح الظفر ، وتباشَرَ بالنّصر ، ثمّ صدقوا جميعاً الحملة ، فتَزَلْزَلَتِ الأرضُ بحوافرِ خَيْلِهِم ، وأظلم النّهارُ بالعجاج والغبار ، وخاضت الخيلُ فى الدماء ، وصبرَ الفريقانِ صبراً عظيماً ؛ ثمّ تراجع ابن عبّاد إلى يوسف وحمل معه حملةً نزل معها النّصرُ ، وتراجع المنهزمون من أصحاب ابن عبّاد حين علموا بالتحام الفِئَتَيْن ، فصدقوا الحملة ، فانكشف الطاغية ، ومرّ هارباً مُنهزِماً ، وقد طعن فى إحدى رُكبتَيْه طعنةً بقى أثرها بقيّة عمرِه ، فكان

يجمع منها ، فلجأ إلى تَلٍّ كان يَلِي محلَّته فى نحو الخمسمائة فارس كلُّهم مكلوم ، وأبادَ القتلُ والأسرُ مَن عداهم من أصحابهم ، وعمل المسلمون بعد ذلك من رؤوسهم صوامِعَ يُؤَذِّنون عليها ، وابن فَرْذِلَنْد ينظر إلى موضع الوقيعة ومكان الهزيمة ، فلا يرى إلاَّ نَكالاً مُحيطاً به وبأصحابه .

وأقبلَ ابنُ عبّاد على يوسف فصافحهُ وهنَّأهُ وشكره وأثنى عليه ، وشكر يوسُفُ مقامَه ، وحُسْنَ بلائِه وجميلَ صبره ، وسأله عن حاله عندما أسلمَتْه رجالُه بانهزامهم عنه فقال : هُمْ هؤلاء قد حضروا بين يَدَيْك فليخبروك ! ولما انحاز الطاغية بشرذمته ، جعل ابن عبّاد يحرِّض على اتباع الطاغية ، وقطع دابره ، فأبى ابن تاشُفين واعتذر بأن قال : لو اتّبعناهُ اليومَ لقِيَ فى طريقِهِ أصحابنا المنهزمين راجعينَ إلينا منصرفين ، فيهلكهم ؛ بل نصبر بقيّةَ يومنا حتَّى يرجع إلينا أصحابُنا ، ويجتمعوا بنا ، ثمَّ نرجع إليه فنحسم داءه . وابن عبَّاد يرغب فى استعجال إهلاكه ويقول : إن فرَّ أمامنا لقيه أصحابنا المنهزمون فلا يعجزون عنه ! ويوسف مُصِرٌّ على الامتناع من ذلك . ولما جاء الليل تسلَّل ابن فَرْذِلَنْد وهو لا يلوى على شىء ، وأصحابه يتساقطون فى الطريق واحداً بعد واحدٍ من أثر جراحهم ، فلم يدخُلْ طليطلة إلاّ فى دون المائة .

وتكلَّم الناس فى اختلاف ابن عبَّاد وابن تاشُفين ، فقال شِيَعُ ابن عبَّاد : لم يخفَ على يوسُفَ أنّ ابن عبَّاد أصاب وجه الصواب والرأى فى معاجلته ، لكن خاف أن يهلك العدوّ الذى من أجله استدعاه فيقع الاستغناء عنه ! وقالت شِيَعُ يوسف : إنما أراد ابن عبّاد قَطْعَ حبالِ يوسف من العَوْد إلى جزيرة الأندلس ! وقال آخرون : كلا الرَّجُلَيْن أَسَرَّ حَسْوًا فى ارْتِغَاء ، وإن كان ابن عبَّاد أحْرَى بالصواب .

وكتب ابن عبّاد إلى ابنه بإشبيلية : كِتابى هذا من المحلّة يوم الجمعة الموفى عشرين من رَجَب وقد أعزّ الله الدين ، ونصر المسلمين ، وفتح لهم الفتح المُبين ؛ وأذاق المشركين العذاب الأليم ، والخطب الجسيم ؛ فالحمد لله على ما يسّره وسناه من هذه الهزيمة العظيمة ، والمسرّة الكبيرة ، هزيمة إذفُونْش أصلاه الله نكال الجحيم ، ولا أعدمه الوبال العظيم . بعد إتيان النهب على محلّاته ، واستئصال القتل فى جميع أبطاله وأجناده ، وحُمَاته وقوّاده . حتّى اتّخذ المسلمون من هاماتهم صوامعَ يؤذّنُون عليها ، فلله الحمدُ على جميل صنعه ، ولم يصبْنى بحمد الله تعالى إلاّ جراحات يسيرة أَلَمَتْ ، لكنها فرجَتْ بعد ذلك ، وغنمتُ وظفرتُ .

ولما فرغ يوسف من وقيعة يوم الجمعة ، تواردَتْ عليه أنباء من قِبَل السفن ، فلم يجد معها بدًّا من سرعة الكرّة ، فانصرف إلى إشبيلية ، فأراح بظاهرها ثلاثة أيام ، ونهض نحو بلاده ، ومشى ابن عبّاد معه يومًا وليلةً . فعزم عليه يوسف فى الرجوع ، وكانت جراحاته تَثْعَبُ وتَوَرَّمَ كَلْمُ رأسه ، فرجع وأمر ابنه بالمسير بين يدَيْه إلى فرضة المجاز حتى يعبر البحر إلى بلده .

ولما دخل ابن عبّاد إشبيلية جلس للناس وهُنِّئَ بالفتح ، وقرأت القُرّاء ، وقامَتْ على رأسه الشعراء فأنشدوه . قال عبد الجليل بن وهْبُون : حضرتُ ذلك اليوم ، وأعددتُ قصيدةً أُنْشِدُهُ إياها ، فقرأ القارئ : « إلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نصَرَهُ اللهُ »(١) فقلتُ : بُعْدًا لى ولشعرى ! واللهِ ما أبقَتْ لى هذه الآيةُ معنًى أحضره إليه ، وأقوم به .

واستشهد فى ذلك اليوم جماعةٌ من أعيان الناس ، كابن رُميلة المتقدّم الذكر ،

---

(١) قرآن كريم : ٩ — ٤٠ .

وقاضي مرَّاكُش أبي مروان عبد الملك المصموديّ وغيرهما . وطار ذِكْرُ ابن عبَّاد بهذه الوقيعة ، وشهد مجده ، ومالت إليه القلوب ، وسالمتْه ملوكُ الطوائف ، وخاطبوه جميعاً بالتهنئة ، ولم يزل ملحوظاً معظَّما إلى أن كان من أمره مع يوسف ما كان .

قال مؤلف هذا الكتاب رحمة الله تعالى عليه : قد خالَفْتُ بشرح هذه الوقيعة شرط الاختصار لحلاوة الظفر في وقت نزول الهموم ، ووقوعها في الزمن الخامل ، والله سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء وهو المستعان !

٨٥ — الزَّهْرَاء

مدينة في غربيّ قرطبة ، بناها الناصر عبد الرحمن بن محمَّد ، كذا قالوا ، ولا أدرى أهِيَ الزاهرة المتقدّمة الذكر ، أو غيرها ؛ وبينها وبين قرطبة خمسة أميال .

* وكانت قائمةَ الذات بأسوارها ، ورسوم قصورها ، وكان فيها قومٌ سُكَّان بأهاليهم وذراريهم ، وكانت في ذاتها عظيمة ، مدرجة البنية ؛ وهي مدينةٌ فوق مدينةٍ ، سطحُ الثُّلُثِ الأَعْلَى على الحدِّ الأوسط ، وسطحُ الثُّلُثِ الأوْسط على الثُّلُثِ الأسفل ، وكلُّ ثُلُثٍ منها له سورٌ ، فكان الحدّ الأعلى منها قُصُوراً يعجز الواصفون عن وصفها ، والحدُّ الأوسط بساتينَ وروضات ، والحدُّ الأسفلُ فيه الديار والجامع[١] ، ثمَّ خَرِب ذلك كلُّه ، وأصابَهُ ما أصابَ قرطبةَ وغيرها من بلاد موسطةالأندلس ، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون .

(١) ا و ص ٢١٢ .

حرف السين

٨٦ — سَرَقُسْطَة

فى شَرْق الأندلس ، وهى المدينة البيضاء .

* وهى قاعدةٌ من قواعد الأندلس ، كبيرة القطر ، آهلة ، ممتدّة الأطناب ، واسعة الشوارع ، حسنة الديار والمساكن ، متّصلة الجنّات والبساتين ، ولها سورُ حجارةٍ حصينٌ ، وهى على ضفّة نهرٍ كبيرٍ ، يأتى بعضُه من بلاد الروم ، وبعضُه من جبال قلعة أيُّوب ومن غير ذلك ؛ فتجتمع مَوَادُّ هـذه الأنهار كلّها فوق مدينة تُطيلَة[١] ، ثمّ تنصبُّ إلى مدينة سرقسطة ؛ ومدينة سرقسطة هى المدينة البَيْضَاء ، وسُمّيت بذلك لكثرة جصّها وجيّارها ؛ ومن خَوَاصّها أنّها لا تدخلها حيّةٌ ألبتّة ، وإنْ جُلبت إليها ماتَتْ[٢] ؛ فمن الناس من يزعم أنّ فيها طِلَسْماً لذلك ، ومنهم من يقول إنَّ أكثر بُنْيَانها من الرخام الذى هو صنفٌ من الملح الدرانىّ ؛ ومن خاصّيتها ألاّ تدخل الحناش موضعاً يكون فيه ، وكذا بأقاليم عدّة .

* ولسرقسطة جِسْرٌ عظيمٌ يجاز عليه إلى المدينة ، ولها أسوارٌ منيعة ، ومَبَانٍ رفيعة[٣] .

واسمها مُشْتَقٌّ من اسم قَيْصَر ، وهو الذى بناها ، وذُكر أنّها بُنيت على مثل الصليب وجعل لها أربعة أبواب : بابٌ إذا طلعت الشمسُ من أقصى المطالع فى القيظ قابلَتْه عند بزوغها ، فإذا غربَتْ قابلَتْ البابَ الذى بإزائه من الجانب الغربىّ ، وبابٌ إذا

---

(١) ش : « ملطية » .   (٢) ا و س ١٩٠ .   (٣) ا و س ١٩٠ .

طلعت الشمس من أقصى مطالعها فى الشتاء قابلَتْه عند بزوغها وهو البابُ القِبْلىّ ؛ وإذا غربَتْ قابلَت البابَ الذى بإزائه من الجانب الغربىّ .

وهذه المدينة على خمسة أنْهار . وسرقسطة واسعةُ الخطّة لا تعرف بالأندلس مدينةٌ تشبهها ، وقيل تُعْرَف بالبَيْضاء لأنَّ أسوارَها القديمة من حَجَر الرّخام الأبيض ؛ وكان الذى بنى المسجد الجامع بسرقسطة ووضع محرابَه حَنَشُ بن عبد الله الصَّنْعَانىُّ ، فلمّا زِيدَ فيها ، هُدِمَ الحائطُ القِبْلِىّ ، غير المحراب ، فإنَّه أُحتفِرَ من جوانبه حتَّى انتُهِىَ إلى قواعده ، فأُعمِلَت الحيلة فى حمله على الخشب وجَرِّه[1] إلى الموضع الذى هو فيه اليومَ ؛ فتصدَّع وبُنِىَ عليه وحوالَيْه البناء الذى هو باقٍ إلى الآن ؛ وتوفّى حَنَشٌ هذا وعلىُّ بن رَبَاح اللخمىُّ ، وهما من جلّة التابعين ، بمدينة سرقسطة ، وقبراهما فيها معروفان بمقبرة باب القِبْلة ، وكان بعضُ مَنْ مضى من الملوك أراد أن يتّخذ عليهما مَشْهَداً ، ويبنى فوقهما مَصْنَعاً ، فلمّا اعتزم ذلك أتَتْه امرأةٌ معروفةٌ بالصلاح والأمانة ، موسومةٌ بالعدالة ، فأخبرتْه أنَّها رأَتْهُمَا فيما يَرَى النائمُ . وأخبرَاها أنَّهما يكرهانِ أنْ يُبْنَى على قبرهما شىءٌ . فرجع عن ذلك الأمرِ الذى كان هَمَّ به .

ومدينة سرقسطة أطيبُ البلدان بقعةً ، وأكثرها ثمرة ، لكثرة الفواكه فى بساتينهم ، حتَّى لا يقوم ثمنها بمؤنة نقلها لرخصها . فيتّخذونها سِرْجيناً[2] يُدَمِّنُونَ به أرْضَهم ؛ ورُبَّما بِيعَ فيها وَسْقُ القارب من التفّاح بما تُباع به الأرْطال اليسيرة فى غيرها . ومِمّا خصَّتْ به سرقسطة مَعْدِنُ الملح الدرانىّ ، الذى لا يُوجدَ مثلُه فى مكانٍ ، ولا يُعدل به .

وأَخَذَ النصارى سرقسطة من يد المسلمين سنة ٥١٢ ، بعد أن حاصروها تسعةَ أشهرٍ ،

(١) ش : « وجريه » . (٢) ش : « سرجيا » .

صُلْحاً ؛ خرج إليها الإفْرَنْجُ فى خمسين ألف راكب ، وابن رُذْمِير فى جملةٍ أُخْرى ، أَعَادَهَا الله للإسلام بفضله .

ومن سرقسطة قاسمُ بن ثابِت صاحب كتاب الدلائل ، بلغ فيه الغاية من الإتقان ومات قبل أن يكمله ، وأكمله أبوه ثابتٌ بعده . وكان قاسم ورِعًا فاضلاً ، وأُريد على أن يَلِيَ قضاء سرقسطة ، فأَبى من ذلك ، فأراد أبوه إكراهَه على ذلك ، فسأله أن يتركه ثلاثة أيام حتَّى ينظر فى أمره ، ويستخير الله تعالى ، فمات فى هذه الثلاثة الأيّام . فيُرْوَى أنّه دعا لنفسه بالموت ، وكان يقال إنّه مُجَابُ الدعوة ، توفّى بسرقسطة سنة ٣٠٢ .

٨٧ — سَمُّورَة

هى دارُ مَمْلَكةِ الجَلالِقة ، على ضفَّة نهرٍ كبيرٍ جدًّا ، خرَّارٍ ، كثيرِ الماء ، شديدِ الجريةِ ، عميقِ القعر . وبين سَمُّورة وبين البحر ستُّون ميلاً .

* وسمُّورة مدينةٌ جليلةٌ ، قاعدةٌ من قواعد الروم(١) ، وعليها سبعة أسوار من عجيب البنيان ، وقد أحكمَتْه الملوكُ السالفة ، وبين الأسوار فُصْلان وخنَادِق ومياهٌ واسعة . وقد كان عبد الرحمٰن بن محمّد الخليفة الأَمَوِيُّ بالأندلس غزَا سنة ٣٢٧ فى أزْيَد من مائتَىْ ألف من الناس ، فنزل على دار مملكة الجَلالِقَة ، وهى سَمُّورة هذه ، وكان أشدَّ ما على أهل الأندلس من الأُمَم المحاربة لهم الجَلاَلِقة ، كما أنَّ الإفْرَنْجَة حَرْبٌ لهم ، غير أنَّ الجَلاَلِقَة أشدُّ بأسًا . وكان لعبد الرحمٰن بن محمّد صاحب الأندلس وزيرٌ من ولد أُميَّة يقال له أحمد بن إسحٰق ، فقبض عليه عبد الرحمٰن على موجدةٍ وجدها عليه ، فقتله

---

(١) ادريس ص ٦٦ .

عبد الرحمن ، وكان لذلك الوزير أخٌ يقالُ له أُميَّة فى مدينة شَنْتَرِين من ثغور الأندلس . فلمّا علِم ما فُعِل بأخيه عَصَا عبدَ الرحمن ، وصار فى حيِّز رُذْمير مَلِكِ الجَلاَلِقة ، فأعانه على المسلمين ، ودَلَّهُ على عوراتهم ، ثمَّ خرج أميَّة فى بعض الأيّام عن المدينة يتصيَّدُ فى بعض متنزَّهاته ، فغلب على المدينة بعضُ غلمانه ، ومنعه من الدخول إليها ، وكاتَبَ عبدَ الرحمن ، فمضى أُميَّة بن إسحٰق أخو الوزير المقتول إلى رُذْمير فاصطفاه واستوزره وصيَّره فى جُمْلته ، وغزا عبدُ الرحمن صاحبُ الأندلس مدينـةَ سَمُّورَة دارَ مملكة الجَلاَلِقة ، وكان فى أزيد من مائة ألف ، فكانت الوقيعة بينه وبين رُذْمير ملك الجَلاَلِقة فى شوّال سنة ٣٢٧ كما قدّمناه ، فكانت للمسلمين عليهم ، ثمّ ثابوا بعد أنْ حُوصِروا وأُلجِئوا ، فقتلوا من المسلمين بعد عبورهم الخَنْدَقَ خمسين ألفاً ، وقيل إنّ الذى منع رُذْمير مِنْ طلبِ مَنْ نجا من المسلمين أُمَيَّةُ بن إسحٰق ، خوّفه الكمين ، ورغّبه فيما كان فى عسكر المسلمين من الأموال والعُدَد والخزائن ، ولولا ذلك لأُتِىَ على جميع المسلمين . ثمّ إنّ أُميّة هذا استأمَنَ عبدَ الرحمن بعد ذلك ، وتخلّص من رُذْمير ، فقبله عبدُ الرحمن أحسنَ قبولٍ ؛ وقد كان عبدُ الرحمن صاحب الأندلس بعد هذه الوقيعة جهّز عساكره مع عدّةٍ من قُوّاده إلى دار الجَلاَلِقة ، فكانَتْ لهم بهم حروبٌ هلك فيها من الجَلاَلِقة ضِعْفُ مَنْ قُتِلَ من المسلمين فى الوقيعة الأولى وكانَتْ للمسلمين عليهم .

ومدينة سمُّورة مُحْدَثَةٌ اتُّخِذَتْ دارًا سنة ٢٨٨ .

حرف الشين

٨٨ — شجس

قريةٌ بالأندلس قريبةٌ من بَطْرِير ، وهى قريةٌ جامعةٌ مفيدةٌ ، وهى قريبة من شَاطِبَة .

٨٩ — شَذُونَة

بالأندلس ، وهى كورةٌ متّصلةٌ بكورة مَوْرُور ، وعَمَلُ شَذُونة خمسون ميلا فى مثلها ، وهى من الكُوَر المُجَنَّدة ، نزلها جندُ فِلَسْطِين من العَرَب ، وكورةُ شذونة كورةٌ جليلة القدر ، جامِعةٌ لخيرات البَرّ والبحْر ، كريمةُ البقعة ، عذبةُ التربة ، يُفيضُ مِيَاهُها بلا ندوى مع المَحْل ثمارَها ، وقد لجأ إليها عامّةُ أهل الأندلس سنة ١٣٦ ، وكانت الأندلس قد قحَطَتْ ستّة أعوامٍ(١) . ومن كُوَر شذونة شَرِيش وغيرُهَا ، وفيها كانت الهزيمة على لُذْرِيق حين افتتحت الأندلس سنة ٩٦ .

وبقرب شَذُونة موضعٌ يُعْرَف بالجَبَل الواسط ، وهو جبلٌ فيه آثارُ الأُوَل ، وفى شقّ صخرةٍ داخلَ كهفٍ فيه فأسُ حديدٍ ، يتعلّق من الشقّ الذى فى الصخرة ، تراه العينُ وتجسُّه اليدُ(٢) ، فمن رام إخراجَه لم يطقْ ذلك ، وإذا رفعَتْه اليدُ ارتفع وغاب فى شقّ الصخرة ، ثمّ يعود إلى حالته . ويذكرُ مشايخُ كورة شَذُونة أنّ النار أُوقِدَتْ على الموضع ، ورُشّ بالخلّ لينكس ، ويُوصل إلى استخراج الفأس ، فلم يُقْدر على ذلك ،

---

(١) ث : « سنة أعوا » . (٢) ث : « وتلبسه إليه » .

وأعياهم أمره ، وقُرِنَت الثيرانُ فى بعض الأَزْمِنَة ، وجُعِلَتْ عَجَلَتَانِ ، وشُدّ بهما طرفَا حَبْلٍ وثيقٍ قد رُبط فى الفأس ، وحملوا على الثيران ليُقلع الفأس ، فلم يُسْتَطَعْ ذلك .

قالوا : وأطيبُ العَنْبَرِ الغربىّ إنما يُوجد بساحِلِها ، وبساحِلِ شَذُونة يُوجد حوتُ التُّنّ لا فى غيره من سواحِلِ الأندلس ، فيظهرُ فى أوّل شهر مَايُه ، لا يُرَى قبْل هذا الشهر ، فإنّه يخرج من البحر المُحيط فيدخل إلى البحر المتوسّط الذى يُسمّى البحر الرومىّ ، فيصيّد مدّةَ ظهوره أربعين يومًا ، ثمّ يعودُ على مِثْل ذلك الوقت من العام الآخر . وبساحِلِ شذونة المَقْلُ الذى يعظم جُمّارُه حتّى يكون قلبهُ مِثْلَ قلبِ النّخْلِ ، وكانَتْ تُصْنع منه الغرابيلُ[1] عن الحلْفاء . وكانَتْ جِبايةُ شذونة فى أيّام الأمير الحَكَمِ بن هشام خمسين ألفًا وستّمائة .

٩٠ — الشَّرَف

مِن غَرْبِىّ[2] إشبيلية بالأندلس ، وهو جبلٌ شريفُ البقعة ، كريمُ التربة ، دائمُ الخضرة ، فَرَاسِخ فى فَرَاسِخ طولاً وعَرْضاً ، لا تكاد تشمس منه بقعةٌ لالتفاف زيتونه ، واشتباك غصونه ، وزيتُه من أطيب الزيوت ، كثيرُ الريع عند العَصْر ، لا يتغيّر على طول الدّهر ، ومن هناك يتجهّز به إلى الآفاق برًّا وبحراً ؛ وكلُّ ما استودع أرض إشبيلية وغرس فى تربتها نما وزكا وفضل وجلّ[3] .

ويقالُ إنّ فى الشّرَف ثمانية آلاف قرية عامرة ، وديارُها حسنة ، وبيْن الشرف وبيْن إشبيلية ثلاثة أميال ، وسُمّىَ بذلك لأنّه مُشْرِفٌ على ناحية إشبيلية ، ممتدٌّ من الجنوب

(١) ت : « الغرابب » . (٢) ت : « شرق » . (٣) قد وقع ذكر بعض ذلك فى ترجمة إشبيلية ، فراجعه أعلاه ص ٢١ .

إلى الشمال ، وهو كلُّه ترابٌ أحمر ، وشجرُ الزَّيتون فيه من هذا المكان إلى قنطرة لَبْلة .

٩١ — شَرِيش

من كُوَر شَذُونة بالأندلس ، بيْنَها وبيْن قلشانة خمسةٌ وعشرون مِيلاً ، وهى على مقربة من البحر ، يجود زرعُها ، ويكثر ريعُها .

وبيْن المغرب والقبلة من شَرِيش حِصْنُ رُوطَة ، على شاطئ البحر ، بيْنهما ستّة أميال ، وهو موضعُ رِبَاطٍ ، ومقرٌّ للصالحين ، مَقْصُودٌ من الأقطار ، وبروطة هذه بئر حصب بماءٍ لا يعلم مثلُه فى بقعةٍ ، وهى بئرٌ أَوَّلِيَّةٌ ، قديمة البنية ، ينزلُ المرءُ يستسقى الماءَ بيدِه حيثُ انتهى من البئر ، فكلّما كثر البشرُ بحصن روطة ، واجتمعَتْ إليه المُرَابِطةُ طَما الّذى فى البئر وزاد حتّى يستسقى من رأس البئر باليد دون مهانةٍ [١] ولا مشقّة ، فإذا قلَّ الناسُ بها وتفرَّقوا نضب الماء حتّى يكون بآخر دَرَكِهِ .

* وشريش متوسّطةٌ حصينةٌ حسنة الجهات ، قد أطافت بها الكرومُ الكثيرةُ ، وشجر الزَّيتون والتين والحنطة بها ممكنةٌ [٢] .

٩٢ — شُقْر

جزيرةٌ بالأندلس ، قريبةٌ من شَاطِبة ، وبيْنها وبيْن بلنسية ثمانية عشر مِيلاً .

* وهى حسنة البقعة ، كثيرة الأشجار والثمار والأنهار ، وبها أناسٌ وجلّةٌ [٣] ، وبها

---

(١) ت : « مهانات » . (٢) ا ر ص ٢٠٦ . (٣) ا ر ص ١٩٣ .

جامعٌ ومساجد وفنادق وأسواق ، وقد أَحاطَ بها الوادى . والمَدْخَل إليها فى الشتاء على المراكب ، وفى الصيف على مخاضة .

وفى إحاطة الوادى بها يقول ابن خَفَاجة فى شعرٍ يتشوّق فيه إلى مَعَاهِدِه ، ويندب ماضى زمانه [خفيف] :

بَيْن شُقْرٍ ومُلْتَقَى نَهْرَيْهَا حيثُ أَلْقَتْ بِنَا الأمانى عَصَاهَا
ويُغَنِّى المُكَّاءُ فى شَاطِئَيْهَا يَسْتَخِفُّ النُّهى فحَلَّتْ حُبَاهَا
عِيشَةٌ أَقْبَلَت يُشَهِّى جَنَاهَا وَارِفٌ ظِلُّها لَذِيذٌ كَرَاهَا
لَعِبَتْ بالعقول إلاَّ قليلاً بَيْنَ تَأْوِيبِها وبين سُرَاهَا
فانْثَنَيْنَا مع الغصون غصونًا مَرَحًا فى بطاحها ورُبَاهَا
ثمَّ وَلَّتْ كأنَّها لم تكن تلبث إلاَّ عشيَّةً أَوْ ضُحَاهَا
فاندُبِ المرْج فالكنيسة فالشط وقُلْ آهِ يا مُعِيدَ هواهَا[1]
آهِ من غُرْبَةٍ[2] تُرَقْرِقُ بَثًّا آهِ من رِحلَةٍ تَطُولُ نَوَاهَا
آهِ من فُرْقَةٍ لغير تلاقٍ آهِ من دارٍ لا يُجيبُ صَدَاهَا
لَسْتُ أدرى ومدمع المُزْنِ رطْبٌ أبكاها صبابةً أم سَفاهَا
فتعالَىْ يا عين نبكِ عليها من حياة إن كان يغنى بكاهَا
وشباب قد فات إلاَّ تناسيه ونفسٍ لم يبقَ إلاَّ شجاهَا
ما لعينى[3] تبكى عليها وقلبى شمنى[4] سواده لو فداهَا

وفى جزيرة شُقْر يقول الكاتبُ أبو المطرّف بن عَمِيرة [طويل] :

(١) كذا فى ت . (٢) ت : « غيرة » . (٣) ت : « ملى عبى » . (٤) كذا فى ت .

فقد حَازَنا[1] نأيٌ عن الأهْلِ بعْدَما ... نَـأَيْنا عن الأوطان فهْى بَلاقِـعُ
نَرَى غُرْبَةً حتى تَنَزَّلَ غُرْبَةٌ ... لقد صنع البينُ الذى هوَ صَانِعُ
وكيفَ بشُـــقْرٍ أو بزُرْقَةِ مائِهِ ... وفيهِ لِشُـــقْرٍ أوْ لزُرْقٍ شَوَارِعُ

وقال من قصيدة يمدح فيها صاحب إفريقية الأميرَ الأجلَّ أبا زكرياء [منسرح] :

وعاد قلبي من شوْق أندلسٍ ... عبداً شرفتـــه وما فتر[2]
فأين منَّا منـــازلٌ عصَفَتْ ... ريح عليها من العدى صرصر[3]
ودون شُـقْرٍ ودون زُرْقَتِهِ ... أزْرَقُ يَحْكى قناهُ وأشْقَرْ

٩٣ ـ شَقُنْدَة

قريةٌ بعدوة نَهْر قرطبة ، قبالةَ قَصْرِها ، فيها اجتمع وجوهُ العَجَم يتشاورون فى حرب العرب ، ويحذّرونهم من القعود عنهم ، ويحضُّون بَعضهم بَعْضًا على أن يكونوا يداً واحدة ، وقدموا على لُذْرِيق بقرطبة بسبب ذلك ، فنزلوا أَكْنَافَ شَقُنْدَة هذه ، ولم يطمئنوا إلى الدخول على لُذْرِيق أخذًا بالحزم .

٩٤ ـ شَقُوبِيَة

بالأندلس ، ليست بمدينةٍ ، إنمـا هى قُرًى كثيرةٌ متجاورةٌ متقاربةٌ متلاصـقةٌ ، متداخلةُ العمارات ، فيها بشرٌ كثيرٌ ، وجمٌّ غفيرٌ ، وهم فى نظر صاحب طليطلة ، وهُمْ أنجادٌ أجلادٌ ، ومنها إلى طليطلة[4] مائة ميلٍ[5] .

(١) ت : « قفا حرنا » . (٢) كذا فى ت . (٣) كذا فى ت .
(٤) ت : تطيلة . (٥) ا و س ص ٦٨ .

٩٥ — شَقُورَة

مدينةٌ من أعمال جيّان بالأندلس ، قالوا : وجبَل شقورة يُنبت الورْدَ الذّكىَّ العطر ، والسنبلَ الرومىَّ الطيّبَ ، وفى غيران شَنْت مَرْتين من جبل شقورة أَشْقَاقُل كبيرٌ قوىُّ الفعل ، يفوق غيْرَه ، وإذا نَزَل بتلك الغيران أَحَدٌ كثُر منه الاحتلام ، ورُبّما نزل المنيُّ منه بغير إرادة ولا تذكُّر ؛ ويقال إنَّ فى قريةٍ هنالك ماءً يفعل مثل ذلك . وفى جبل شقورة شجر الطخش الذى يتّخذ منه القسىُّ ، وعصيرُ ورقِهِ سَمٌّ قَتَّالٌ وَحِيٌّ . وفى تلك الناحية ماءٌ صعيدة فى حَجَر قدر ما تدخل الدابّةُ رَأْسَها فيه ، فتشرب ويتتابع على ذلك العَدَدُ الكثيرُ من الدوابّ فتصدر رِوَاء ، فإذا استُقى فى إناء لم يكن يروى الرجل .

ولعلىّ بن أبى جعفر بن هَمُشْكُ ، وكُتِبَ على قبره بشقورة [وافر] :

لعمرك ما أردتُ بقَاء قبْرى   وجسمى فيه لَيْس له بقَاء
ولكن رجوتُ وقوف من على   قبرٍ مرٌّ فينفعنى الدعاء(١)
سبيل الموتِ غايةُ كلّ حىّ   فكلٌّ سوفَ يلحقه الفَنَاء

ومن شقورة أبو بكر بن مُجَبَّر الشاعر المفلق(٢) المُجيد ، شاعر دولة بنى عبد المؤمن .

(١) كذا فى ت ، وهو غير موزون ولعله : ولكن قد رجوتُ وقوف مارٍّ على قبرى فينفعنى الدعاء .
(٢) ت : « المفلو » .

٩٦ — شِلْب

من بلاد الأندلس ، وهى قاعدةُ كورةِ أُكْشُونُبة ، وهى مدينةٌ بقبليّ مدينة يَابِجَة ، ولها بسائط فسيحةٌ ، وبطائح عريضةٌ ؛ ولها جَبَلٌ عظيم مُنيف ، كثيرُ المسارح والمياهِ ، وأكثر ما ينبت فيه شجر التفّاح العجيب ، يتضوّع منه روائح العود .

* وعليها سورٌ حصينٌ ، ولها غَلاَّتٌ وجَنَّاتٌ ، وشربُ أهلها من واديها الجارِى إليها من جهة جنوبها ، وعليه أرحاء البلد ، والبحرُ منها فى الغرْب على ثلاثة أميالٍ ، ولها مَرْسًى فى الوادى وبها الإنشاء ، والعود بجبلها كثير ، يُحْمَل منها إلى كلّ الجهات ؛ والمدينة فى ذاتها حسنة الهيئة ، بديعة البناء ، مرتّبة الأسواق ، وأهلُها وسُكّان قُرَاها عَرَبٌ من اليَمَن وغيرها ، وكلامُهم بالعربيّة الصريحة ، وهم فصحاء يقولون الشِّعْرَ ، وهم نُبَلاء[1] خاصّتُهم وعامّتُهم ؛ وأهل بَوَادى هذه البلدة فى غاية الكرم ، لا يجاريهم فيه أَحَدٌ[2] . ومن شِلْب إلى بَطَلْيَوْس ثلاث مراحل ، ومن شِلْب إلى مارتُلة أربعة أيّام .

وفى سنة ٥٨٥ فى ربيع الآخر منها ، نازل ابنُ الرّنْق صاحبُ قُلُمْرِيَّةَ وما يَلِيها من غَرْب الأندلس مدينةَ شِلْب هذه ، فلم يزل محاصراً لها إلى أنْ ضَاقَ أهلُها بالحصار ، فخافوا الغلبة عليهم ، فصالحوه على أن يخرجوا سالمين فى أنفسهم ، ويتركوا البلد بجميع ما فيه مِن أموالهم وأثاثهم ، فأجابهم على ذلك ، ووفى لهم بما صالَحَهم عليه ، ودخلها فى الموفى عشرين من رَجَب هذه السّنة ، وبلغ أمْرُ شِلْب إلى صاحب المغرب والأندلس ، المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ، فامتعض من ذلك

---

(١) ت : « عقلاء » . (٢) ا ر ص ١٧٩ — ١٨٠ .

وأنف منه، وكبر عليه، فاعترض جنوده، واستنفر حشوده، واستعدّ الأسلحة، وفرّق الأموال، وخرج من مرّاكش قاصداً الأندلس فى وسط ذى الحجّة من هذه السّنة، واستمرّ سيرُه إلى أن وصل إلى رِباط الفتح من مدينة سَلَا، فأقام بها نحواً من ثلاثين يوماً إلى أن توافقت الحشود، وتكاملت القبائل، وورد عليه فى أثناء مقامه برباط الفتح فتحٌ فُتِحَ عليه فى المغرب، وهُنِّئَ به؛ وفيه يقولُ أبو بكر بن مُجْبَر [طويل]:

قَلائِدُ فتحٍ كان يذخرها الدّهرُ ... فلمّا أردتَ الغزوَ أبرزَها النّصْرُ

القصيدة بطولها.

وتحرّك المنصور من رِباط الفتح فى أُخريات المحرّم عام ٥٨٦، وركب البحر مِن قَصْر مَصْمُودة فى الثانى والعشرين من ربيع الأوّل، فأقام بطريف إلى أن تحرّك منها فى غرّة ربيع الآخر، وسار إلى قرطبة، وعُقِدت له الرّايات بجامعها الأكبر؛ وفى ذلك يقول أبو بكر بن مُجْبَر قصيدتَه المشهورة التى أوّلُها [بسيط]:

بُشْرَاىَ هــذا لِوَاء قَلَّ ما عُقِدا ... إلاَّ وَقَدْ مَدّهُ[1] الرُّوحُ الأمينُ يَدَا

وأقبلَ النَّصْرُ لا يعــدو بناحيةٍ ... فحيثما قصدَتْ راياتُه قَصَدَا

واستقبلَتْه بتَبْشيرِ الفتوح فقَدْ ... كادَتْ تَكونُ عَلَى أكتافِهِ لِبَدَا

إلى آخر القصيدة، وهى طويلةٌ. ثمّ تحرّك من إشبيلية إلى قَصْر أبى دَانِس من غَرْب الأندلس، فنزلوا على حكمه، فاحتملهم إلى مرّاكش، ورحل من قَصْر أبى دَانِس إلى حصْن بَلْمَالَة[2]، فاستسلموا ورغبوا فى الأمان على أن يتركوا الحصن، ويسلموا فى أنفسهم، وينصرفوا إلى بلادهم، فأُجيبوا إلى ذلك، وخلّى سبيلهم، فنهضوا إلى بلادهم؛

(١) ت: «ومدّه». (٢) ت: «بلاله».

وانتهب جميع ما كان فى الحصن ثُمّ هُدِمَ ثمّ قصد إلى حصن المَعْدِن ، فافتُتِح وهُدِمَ . وبعد الفراغ من ذلك كان النُّهوض إلى شِلْب ، فوصلها فى ثانى جمادى الأخيرة سنة ٥٨٧ ، فأحْدَقت الجيوش بها ، وأخذت بمُخَنّقها ، ونصب عليها المجانيق وآلات الحرب ، وجدُّوا فى قتالها ، وبالغوا فى نكاية أهلها ، فطلبوا الأمان فى أنفسهم على أن يسلموا المدينة ويخرجوا إلى بلادهم ، فأُجيبوا إلى ذلك ، وخرجوا منها فى السادس والعشرين من جمادى الأخيرة ، وفى ذلك يقول أبو بكر بن مُجْبَر قصيدتَه المشهورة ، التى أوّلها [طويل] :

دعَا الشوقُ قلْبِى والرّكائبَ والرَّكْبا ... فلَبّوْا جميعًا وَهْوَ أَوّلُ من لَبّى
وظَلْنا نَشَاوَى للذى بقلوبنا ... نَخَالُ الهوَى كأسا ويحسِبنا شرْبَا
إذَا القُضْبُ هزّتْها الرِّيَاحُ تذَكّروا ... قُدُودَ الحسانِ البيضِ فاعْتَنَقُوا القُضْبَا

القصيدة . ثمّ أخذ المنصور فى الرّحيل إلى مرّاكش .

٩٧ — شَلْبَطَرّة

بالأندلس ، من بلاد الإذْفُونش ، وهو حِصْنٌ من حصون الأندلس من عَمَل قَلْعة رَبَاح ؛ كان المَلِكُ الناصرُ أبو عبدالله محمّد بن المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن مَلِك المغرب نَزل عليها وحاصَرَها بالمجانيق الفخام ، والآلات الحربيّة ، حتّى قهر أهْلَها وملأها ، وذلك فى أوائل سنة ٦٠٨ ؛ وكان نزل أوّلاً على حِصْن الثّلج فتملّكه ، ثمّ رجع الحصار كلّه على حِصْن شَلْبَطَرّة ، فنصب عليها المجانيق ، ورُمِيَتْ بالحجارة الصمّ الكبار ، وطال حصارُها إلى أنْ ضاق أهلُها وأعْيَاهم الأمر ، فطلبوا

أجلاً يستجلبون فيه مَلِكَهم صاحبَ طليطلة وقشتيلة الإذفونْش بن شانجُه ، فأُعْطُوا ما طلبوا ؛ فأخرجوا قَوْمًا من ثقاتهم إلى طليطلة والتقوا مع ملكهم إذفونْش بها أو بغيرها من بلاده ، وأعلموه بما انتهوا إليه من الشدَّة ، وما بلغوا من الجهد والمشقَّة ، وحملوا إليه بعضَ أحجارِ المجانيق التى يُرْمَوْن بها ؛ فعذرهم ، ولم تكُنْ عنده قدرة لدفع ما نزل بهم ، ولا استطاع الدفاع عنهم ، فأذن لهم فى الخروج عنها ، فرجعَتْ ثقاتهم بذلك ، فطلبوا الخروجَ مُسْلِمِينَ فى أنفسهم ، فوفى لهم بذلك ؛ ومكَّنوه من الحصن ، وانفصل الناس عنها فى صدر ربيع الأوّل من سنة ٦٠٨ . وكان الحصار فيها إحدى وخمسين ليلة . وزعيمهم الإذفونْش بن شانجُه لم يقدر فى ذلك الوقت على شيء حتَّى استغاث بأهل مِلَّتِهِ ، وكاتَبَ من قَرُب وبَعُد منهم ، وشكا إليهم ما دهاه من المسلمين ، وحثَّهم على حماية دينهم ونصْرِ مِلَّتِهِمْ ، فاستجابوا له وجاؤوه من كلّ جهة وانثالوا عليه ، فكان من وقيعة العِقاب على المَلِك الناصر فى عام ٦٠٩ ما هو مذكورٌ فى موضعه .

ولما ملك الناصر حِصْنَ شَلْبَطَرَّة نفذت عنه المخاطبات بهذا الفتح . فمن فضل من ذلك ما خاطب به صاحب إفريقية حينئذٍ الشيخَ المعظَّم أبا محمد عبدالواحد : « وهذا كتابُنا إليكم من منزل الموحّدين بمنزل أَنْدُوجَر ، ولما كان صاحب قشتالة أقرب من تعيَّنت حربه دارا ، وأكثرهم عمَّا استطاع أحْرارا ؛ كان أوَّل من نوَيْنا ، ووجب تقديم غزوه علَيْنا ؛ وكان المَعْقِل المعروف بشَلْبَطَرَّة قد علقت به حبائلُ الصلبان ، وضجر من ناقوسه ما فى جهاته الأربع من التكبير والأذان ؛ مَرْقَب الدوّ ، وعُقَاب الجوّ ؛ العَلَم المُطِلُّ على الأعلام ، والنكتة السوداء التى هبَتْ بسائط الإسلام ؛ والخُبَأَة الطُّلَعة الذى لا حال للمسلمين معه قد جعلَتْه النصرانيَّة إلى كلّ غاية جناحا ، وأعدّته إلى أبواب

الماقل والمداش مفتاح ؛ فاستخرْنا الله تعالى على منازلته وقلنا : هو يمين صاحب قشتالة إن قطعت قعد مقعد الذليل ، ونظنّه عبرة إن لم يتحرّك لها فقد قام على ضعفه أوضح دليل ؛ ونحن في ذلك بُرَءاء من القوّة والحول ، ونتوكّل على الله ذي الفضل والطول ؛ فقبل النزول من السروج ، ووضع الهند والوشيج ؛ حباهم الله بكلّ ضرب وجيع ، وموت حيّ سريع ؛ وملكوا عليهم أرباضهم وكانَتْ من الذروة إلى البطحاء ، فأضرموها ناراً من جميع الأنحاء ؛ ونسخوا فيها آية النهار بالظلماء ؛ فألقوا يد الاستسلام ، وذلّوا لعزّة الإسلام ؛ ورغبوا في أمد يقيمون فيه الحجّة على صاحبهم فأذنّا لرسلهم في التوجّه إليه ، لعلمنا أنّ ذلك أشدُّ من وقع السيوف عليه ؛ فحينئذْ وافته رسلهم اعترف لهم بالصغار ، وقلّة القوّة على الانتصار ، وفارقوه على تسليم الدار ، لمن له عقبى الدار ؛ فنبذنا إليهم بأنفسهم احتقارا ، وساروا إلى قومهم يحملون هموماً طوالاً وآمالاً قصارا ؛ وعلى أثرهم طهّر الله تعالى المعقل من الأدران ، ورقيت أعاليه ألويةُ الإيمان ، وبدّل الله عزّ وجلّ فيه الناقوس بالأذان ، وحوّلْنا كنيسةً مسجداً ومنبراً على تقوى من الله ورضوان . »

٩٨ — شَلْطِيش

بالأندلس ، بقرب مدينة لَبْلة ، وهي جزيرة * لا سور لها ولا حظيرة ، إنّما هي بنيانٌ متّصلٌ بَعْضُه بِبَعْضٍ ، وبها دارُ صِناعةِ الحديد الذي يعجز عن صنعه أهلُ البلادِ لجفائه ، وهي صنعة المراسي التي تَرْسُو بها السُّفُنُ ، وقد تغلّب عليها المجُوس مرّات ، ويحيط بجزيرة شلطيش البحر من كلّ ناحية ، إلاّ مقدار نِصْف رميةِ حَجَرٍ هناك

يجوزون لاستقاء الماء لشربهم ؛ وطول الجزيرة نحو ميل أو أزيد ، والمدينة منها فى جهة الجنوب . وهذه المدينة بإزاء مدينة أُونَبة ، ومقدار المجاز بينهما أربعة أميال[1] .

وفى صفة استدارة البحر بهذه الجزيرة يقولُ عبدُ الجليل بن وَهْبُون من قصيدةٍ يمدح بها المُعْتَمِد بن عبَّاد [وافر] :

ألم تَرَ للجزيرة كيف أوْفى   عليها مثل ما انعطف السوارُ
أعَدَّ بها على شاطيهِ رسيًّا   ومَدَّ يداً إليـك بها يسارُ
فإن يقبلْ تحيَّته فأحْـذَرْ   فربَّتَمَا تَوَاصَلَتِ البحارُ
يُحيطُ كما يحيطُ بها ولـكنْ   لسِمْطِ الدُّرِّ فى العنق افتخارُ

وكان بهذه الجزيرة بِيَعٌ للأُوَل ، واتُّخِذَتْ فى الفتنة مدينـةً ، ولهـا أرْباضٌ واسعةٌ ، وبها آبارٌ عَذْبَةٌ قريبة الأرْشية ، وبساتين حسنة ، وفيهـا أطيب الصنوبر ، ولها مَرَاعٍ خصيبة لا تتصوَّح ، وعيونُ ماءٍ عذبٍ تصلح بها الألبان والقطانى ، ومن خاصَّتها الثريدُ النفيسُ . ومدينة شَلْطِيش مَرْفَأٌ للسُّفُن وركاب البحر ، ومَرْساها كِنٌّ بكلِّ ريح ، وهى كثيرة السفن ، وبها دارُ صِناعةٍ لإنشائها ، ويسكنها جماعةٌ من النصارى ؛ ويكون طولها نحو أربعة أميال فى عَرْضٍ يسيرٍ .

٩٩ — شَلُوبينية

قريةٌ مسكونةٌ على ضفَّة البحر ، بيْنها وبين المُنَكَّب عشرة أميال ، ويجود فيها المَوْزُ وقَصَبُ السُّكَّر ، ولعلَّ الأستاذ أبا على الشَّلُوبين منسوبٌ إليها ؛ ويقال إنَّ شلوبينية تقابل من العدوة الأخرى مرسى مَلِيلَة ، ويقطع البحرُ بَيْنهما فى مَجْرَيَيْن .

---

(١) ا ، ص ١٧٨ — ١٧٩ .

١٠٠ — شُلَيْر

هو جبلُ الثلج المشهور بالأندلس ، وهو بإزاء جبل إلبيرة ، وهو متّصلٌ بالبحر المتوسّط ، مقتطعٌ بجبل رَيُّه ، ويذكر ساكنوه أنّهم لا يزالون يرون الثلج نازلاً فيه شتاءً وصيفًا . وهذا الجبل يُرَى من أكثر بلاد الأندلس ويُرى من عدوة البحر ببلاد البَرْبَر ، وفى هذا الجبل أصنافُ الفواكه العجيبة ، وفى قُرَاهُ المتّصلةِ به يكون أفضلُ الحرير والكتّان الذى يفضل كتّانَ الفَيُّوم . وطولُه يومَانِ ، وهو فى غاية الارتفاع ، والثلجُ به دائمًا فى الشتاء والصيف . ووادى آش وغرناطة فى شمال هذا الجبل ، ووجْهُ الجبل الجنوبىُّ مُطِلٌّ على البحر ، يُرَى من البحر على مَجْرًى أو نحوه . وفيه يقول ابن صارة ، وأستغفر الله من كتب هذا الاستخفاف [طويل] :

يَحِــلُّ لنا تَرْكُ الصلاة بأرضكم ... وشربُ الحُمَيَّا وهْوَ شىءٌ محرَّمُ
فِرَارًا إلى أرض الجحيم فإنها ... أحَنُّ علينا من شُلَيْرٍ وأرحَمُ
فإن كُنْتَ رَبِّى مُدْخِلِى فى جهنَّمٍ ... ففى مثلِ هذا اليوم طابَتْ جهنَّمُ

١٠١ — شَنْتَجَالَة

فى طرف كُورة تُدْمِير بالأندلس ممّا يَلِى الجوف ، ويقال لها أيضًا جِنْجَالَةُ ، وإليها يُنسب الوطاء الجِنْجَالىُّ لعَمَلِه بها .

١٠٢ — شنْتَرَة

من مدائن الأُشبونة بالأندلس على مقربة من البحر ، ويغشاها ضبابٌ دائمٌ لا ينقطع ، وهى صحيحةُ الهوى ، تطول أعمارُ أهلها ، ولها حِصْنَانِ فى غاية المنعة ،

وبينها والبحر قدرُ ميلٍ ، وهناك نهرٌ ماؤه يصبّ فى البحر ، ومنه شربُ جنّاتهم ؛ وهى أكثر البلاد تفاحًا ، ويجلّ عندهم حتّى يبلغ دَوْرُها أربعة أشبار ، وكذلك الكُمّثرى ، وبجبل شنترة ينبت البنفسجُ بطبْعِهِ ، ويُخرَج من شنترة عنبر جيّد ، ويُخرَج أيضاً فى شذونة من بلاد الأندلس .

١٠٣ — شنترلانه

مدينةٌ أو قريةٌ بالأندلس ، على طريق قلشانة ، وهى عن يمين الطريق ، وناقوسُها مُلْقًى فى الأرض لا حارسٌ له ولا رقبةٌ عليه ، ويزعم أهلُها أنَّه معقودٌ ممنوعٌ من جميع الناس ، وأنَّ من أخذه لا يمكنه الخروجُ به من القرية ، وأنَّ خصيتَىْ مَنْ أخَذَه تَنْتَفِخان ويشتدُّ وجعُهما حتّى يصرفَه إلى موضِعِه ؛ هذا عِنْدَهم صحيحٌ لا يشكُّون فيه .

١٠٤ — شَنْتَرِين

بالأندلس ، مدينةٌ معدودةٌ فى كُوَرِ باجَة .

* وهى مدينةٌ على جبل عالٍ كثير العلوّ جدًّا ، ولها من جهة القبلة حافةٌ عظيمةٌ ولا سور لها ، وبأسفلها ربضٌ على طول النهر ، وشرْبُ أهلِها من العيون ومن ماء النهر ، ولها بساتينُ كثيرة وفواكهُ ومباقلُ ، وبينها وبين بَطَلْيَوْس أربعُ مراحِل[1] .

وهى من أكرم الأرضين ، ونهرُها يفيض على بطحائها كفيضِ نيلِ مِصْرَ ، فتزدرع أهلُها على ثراه عند انقطاع الزريعة فى البلاد وذهاب أوانِها ، فلا يقصر عن غمائه الطيّب ولا يتأخّر إناه وإدراكُه .

(١) ا ر ص ١٨٦ .

ومن أقاليمها صقلب ، وهى أطيب بِقاع الأرض ، يرفع فى أرضه عند توسُّط الرباح للحبَّة مائة ، وعند كماله للحبَّة مائتانِ . ولشنترين جزائرُ فى البحر مسكونةٌ ، وكانَتْ جبايةُ شنترين ألفَيْن وتسعمائة دينار ، وَأحوازُها متّصلةٌ بأحواز بَاجَة .

وكان يوسف بن عبد المؤمن ملك المغرب اجتاز عليها فى حركته الأندلسيَّة بعسكره ، وهو أربعون ألفاً من أنجاد العرب الفرسان ومن المُوَحِّدِين والجنود والمطَّوِّعة وفرسان الأندلس ، واجتازها ما يُنِيفُ على مائة ألف فارس ، وبرز أُسطولُه على الأُشبونة ، وحاصَرَها عشرين يوماً ، ونزل على أعظم قواعِدِ ابن الرَّنق عدوِّ المغرب ، وكان مُؤذياً للمسلمين من قاعدته ، وهى شنترين هذه ، فبرز إليها فى أُمَم لا تُحْصى ، وهنالك عرض له المرضُ الذى توفِّى فيه ، أقام الرحل به على مطيَّةٍ مضطجعاً عَلَى فراشه ، وضعفُه يتزايد ، إلى أن تُفُقِّد فى بعض أميالٍ فوُجد ميّتاً ، وذلك فى سنة ٥٨٠ . فتقَدَّم بالأمر وَلدُهُ يعقوبُ المنصورُ . فقفل بالناس إلى إشبيلية . فبويع بها ورجع إلى مرَّاكُش .

١٠٥ — شَنْتَمَرِيّة

مدينةٌ فى الأندلس من مُدُن أُكْشُونُبَة .

وهى أوَّل الحصون التى تعدُّ لبَنْبَلُونة ، وهى أتْقَنُ حصونِ بَنْبَلُونة بنياناً ، وأعلاها سموكاً ، مبتناةٌ على نَهْرِ أرَغُون ، على مسافة ثلاثة أميال منه .

وبناحيــة شنتمريّة أُعجوبةٌ عاينَهَا كلُّ مَنْ دَخَل على تلك الناحية من المسلمين ، وذلك عَيْنٌ ينفجر بمـاء كثير ، ينظر الناس ذلك عَيَاناً ، فإذا قربوا منها ، ووقفوا عليها انقطع جريانُها ، فلا تنبض بقطرةٍ ، فإذا تَباعَدَ الناسُ عنها عادَتْ إلى حالها ، وهـذا

مستفيض لا يجهد له أحدٌ ممّن صاقَبَ تلك الناحية .

* وشنتمرية على مُعْظَمِ البحر الأعظم ، سورُها يصعد ماءُ البحر فيه إذا كان فيه المدُّ ، وهي مدينةٌ متوسطةُ القدر ، حسنة التربة(1) بها مسجدٌ جامعٌ ومِنْبَرٌ وجماعةٌ ، وبها المراكبُ واردةٌ وصادرةٌ ، وهي كثيرة الأعناب والتين ، وبينها وبين شِلْب ثمانية وعشرون ميلاً(2) .

وإليها يُنسب الأُستاذ أبو الحجّاج يوسف بن سليمان الشنتمريّ الأعْلَم ذو التصانيف المشهورة .

وهي مدينةٌ أوّليّةٌ ، وبها دارُ صِناعةٍ للأَساطيل ، وبإزائها جزائرُ في البحر ينبتُ فيها شجرُ الصنوبر . ومن الغرائب ما ظهر بشنتمريّة هذه في عشر الستّين والخمسمائة ، وذلك صبيٌّ يتواصف المحقّقون ممّن عايَنَ أمرَه أنّ سنّه خمسة أعوامٍ أو نحوها ، بلغ مَبْلَغَ الرجال وأَشْعَرَ ، وهذا مستفيضٌ عندهم .

١٠٦ — شَنْت ياقُوب

كنيسةٌ عظيمةٌ عندهم ، وهي في ثغور ماردة ، وهذه الكنيسة مبنيّةٌ على جسد يعقوب الحواريّ ، يذكرون أنّه قُتِل في بيت المقدس ، وأدخله تلامذتُه في مركب ، تجري به المركب في البحر الشاميّ ، إلى أن خرج به إلى البحر المُحيط ، حتّى انتهى به إلى موضع الكنيسة بساحلٍ فيه ، فبُنيت الكنيسةُ ليومٍ معروفٍ جُعِلَ عيداً لها(3) .

وغزا شنت ياقوب عبدُ الرحمٰن بن المنصور أبي عامر سنة ٣٨٧ ، وأوسع أهلَها قتلاً وأسراً ، وقراها وأسوارها هدماً وإحراقاً ، ومن إنشاء القسطليّ رسالةٌ إلى الخليفة هشام بن

(١) ار : « الترتيب » (٢) ار ص ١٧٩ (٣) ار س ص ٦٣ .

الحكم بن عبد الرحمن يخبره بالفتح ، وَيَصِفُ الكنيسة وَأرضها ، وَله فيها قصيدةٌ مشهورة .

١٠٧ — شنفيرُه

حِصْنٌ على أربع مراحل من مُرْسية بالأندلس فى شرقيّها ، مشهورٌ بالمنعة ، ظفر به فى الصُّلْح مُحَمَّدُ بن هود سنة ٦١٤ ، ومعه خمسمائة من أجناد الرجال ، فغدر به ؛ لأنّ أبا سعيد بن الشيخ أبى حَفْص الهنتاتِىّ ، لما طاف على حصون الأندلس يتفقّدُها فى أيّام الهدنة ، نظر إلى هذا المَعْقِلِ وهو بارِزٌ إلى السماء مع وثاقة بنائه فأعجبه وقال : كَيْفَ أخذ الرومُ هذا الحصن من المسلمين ؟ فقيل : غدروا به فى زمان الصُّلْح ! فقال : أمَا فى أجناد المسلمين مَنْ يجازيهم[1] بفعلهم ؟ فسمعه ابن هود فأَسَرَّها فى نفسه ، إلى أن تَمَّت له الحيلة ، فطلع فى سُلَّمٍ من حبالٍ فذبح السامِرَ الذى يحرس بالليل ، ولم يزل يُطْلع رجاله واحداً واحداً إلى أن حصلوا بجملتهم فى الحصن ، وفَرَّ الرومُ الذين خلصوا من القتل إلى بُرُج مانع . فقال ابن هود : إن أصبح هؤلاء فى هذا البرج جاءهم المددُ من كل مكان ! فالرأى أن نطلق النيران فى بابه ! فلما رأوا الدخان ، وأبصروا اشتعال النار طلبوا الصلح على أن يخرجوا بأنفسهم ، فكان ذلك واستولى المسلمون على الحصن ؛ وكان الروم قد أرسلوا فى الليل شَخْصًا دَلَّوْهُ من البُرْج ، فأصبحَت الخَيْل والرجال على الحصن ، وقد أحكم المسلمون أمره ، فانصرفوا فى خجلةٍ وخيبةٍ ، وترَدَّدَتْ فى شأنه المخاطبات إلى مَرّاكُش ، فقال الوزير ابن جامع لابن الفخّار : أخذناه فى الصُّلح ، كما أُخذ عنّا فى الصُّلح ! ومن هذه الوقيعة اشتهر ابن هود عند أهل شَرْق الأندلس ، وصاروا يقولون : هو الذى استرجع شنفيرُه !

(١) ت و س « يحاربهم » .

١٠٨ - شُوذَر

بالأندلس ، من كُوَر جيّان ، وهى قريةٌ تعرف بغَـدير الزيت ، لكثرة زيوتها ، وهى كثيرة المياه والبساتين ، بها جامعٌ من ثلاث بلاطات على أعْمِدَة من رخام، وسوقٌ حافلة يوم الثلاثاء .

حرف الصاد

١٠٩ ـ الصُّخُور

حصنٌ صغيرٌ على نهر مرسية من الأندلس .

فيه دعا لنفسه محمَّدُ بن هود سنة ٦٢٥ ، وأبو العُلَى إدريس المأمونُ فى إشبيلية ، وقد صفَتْ له ؛ وكان عازماً على التحريك إلى برّ العـدوة ، فبينما هو يروم ذلك إذ وصـله الخبر بقيام ابن هود هذا ، وكان من الجُنْد ، ولم يكن إذ ذاك أحدٌ من أكابر الأندلسيِّين يطمع فى ثيارة ، ولا يُحدّث بها نفْسَه ؛ فبنو مَرْدَنِيش فى بلنسـية ، وبنو عيسى فى مُرْسية ، وبنو صَنَادِيد فى جيّان ، وبنو .....[1] فى غرناطة ، وبنو فَارِس فى قرطبة ، وبنو وَزير فى إشبيلية ، لانتظام البَرّين[2] على طاعة الدولة الممهّدة القواعد ، ورجوع أمورها إلى إمام واحد ، حتَّى اتّفقت ثيارة العادِل بِمُرْسية ، ثمّ ثيارة البيَّاسىّ ونكبتُه ، ثمَّ مبايعةُ أبى العُلَى بإشبيلية ، ففتحوا على دولتهم باباً رحّله منه غيرُهم ، فأوقع الله تعالى فى خاطر ابن هود هذا أنَّه يملك الأندلس ، وتحدَّث بذلك مع من يَثِق به ، وذكر أنّه محمَّد بن يوسف بن محمَّد بن عبد العليم بن أحمد المُسْتَنْصِر بن هود ، واحتقره السيّد الذى كان فى مرسية من قِبَل أبى العُلَى ، فجمع أصحابه وخرج بهم إلى الحصن المعروف بالصُّخُور ، فدعا لنفسه ، واجتمع له جمعٌ من القُطَّاع ، وذُعّار الشّعَارِى والضِيَاع ؛ وقال لهم : أنا صاحب الزمان ، وأنا الذى أرُدُّ الخطبةَ عبَّاسِيَّةً ! وخاطب بذلك أبا الحسن القَسْطلىّ قاضى مُرْسية يومئذ ، وأعلمه أنَّه إن تمكّن من هذا الغرض فإنّ الدولة تكون

---

(١) بياض فى ت (٢) ت : « البربر » .

فى يده ، فأَصْغَى الشيخ إليه إصغاءً أذهله عن حَتْفِهِ الذى بحث عنه . . . . . . [١] ، ثمَّ حضر القاضى القَسْطلى عند السيّد الملقّب بأبى الأمان ، وقد لاحت عليه دلائل الخذلان ؛ فقال : ياسيِّدى ! هذا الرجل الذى كان فى الصُّخور ما زال خديمكم ، فكتبنا له نرغبه فى الطاعة ونَعِده بما يكون له من الخير فى إثر ذلك ، حتَّى أذعن ، وها هو قد وصل ليُقَبّل يدكم الكريمة ، وسيّدُنا يرتِّب له ولأصحابه ما يكفُّهم عن الثيارة ، ويرجى أن ينتفع بهم فى قطع الفساد ، عن جهات هذه البلاد ! فابتهج السيّد ، وأنفذ إليه بالمبادرة ، فلم يمرّ إلاَّ القليل حتَّى دخل ابنُ هود وأصحابُه مُرْسية فى السلاح ، فبعد ما مالوا لتقبيل يده قبضوا عليه ، ثمَّ حبسوه وأجلسوا ابنَ هود فى مكانه . وخطب فى أوَّل جمعة للمستنصر العبّاسىّ ، ثمَّ لنفسه بالمُتَوَكِّل على الله أمير المؤمنين ؛ وعندما وصل الخبر بذلك إلى أبى العُلَى ، وكان عزم على جواز البحر ، تمثَّل [كامل] :

إنَّ الطبيبَ إذا تعارض عنْـــده ... مرضانِ مختلفانِ دَاوَى الأخْطَرَا

وصرَفَ وجهه إلى مُرْسية ؛ ففى أوَّل منزلة نزل بها ، قام الأستاذُ أبو على الشَّلُوبين فابْتَدَهَ ، فخطب وقال : « ثَلَّمَكَ اللهُ وَنَثَرك » يريد : سلَّمك ونصَّرك . وكان يردُّ السينَ والصادَ ثاءً . وقام بعده أبو الحسن بن أبى الفضل ، فأنشده قصيدةً أوَّلُها [خفيف] :

خَدَمَتْك السّيوف والأقلامُ ... وأنَاخَتْ لأمرك الأيّامُ

وقام الكاتب البَلَوىُّ فأنشد قصيدةً منها [سريع] :

أَرَتْكَ مُرْسِيّة وقد عَصَتْ ... لنا قَدِيمًا طائعًا أكثَرْ
منابرٌ يالكَ قدْ أَصْبَحَتْ ... مَنَاظِرًا [٢] إنْ قد عصى مِنْبَرْ

---

(١) ت : « مطلقه وواحد » (؟) (٢) ت : « فناظر » .

فكَرِه أبو العُلَى ما أتَوْا به ، واسودّ وجهه ، فتطيّر الحاضرون بذلك ، وامتنع أبو العُلَى بعد هذا المجلس من كلام الخطباء ، وإنشاد الشعراء ، فى هذه القضيّة ؛ وأقام مُحَاصِرًا لابن هود حتّى رحل فى السنة الثانية ، وعلم أهلُها أنّهم لا ينفعهم معه إلاّ التحريكُ على ساعِد الجدّ ، وعلم هو أنّه لا تجوز عليهم حيلةٌ ولا تنفع فيهم مَوْعِظَةٌ ، وكان الأمرُ على ما نطق به القدرُ على ألسنةِ أولئك .

١١٠ — صَدّينَة

من كُوَر شَذُونة ببلاد الأندلس ، أزَلِيَّةٌ قائمة الأسوار ، باقية الآثار ، تطّرد المياهُ داخلَها من عين ثَرّة تطحن على جنوبها الأرحاء ، وَهى فى غاية الحصانة ، لا ينفذ جيشٌ إليها ، وَلا يتوصّل عَسْكَرٌ للنزول عليها ، وهذه العَيْن عُنْصُرُ نهر بوصة .

حرف الطاء

١١١ – طَارِق

جبلٌ فيه خرج طارقُ بن زياد ومنه افتتح الأندلس ، وهو عند الجزيرة الخضراء ، وبجَبَل طارق مَرْسى مُكَنٌ من كلّ ريح ، وَبِهِ غريبةٌ ، وَهو غارٌ هناكَ يُعرف بغار الأَقْدَام ، يُرَى من البَطْحَاء التى تَلِي الغار أَثَرُ قَدَمٍ أبداً وليس هناك طريقٌ ولا منفذٌ إلى غير الغار ، وقد مُسِحَتْ تلك البطحاء وسُوِّيَتْ ، ثمّ أتوها من الغَدِ ، فوجدوها فيها أثر القَدَم ، جُرِّب ذلك مِراراً

وكان أحد خُلَفَاء بنى عبد المؤمن أمر ببناء مدينةٍ على جبل طارق ، فندب إليها البنَّائين والنجَّارين وقُطَّاعَ الحَجَر للبنيان والجيار من كلّ بلدة ، وخطَّتْ فيه المدينةُ وقدم إليها من المال ما يعجز كثرةً ، واتّخذ فيها الجامعَ وقَصْرًا له ، وقُصُورًا تجاوِرُه للسادة بنيه ، وتولّى العمل فى ذلك ، وأقطع أعيانَ وجوهِ البلاد فيه منازلَ ، نظروا فى بنائها ، بعد أن حفروا فى سفح الجبل مَوَاضِعَ نبع فيها الماء ، وجمع بعضُها إلى بعض حتّى سال منها جَدْوَلٌ عَمَّ المدينةَ لأنفسهم ومواشيهم ، من أعذب الماء وأطيبه ، يصبُّ فى صَحْنٍ عظيمٍ اتُّخِذ له ، وأُجْرِى إلى الجنَّات المغترسة بها عن أمره ، فللحين ما جاءتْ مدينة تفوت المُدُن حسناً وحصانةً ، لا يدخل إليها إلاَّ مِنْ موضعٍ واحدٍ ، قد حُصِّنَ بسور منيع من البنيان الرفيع ، وسُمّيت بمدينة الفَتْح ، وقالت الشعراء فيها ، ثمّ جاز إليها فى سنة ٥٥٦ ، وورد الوفودُ عليه هناك ، فتلقَّاهم بالتكرمة ، وفَتَّ ذلك فى عَضُد العدوّ .

١١٢ — طَالقة

مدينة بالأندلس ، بقرب إشبيلية ، وهى من المُدُن القديمة ، وكانَتْ دارَ مَمْلَكةِ الأَفَارِقَة بالأندلس ، وكانت من مدن إشبيلية المتَّصِلة بها فى سالف الدهر وهى خرابٌ ، إذ كان إشبانُ بن طيطش غزا طالِقة وحاصر مَلِكَهم بها حتَّى فتحها وتغلَّب على مملكتهم ، فهدم طالِقة ونقل رخامها وآلاتها إلى إشبيلية وبه سُمِّيت ، واتَّخذها دارَ مُلْكه ، وكثرَتْ جموعُه ، فَعَلا فى الأرض وغزا من إشبيلية إيلياء بعد سنتَيْن من مُلكه ؛ خرج إليها فى السُّفُن فغنمها وهدمها ، وقتل من اليهود مائة ألفٍ ، واسترقَّ مائة ألفٍ ، وفرَّق فى البلاد مائة ألف ، وانتقل رخام إيلياء وآلاتها إلى الأندلس ، والغرائبُ التى أُصِيبَتْ من مغانم الأندلس كمائدة سليمانَ التى ألفاها طارقُ بن زياد بكنيسة طليطلة ، وقُلَيْلة الدرّ التى ألفاها موسى بن نُصَيْر بكنيسة ماردة وغيرها من الذخائر ، إنّما كانَتْ ممَّا صار لصاحب الأندلس من غنيمة بيت المَقْدِس إذ حضر فَتْحَها مع بُخْت نَصَّر .

وحَكَوْا أنّ الخِضْر وقف بإشبان هـذا وهو يحرث الأرض فى حداثته فقال له : يا إشبان ، إنَّك لذو شأن ، وسوف يُحظيك زمان ، ويعليك سلطان ؛ فإذا أنت غلبت على إيلياء ، فارفق بذرِّيَّة الأنبياء ! فقال له إشبان : أساحِرٌ أنت رحمك الله ؟ أنَّى يكون هذا وأنا ضعيف مهين ؟ فقال : قدَّر ذلك من قدَّر فى عصاك اليابسة ما تراه ! فنظر إشبان إلى عصاه فرآها قد أورقَتْ ، فريع لما رأى ، وذهب الخِضْر عنه وقد وقر ذلك الكلام فى نفسه ، والثقة بكونه ؛ فترك الامتهان ، وداخل الناس ، وصحب أَجَلَّ الناس ، وسما به جدُّه ، فارتقى فى طلب السلطان حتَّى نال منه عظيماً ؛ وكان ملكُهُ عشرين سنة .

واتصلت مملكة الإشبانيين بَعْدَهُ إلى أن ملك منهم الأندلس خمسة وخمسون ملكاً[١].

وكانت بطالِقة آثارٌ وعجائب غريبة؛ فمن ذلك صورةُ جاريةٍ من مَرْمَر لم تُسمَع فى الأخبار، ولا رُوِى فى الآثار، صورةٌ أبدَع منها فى قالب جارية، كامِلَة القدّ، حسنة الجسم، جميلة الوجه، صُوِّرَ كلُّ عضوٍ من أعضائها، وكلُّ جارحةٍ من جوارحها على أتمّ ما يكون، وأفضل ما يُستحسن فى جوارح المرأة؛ وفى حِضْنها صورةُ صبيٍّ على مَثَلٍ من الحكمةِ والإتقان، وقد صُوِّرت حَيَّةٌ تصْعَد من قَدَمها كأنها تُريد نهْشَ الصبيّ، فنَظَرُها بيْنَ مَصْعَدِ الحيّة ومكان الطّفل كالمشْفِقة الحَذِرة يتبيَّن ذلك فى التفاتها، ولو وقف الناظر لتأمُّلِها عامَّةَ نهاره لم يَسْأَمْ ذلك ولا مَلَّهُ، لِدقيقِ صنعتها وغريب حكمتها؛ وهذه الصورة موضوعةٌ فى بعض حمّامات إشبيلية، وقد تعشّقها[٢] جماعةٌ من العوامّ، وشغف بها أُناس من الطّغام؛ فتعطّلَتْ أشغالهُم، وانقطعت متاجرُهم بالنظر إليها.

١١٣ — طَبِيرَة

لا أدرى أهى طلبيرة بزيادة لام أو غيرها، فإن كانت هى فهى مذكورة بعد.

١١٤ — طَرَسُونَة

بالأندلس، كانت مستقرَّ العمّال والقوّاد بالثغور، وكان أبو عثمان عُبَيْد الله بن عثمان المعروف بصاحب الأرْض اختارها محلاً، وآثرها على مدن الثغور منزلاً؛ وكانت تَرِدُ عليه عُشُر مدينة أربونة وبرشلونة، ثم عادَتْ طرسونة من بنات تَطيلة عند تَكاثُرِ الناس بتطيلة، وإيثارهم لها، لفضل بُقْعَتها، واتّساع خطّتها، وبينهما اثنا عشر ميلاً.

(١) ما تقدم هو تكرار لبعض ما فى ترجمة « الأندلس » راجع أعلاه ص ٥ .

(٢) ش و ص : « تعشقها » .

١١٥ – طُرْطُوشَة

من بلنسية إلى طُرْطُوشة مائة ميل وعشرون أميال ، مسيرة أربعة أيّام .

* وهى فى سفح جبل ، ولها سورٌ حصينٌ ، وبها أسواقٌ وعماراتٌ وضياع[1] وفَعَلَة ، وإنشاءٌ للمراكب الكبار من خشب جبالها ، وبجبالها خشب الصنوبر الذى لا يوجد له نظيرٌ فى الطّول والغلظ ، ومنه تتّخذ الصوارى والقُرى ، وهو خشب أحمر صافى البشرية[2] بعيد التغيُّر ، لا يفعل فيه السوس ما يفعله فى غيره من الخشب ، ومنها إلى طَرَّكونة خمسون ميلاً ، وبينها وبين البحر الشأميّ عشرون ميلاً[3] .

وقَصَبَة طرطوشة على صخْرَةٍ عظيمةٍ سهلة الأعلى ، وفى الشرق من القصبة جبل الكَهْف[4] (وهو جبل أجرد) والمُصَلَّى ؛ والمدينة فى غربيّ القَصَبة وجوفيّها ؛ وعلى المدينة سورُ صخرٍ من بناء بنى أُميّة ، على رسم أوّليّ قديم ؛ ولها أربعة أبواب ، وأبوابها كلُّها ملبّسةٌ بالحديد ، ولها أرباض من حومة الجوف والقبلة ودارُ الصِّناعة قد أحدق على ذلك كلّه سورُ صَخْرٍ حصينٌ ، بناه عبد الرحمٰن بن النظّام ، وبها جامعٌ من خمس بلاطات ، وله رَحْبَةٌ واسعةٌ ، بنى سنة ٣٤٥ ؛ وبها أربعة حمّامات ، وسوقُها فى الرَّبَض القبليّ جامعةٌ لكلّ صناعة ومتجر ، وهى باب من أبواب البحر ، ومَرْقًى من مَرَاقيه[5] ، تحلُّها التجار من كلّ ناحية ، وهى كثيرة شَجَر البَقْس ، ومنها يفترق إلى النواحى ، وخشبُها الصنوبر له خاصّيّةٌ فى الجودة تفوق جميع خشب الأمصار . وقَصَبة طُرطوشة فى المنعة والسموّ

---

(١) ار : « صنّاع » (٢) ار : « البشرة » (٣) ار ص ١٩٠ ، راجع ار س ص ٦٩

(٤) ت : « الكهن » ، س : « الكهر » (٥) كذا فى س مصححا . وفى ت . « مرفأ

إلى حدٍّ لم يستوفِهِ بالصفة إلاَّ عبد الملك بن إدريس الكاتب المعروف بالجَزِيرِيّ ، حين سجنه بها المنصورُ بن أبى عامر ، فقال يصِفُ حالَه هناك من قصيدةٍ طَوِيلةٍ مشهورةٍ [كامل] :

فى رأسِ أجرد شاهقٍ عالى الذُّرى   ما بَعْدَه لمؤمِّلٍ من مُنْصِرِ
يَهْوِى(١) إليه كلُّ أعور(٢) ناعق   وتهبُّ فيـــه كلُّ ريحٍ صَرْصَرِ
ويكاد من يرقى إليــه مرَّةً   من دَهْرِه(٣) يشكو انقطاع الأَبْهَرِ(٤)

وأوّل هذا الشعر :

أَلْوَى بعزم تجلُّدى وتصـــبُّرى   نَأْىُ الأحبَّـــة واعتماد تذكُّرِ
شحط المزارُ فلا مَزَارَ ونافَرَتْ   عينى الهجوعَ فلا خيال يعـــترى
وقصرت عنهم فاقتصرت على جَوًى   لم يدع بالوانى ولا بالمُقْصِرِ

ومن أهل طُرطوشــة ، الفقيهُ الإمامُ الزَّاهدُ ، أبو الوليد الطُّرْطوشىُّ الفِهْرِىُّ ؛ نزل الإسكندريَّة ، صاحب التَّعْلِيقَة فى الخلاف ، وكتاب الحوادث والبدع وغير ذلك ؛ سكن بغداد ، وتفقَّه على أبى بكر الشاشى ، وسمع بها الحديث وهو مالكىُّ المذهب . قالوا : وزهدُه أكثرُ من علمه ، وانتفع به جماعةٌ ، وانجلب إليه أكثر من مائتَىْ فقيهٍ مُفْتٍ ؛ ومن كبار أصحابه أبو الطاهر بن عوف ، وسند بن عنان الأزدىُّ ؛ وعَاصَرَ الغَزَّالِىَّ ، وله فى إحْيَائِهِ كلامٌ ، وكان منحرفًا عنه ، سيِّئَ الاعتقاد فيه ؛ وكانَتْ وفاتُه بعد العشر والخمسمائة .

١١٦ — طَرَّكُونَة

بالأندلس ، بَيْنَها وبَيْن لارِدة خمسون مِيلاً . وطَرَّكونة مدينة أَزَلِيَّة ، قاعدة من

(١) مو : « يأوى »   (٢) ت و سه : « جرد »   (٣) مو : « من عمره »

(٤) راجع المطمح للفتح ص ١٥ (ط . مصر) ، و مو ج ١ ص ٣٨٦ .

قواعد العمالقة(١) ، وجعلها قُسْطَنْطِين فى القسم الثالث من الأندلس ، وأضاف إليها مُدُنَ ذلك القسم .

* وهى مَبْنِيَّة على ساحل البحْر الشأمىّ ، ومعالمُهَا باقيةٌ لم تتغيَّر ، وأكثر سورها باقٍ لم يتهدَّم ، وهى أكثر البلاد رخامًا محكمًا ، وسورُها من رخام أسود وأبيض ، وقليلاً ما يوجد مثله(٢) ؛ ومن الغرائب بطرّكونة أرحاء نَصَبَها الأُوَل ، تطحن عند هبوب الريح وتسكن بسكونها ؛ وذكر أهلُ العلم باللسان اللَّطينىّ أنَّ معنَى طرّكونة « الأرض المشبهة بالجنة »(٣) ، وكانَتْ فى قديم الزمان خاليةً ، لأنَّها كانت فيما بين حدّ المسلمين والرُّوم ؛ والأخياس(٤) بها كثيرة ، ومبانيها كبيرة ، وبها أسَاطِين رفيعة ، مما تضلُّ الأوهام فى حكمته ، ويعجز المتكلّفون اليوم عن صنعته . وذَكَرَ شيخٌ ثقةٌ من أهل شِنْتَرِانة ، يقال له ابن زَيْدان ، أنَّهُ كان يخرج فى السرايا إلى تلك الناحية ، فنزل فى بعض خرجاته مع جماعة من أصحابه فى البنيان الذى تحت مدينة طَرَّكونة ، فأرادوا التحوُّل منه فضلُّوا ولم يهتدوا منه لمَخْرَج ، وتردَّدُوا كذلك ثلاثة أيَّام ، حتَّى هُدُوا فى آخر اليوم الثالث لما أراد الله تعالى من إبقائهم . وزعم قومٌ أنَّهم وجدوا هناك بيوتًا مملوءةً قمحًا وشعيرًا من الأزمان السالفة ، قد اسودَّ حبُّه ، وتغيَّر لونُه ؛ وفى هذه المدينة يكمن المسلمون عند طلب الفُرصة فى الغَزْو ، وفيها يكمُن العدوُّ أيضًا للمسلمين .

١١٧ — طَرْيَانَة

من كُوَر إشبيلية بالأندلس ، كان بها الفُنْش بن فَرْذِلَنْد الطاغية واعَدَ قُوَّادَ

(١) ت و س : « التمالك » (٢) ادرسى ص ٦٩ (٣) ت : « بالمجنة » .

(٤) ت : « الأخياش » ، س : « الأحياش » ولعله « الأحناش » .

جيوشِهِ للاجتماع فيها عامَ الزَّلاَّقَة لمحاصرة ابن عبّاد بإشبيلية فى سنة ٤٧٩ ، فأخاف الله ظنَّهُ ، وعكس عليه أمَلَه ؛ وكان ما كان فى الزّلاّقة من نصر الله تعالى للمسلمين والفتح لهم ، فله الحمد ؛ وقد مرّ ذلك فى رسم الزّلاّقة . ومن كلام عامّة إشبيلية لفتك[1] :

« وطريانة تؤدى الجُعَلَ ! »

١١٨ — طَرِيف

اسمُ بلَدٍ جزيرةِ طريف ، على البحر الشأمىّ ، فى أوّل المجاز المسمَّى بالزُّقاق ، ويتّصل غربها ببحر الظلمة ؛ وهى مدينةٌ صغيرة عليها سورُ ترابٍ ؛ ويشقّها نهرٌ صغير ، وبها أسواقٌ وفنَادق وحمّامات ؛ ومن جزيرة طريف إلى الخضراء ثمانية عشر ميلاً .

وكتَبَ موسى بن نُصَير إلى الوليد يستأذنه فى اقتحام الأندلس ؛ فراجعه : خُضْها بالسرايا ، ولا تغرِّرْ بالمسلمين فى بحرٍ شديد الأهوال ! فراجعه : لَيْس ببحرٍ زَخَّارٍ إنّما هو خليجٌ يتبيَّن للناظر ما خلفَه ! فجاوبه : وإن كان فلا بدّ من اختبارِه بالسرايا قبل اقتحامه ! فبعث موسى رجلاً من مواليه من البَرْبر اسمه طريف ، يكنى أبا زرعة ، فى أربعمائة رجل ، معهم مائة فرس ، فى أربعة[2] مراكب ؛ فنزل بالخضراء التى هى معبر سفائنهم[3] ؛ وهى التى يقال لها اليوم جزيرة طريف لنزوله بها ؛ فأغار عليها ، فأصاب سَبْياً ، لم يَرَ موسى ولا أصحابُه مثلَه حُسْناً ، ومالاً جسيماً ، وأمْتِعة ؛ وذلك سنة ٩١ .

١١٩ — طَلَبِيرَة

بالأندلس أيضاً ، بيْنها وبيْن وادى الرَّمَل خمسة وثلاثون ميلاً ؛ وهى أقصى ثغور

(١) كذا فى س مصحح وفى ت : « لنك » (٢) ت و س : « أربعائة »

(٣) كذا فى ت و س .

المسلمين ؛ وباب من الأبواب التى يُدْخل منها إلى أرض المشْرِكين ، وهى قديمةٌ أَزَلِيَّةٌ على نهر تَاجُه . وهى فى الجزء الثالث من قسمة قُسْطَنْطِين .

* وهى مدينةٌ كبيرةٌ ، وقلعتُها أرفع القِلاع حِصناً ، ومدينتها أشرف البلاد حسناً ، وهو بلد واسع الساحة ، كثير المنافع ، به أسواق وديارٌ حَسَنَةٌ ؛ ولها على نهر تَاجُه أرْحاء كثيرة ، ولها عملٌ واسعٌ ، ومزارعها زاكية ؛ وبيْنها وبيْن طليطلة سبعون ميلاً[1] .

١٢٠ – طَلَمَنْكَة

مدينةٌ بثغر الأندلس ، بناها الأميرُ محمَّد بن عبد الرحمٰن ؛ منها أحمد بن محمَّد بن عبد الله بن لُبّ بن يحيى المَعافِرىُّ الطّلَمَنْكِىُّ المُقْرِئُ ؛ وبيْنها وبيْن وادى الحِجَارة عشرون مِيلاً .

١٢١ – طَلْيَاطَة

بالأندلس ، بَيْنها وبيْن إشبيلية محلّة من عشرين مِيلاً ؛ ومن طَلْيَاطَة إلى لَبْلَة محلّةٌ مثلها .

وفى جمادى الأُولى من سنة ٦٢٢ كانَت الوقيعة على أهل إشبيلية بفحص طلياطة ، فأغار الروم الغربيُّون على تلك الجهة ، وغنموا ما وجدوا ، وساقوا ما أصابوا ، والعادلُ صاحبُ المغرب يومئذٍ بإشبيلية ، ووزيره أبو زَيْد بن وجّان ، ومعهما أهل الدولة وأشياخ الأمر ، ولا غناء لديهم ، ولا مدفع عندهم ، إذ كان الأمر قد أدبر ورَوْنقُ الدَّوْلة قد

(١) إد ص ١٨٧ .

تَغَيَّر . ومن نزلت به من الناس مصيبةٌ أو أغير له عَلَى سَرْحٍ لمْ يَرْجُ مُغيثًا ولا يجد نصيرًا ؛ وكان خَبَرُ هؤلاء الرُّومِ بلغ إشبيلية قبل ذلك بأيَّام ، واجتمع جمعٌ كثير من العامَّة فى المسجد الجامع ، فلما فُرِغ من صلاة الجمعة قاموا فصاحوا بالسلطان يحملونه عَلَى الخروج ؛ فلمَّا كان يوم السبت خرج المُنادِى يُنَادِى الناس بالخروج ، فأخذوا فى ذلك وتجهَّزُوا ، وخرج بعضهم فى ذلك اليوم ، ولما كان يوم الأحد جدَّ بالناس ، فخرجوا عَلَى كلّ صعب وذلول ، كبارُهم وصِغَارُهم ، بسلاحٍ وبغير سلاح كما يخرجون إلى نُزْهَتهم فى البساتين والجنّات ، فتكامَلَ بعضُهم فى جهة طَلْيَاطَة يوم الأحد ، ولم يخرجْ معهم من الخيْل إلاَّ دون المائة ؛ والروم فى عددٍ ضخمٍ ، عليهم الدروع ، وبأيديهم الأسلحةُ ، وأكثر جميع المسلمين بغير سلاح إلاّ ما لا قدرة له ، وإنما هم أهل الأسواق والباعَة ؛ وكان فى من خرج من الجُنْد أبو محمّد عبد الله بن أبى بكر بن يزيد ، وهو أعلم بالحرب من هؤلاء الرعاع والغوغاء الذين لا يعقلون ، فصاحوا به أن يسير إلى لقاء العدوّ ، فأبى عليهم ونهاهم وحذَّرهم ؛ فأبَوْا عليه إلاّ اللقاء ، وسَبُّوه ، وآذَوْه بالقول ؛ فزهدهم وانصرف عنهم ، هو ومن كان معه من الخيل ، إذ رَأَوْا ما لم يَرَوْه ، وعاينوا ما لم يُعَاينوه ، وأبصروا ما لا طاقة لهم به ؛ فلمَّا رأى الرومُ ذلك مالوا عَلَى أولئك العامَّة ، فلمَّا رَأوهم مستقبلين لهم أخذوا فى الفرار ، فوقع القتلُ بهم ، فأُفْنِيَ منهم بالقتل وأُسِرَ منهم كثيرٌ ، وأفْلَتَ كثيرٌ ؛ وكان الناسُ بعدُ يختلفون فى مقدار من أُتى القتلُ عليه من أهل إشبيلية والأسرُ ، فمُقَلِّلٌ ومُكَثِّرٌ ، فالمُكَثِّر يقول بلغوا عشرين ألفًا ، وقيل دون ذلك ، فالله أعلم . وخرج العادلُ من إشبيلية متوجِّهًا إلى حضرة مَرَّاكُش فى ذى القعدة من هذه السنة ، وهى سنة ٦٢٢ .

١٢٢ — طُلَيْطُلَة

بالأندلس ، بينها وبين البُرْج المعروف بوَادِي الحِجَارة خمسة وستُّون ميلاً ، وهى مركزٌ لجميع بلاد الأندلس ، لأنَّ منها إلى قرطبة تسع مَرَاحِل ، ومنها إلى بلنسية تسع مَرَاحِل أيضاً ، ومنها إلى المريَّة فى البحر الشأمىِّ تسع مَرَاحِل أيضاً .

* وطليطلة عظيمة القطر ، كثيرة البشر ، وهى كانَتْ دارَ المُلْكِ بالأندلس حين دخلها طارقٌ ؛ وهى حصينةٌ ، لها أسوارٌ حسنة ، وقَصَبة حصينة ، وهى أزليّة من بناء العَمَالِقة ، وهى على ضَفَّة النهر الكبير ، وقَلَّ ما يُرى مثلها إتقاناً وشماخَةَ بنيانٍ ، وهى عالية الذرى[1] ، حسنة البقعة ، ولها قنطرة من عجائب البنيان ، وهى قوسٌ واحدةٌ ، والماء يدخل تحتها بعنفٍ وشدَّةِ جَرْيٍ ، ومع آخر القنطرة[2] ناعورة ، وارتفاعُها فى الجوِّ تسعون ذراعاً ، وهى تُصْعِد الماءَ إلى أعْلَى القنطرة ، ويجرى الماء على ظهرها فيدخل المدينة[3] .

وكانت طليطلة دارَ مَمْلَكة الروم ، وكان بطليطلة بيتٌ مُغَلَّق مُتَحَامَى الفتح على الأيَّام ، عليه عِدَّةٌ من الأقفال ، يلزمه قومٌ من ثقات القُوط قد وُكِّلوا به لئلاَّ يُفتح ، قد عهد الأوَّلُ فى ذلك إلى الآخر ، فلما قعد لُذْريقُ مَلِكاً أتاه أولئك الموكَّلون بالبيت يسألونه أن يقفل على الباب فقال : لا أفعل حتَّى أعلم ما فيه ولا بدَّ لى من فتحه ! فقالوا : أيُّها الملك إنَّه لم يفعل هذا أحَدٌ قبلك ! فلم يلتفتْ إليهم ومضى إلى البيت ، فأعْظَمَتْ ذلك العَجَمُ ، وضرع إليه أكابرُهم ، فلم يفعل وظنَّ أنَّه بيتُ مالٍ قد احترمته الملوك ؛

(١) ت و س : « القدر » . (٢) ت : « النهار » ، س : « النهر » (٣) ار ص ١٨٧ .

ففَضَّ الأقفال عنه ، ودَخَلَ ، فأصابه فارغًا لا شيء فيه إلاَّ تابوتًا عليه قفلٌ ، فأمر بفتحه فألفاه أيضاً فارغًا ليس فيه إلا شقّة مُدْرَجَةٌ صُوِّرَتْ فيها صُوَرُ العرب ، عليهم العمائمُ وتحتهم الخيلُ العرابُ ، متقلِّدِى السيوف ، مُتَنَكِّبِى القِسِىّ ، رافعِى الرايات على الرِّماح ، وفى أعلاها أسطرٌ مكتوبة بالعجميَّة فقُرِئَتْ فإذا فيها : إذا كُسِرت الأقفال عن هذا البيْت ، وفُتِحَ هذا التابوت[١] ، وظهر ما فيه من هذه الصُّوَر ، فإنَّ هذه الأمَّة المُصَوَّرة فى هذه الشقَّة تدخل الأندلس فتغلب عليها وتَملكُها ! فوجم لُذْرِيق وندم على ما فعل ، وعظُم غَمُّهُ وغَمُّ العَجَم بذلك ، وأمَرَ بردّ الأقفال ، وإقرار الحُرَّاس ، وأَخَذَ فى تدبير مُلْكه ، وذهل عمَّا أُنْذِر به ، إلى أن كان من أمر يليان عامل لذريق على سبتة وأمر ابنتهِ فى الخبر المشهور ما سبَّب إثارة عزمه على إدخاله العربَ إلى الأندلس ، إلى أن كان ذلك وسَبَّبَ الله فتحها بسبب ذلك[٢] ، وما بعد ذلك يُذْكر فى غير هذا المكان .

* ووجَدَ أهلُ الإسلام فيها ذخائر عند افتتاح الأندلس ، كادَتْ تفوقُ الوصْفَ كثرةً ؛ فنها مائة وسبعون تاجاً مرصَّعة بالدرِّ ، وأصناف الحجارة الثمينة ، ووجد فيها ألفَ سيف مجوهر ملوكىّ ، ووجد بها من الدرّ والياقوت أكيالاً وأوْساقاً ، ومن آنية الذَّهَب والفضَّة وأنواعها ما لا يحيط به وصفٌ[٣] ، ووجد بها مائدَةَ سليمان بن داوود ، وكانَتْ فيما يُذْكر من زمرُّدة ، وهذه المائدة اليومَ فى مدينة رومية[٤] .

وزعم رُوَاةُ العَجَم أنَّها لم تكن لسليمان ، وإنَّما أصلها أنَّ العجم ، فى أيَّام ملكهم ، كان أهل الحسبةِ فى دينِهم ، إذا مات أحدُهم أوصى بمالٍ للكنائس ، فإذا اجتمع عندهم ذلك

(١) ث و س : « البيت » .
(٢) راجع ما قد ذكر أعلاه ص ٨ .
(٣) ا ر « تحصيل » .
(٤) ا ر ص ١٨٧ — ١٨٨ .

المال صاغوا منه آلات من الموائد والكراسيّ وغيرها ، من الذهب والفضّة ، يحمل الشمامسة والقسوس فوقها مصاحفَ الأناجيل إذا أُبْرِزَتْ فى أيّام المناسك ، ويضعونها على المذابح فى الأعياد للمباهاة بزينتها ، فكانت تلك المائدة بطليطلة ممّا صُيِّغ[1] فى هذه السبيل ، وبالغت الأملاك فى تحسينها[2] ، يزيد الآخر منهم فيها على الأوّل ، حتّى برزَتْ على جميع ما اتُّخذ من تلك الآلات ؛ وطار الذِّكر بها كلَّ مطار . وكانت مَصُوغَةً من خالص الذهب ، مرصَّعَةً بفاخر الدُّر والياقوت والزَّبرجد[3] ، لم ترَ الأعْيُنُ مثلها ، فولع فى تحسينها من أحلّ دار المملكة[4] . وأنه لا ينبغى أن يكون بموضع آلةُ جمالٍ أو متاعُ مباهاةٍ إلاّ دون ما يكون فيها ؛ وكانت توضع على مذبح كنيسةِ طليطلة فأصابها المسلمون هناك . وقصّةُ اتّصالها إلى سليمان بن عبد الملك ومنازعة موسى بن نُصَيْر وطارق مولاه فى رحلتهما مشهورة .

قال ابن حيّان : ومضى طارق خلف فرار أهل طليطلة ، فسلك إلى وادى الحجارة ، ثمّ استقبل الجبلَ فقطعه ، فبلغ مدينة المائدة ؛ والمائدة خضراء من زَبَرْجَدة ، حافاتُها منها ، وأرجُلُها ؛ وكان لها ثلاثمائة وخمسة وستّون رِجْلاً ، فأحرزها عنده .

* وبطليطلة بساتين محدقة ، وأنهار مخترقة ، ودواليب دائرة ، وجنّات يانعة ، وفواكه عديمة المثل ؛ ولها من جميع جهاتها أقاليم رفيعة ، وقلاع منيعة ؛ وعلى بُعد منها فى جهة الشمال ، الجبل العظيم المعروف بالشّارّات ، فيه من البقر والغنم الشىء الكثير ، الذى يتجهّز به الجلاّبون إلى سائر البلاد ؛ ولا يوجَد شىء من أبقاره وأغنامه إلاّ فى

(١) بت و س : « صنع » . (٢) صوه : ج ١ ص ١٧٢ : « تأنقت الأملاك فى تفخيمها » .
(٣) صوه : « الزمرد » . (٤) صوه : « فبولغ من تحسينها من أجل دار المملكة » .

غاية من السمن ، ولا يوجد مَهْزُولاً ألبتَّة ، ويُضرب به المثلُ فى ذلك فى جميع الأقطار بالأندلس ؛ وعلى مقربة من طليطلة قريةٌ تُسَمَّى بِغَام ، وجبالها وترابها الطينُ المأكولُ يتجهَّز به منها إلى مِصْرَ والشأم والعراق . وليس على قرار الأرض مثله فى لَذَّة أكله ، وتنظيف غِسْل الشَّعْرِ به ؛ وفى جبل طليطلة مَعَادن الحديدِ والنحاس[1] .

* وزعموا أنَّ اسم طليطلة باللَّطينىّ « تولاظو » معناه « فرح ساكنوها » ، يريدون لحصانتها ومنعتها ؛ وفى كتاب الحدثان كان يقال : « طليطلة الأطلال ، بُنِيَتْ على المرج والقِتَال ؛ إذا وادعوا الشرْك ، لم يقم لهم سوقة ولا مُلْك ؛ على يدى أهلها يظهر الفساد ، ويخرج الناس من تلك البلاد . »

ومدينة طليطلة قاعدة القُوط وَدارُ مملكتهم ، منها كانوا يغزون عدوّهم ، وإليها كان يجتمع جيوشُهم ، وهى إحدى القواعد الأربع ، إلاَّ أنَّها أقدمهنَّ ؛ ألفتْها القياصرة مبنيَّةً ، وهى أوَّلُ الإقليم الخامس من السبعة الأقاليم التى هى ربعُ معمورِ الأرض ، وإليها ينتهى حَدُّ الأندلس ، ويبتدئ بَعْدَها الذكْرُ للأندلس الأقصى ، أوفَتْ على نهر تاجُهْ ، وبها كانت القنطرة التى يعجز الواصفون عن وَصفها ، [وكان خرابها أيَّامَ الإمام محمّد[2]] .

ومن خواصّ طليطلة أنّ حنطتها لا تسوّس على مرّ السنين ، يتوارثُها الخلفُ عن السَّلف ، وزعفران طليطلة هو الذى يَعُمُّ البلاد ، ويتجهَّز به إلى الآفاق ؛ وكذلك الصبغ السَّماوىُّ[3] .

وأوّل من نزل طليطلة من ملوك الأندلس لوبيان ، وهو الذى بنى مدينة رقابل ،

(١) ا و ص ١٨٨ . (٢) ز فى ب ه . (٣) ب ه ص ٢٥٢ .

وهى على مقربة من طليطلة ، وسمّاها باسم ولده ؛ ومنها ولّى الأساقفة على الكُوَر ، وبها مجتمعُهم للمشورة ، وكان عددُهم ثمانين أسْقُفاً لثمانين مدينة من حوز الأندلس ، كجلّيقيّة وطرّكونة وقرطاجنّة ، وكانت قبل ولايته فرقاً ، فائتلف أمرُ الناس وانقطع الخلاف ، وأحبّه الخاصُّ والعامُّ ؛ وهو الذى بنى الكنائس الجليلة ، والمعالم الرفيعة ، وبنى الكنيسة المعروفة بالمردقة ، واسمه مَزْبُورٌ على بابها ، وهى بين حاضرة إلبيرة ووادى آش .

وبطليطلة أُلفيت ذخائر الملوك ، وعلى مقربة من طليطلة قرية قنيشرة[1] ، وهى حارّتان فيهما عَيْنا ماء ، إذا نَضَبَت[2] إحْداهما جرَت الأخرى ، هذا دأبُهما كلّ عامٍ ، وهما يتعاقبانِ لا يجريانِ فى زمانٍ واحدٍ ، وغربيّها على نحو عشرين ميلاً منهما تمثالانِ عظيمانِ على صورة طورَيْن قد نُحِتا من حَجَرٍ صَلْدٍ . وذكر بعضُ المؤرّخين أن طارقاً لما غزا طليطلة اعترض جنده وهو راكب أحدَهما . قالوا : لما مضى طارق بن زياد إلى طليطلة دار مملكة القُوط ألفاها خاليةً ، وقد فرّ أهلها عنها ، فضمّ إليها اليهودَ وخلّى بها رجالاً من أصحابه ، ومضى خلف فرار أهل طليطلة ، فسلك إلى وادى الحجارة ، ومنه اقتحم أرض جِلِّيقِيَّة فخرّبها ودوّخ الجهة ، ثمّ انصرف إلى طليطلة ، وذلك فى سنة ٩٣ من الهجرة .

وفى سنة ٤٥٠ نتجَتْ بغلَةٌ بطليطلة فِلْوًا فى صورة مهرٍ ، وكانَتْ بغلةً كُمَيْتًا لبعض السقّائين ، فتشاءم به النّصارى ، ولم يزالوا يختلونه حتّى عَقَرُوه ؛ وبِقُلَّة العِهْن من جوفىّ طليطلة على خمسة وعشرين ميلاً منها بئرٌ لا يُعرف فيها قطُّ علَق ، فنُبِشت فى بعض السنين ليكثُرَ ماؤها ، فكثُر العَلَقُ فيها كثرةً مُفْرِطَةً ، فنظروا فيما

(١) ت : « قنيرشه » .   (٢) ت و س : « انصبت » .

استخرجوه من نبشها فإذا فيه عَلَقَةُ نحاسٍ ، فرُدَّتْ فى البئر فانقطع العَلَق منها . وقيل إنَّما ذلك فى حِصْنِ وَقَّش فى عينٍ نحو الحصن . وفى قريةٍ على عشرةِ أميالٍ من طليطلة فى طريق مَجْرِيط بئرٌ معروفةٌ ، إذا شَرِب من مائها المَعْلُوقُ أسقطت العَلَق ، إنساناً كان أو دابَّةً أو غير ذلك .

وكان أَخْذُ النصارى لطليطلة فى مُنْتَصَف محرَّم سنة ٤٧٨ .

١٢٣ — طيلاقة

بيْنها وبيْن إشبيلية مِيلانِ .

حرف العين

١٢٤ – عَفْص

بالأندلس ، بقرب مُرْسية ، فيها كانتْ وقيعةٌ للروم على أهل مُرْسية فى رَجَبها ، ذهب فيها من أهل مُرْسية بين قتيل وأسير نحو أربعة آلاف رجل ؛ وكان الرومُ أغاروا على تلك الجهة ، فخرج إليهم أهل مُرْسية ، وكانوا عابوا على أهل إشبيلية مثلها ، حين وقعتْ عليهم الهزيمة بفحص طَلْيَاطة ، ونسبوهم إلى الضعف والخَوَر وقلّة الدربة[1] بالحروب ، فلم تمضِ الأيّام حتّى امتحنهم الله بهذه الوقيعة ؛ وكان صاحبُ جيشِ هذا اليومِ أبو علىّ بن أَشَرْقِى .

قال صاحب المُلْتَمِس: كائنة عفص هى أُخْتُ كائنة طَلْيَاطة المتقدّمة فى سنة ٦٢١ ، كانت هذه فى غَرْب الأندلس وهذه فى شرْقها ، وكان عُبّاد الصليب قد وصلوا إلى عَفْص من عمل مُرْسية ، فخرج عسكر مُرْسية ومعهم العامّةُ ، فقُتل منهم كثيرٌ وأُسر منهم كثيرٌ . وفيها يقول أَحَدُ المُرْسِيّين [متقارب] :

موقّعة عَفْص وطَلْيَاطة ... تكامل إقبال أَيّامِنَا
فبالغَرْب تلك وبالشرْق ذى ... أناخا على شُمِّ أَعْلاَمِنا
وَفى وَسَط الأرْض قَيْجَاطَة[2] ... ولَوْشة قما[3] بأحلامنا

---

(١) شـ و سهـ : « الذربة » . (٢) شـ و سهـ : « قيطاجة » .

(٣) كذا فى شـ و سهـ .

وليس الصليبُ يرى جائعاً تواتر أعـــدا[١]....منَا

وسيّدُنا ناظرٌ فى الجواز يروم النجاةَ بإسْـلاَمِنَا

١٢٥ — العِقَاب

(بكسر العين) بالأندلس بين جيّان وقلعة رَباح ، كانَتْ فى هذا الموضع موقعةٌ عظيمةٌ ، وهزيمةٌ على المسلمين شنيعةٌ ؛ فى منتصَف صفر من سنة ٦٠٩ . وذلك أن الملِكَ النَّاصِرَ أميرَ المؤمنين ، محمَّد بن المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن مَلِك المغرب ، كان تحرَّك من مرَّا كُش إلى الأندلس ، فأحلَّ بإشبيلية ، ثمَّ تحرَّك منها إلى قرطبة ، ثمَّ نزل على حصنَىْ شَلْبَطَرَّة وَاللُّجّ فحاصرهما ، وضيّق عليهما . فملك حصن اللُّجّ أوّلاً ، ثمَّ حصن شَلْبَطَرَّة ، وَنصب عليها المجانيق الضخام ، وَرُمِيَتْ بالحجارة الضَّخْمة حتَّى ملكها عَلَى رَغْم الإذفونش صاحب طليطلة وقشتيلة ، ولم يكن له يومئذٍ قدرةٌ على دفاعه . وكان ذلك فى سنة ٦٠٨ ، حتَّى انتصفَ فى العام الذى يليهِ فى هذه الوقيعة . وَكان المَلِكُ الناصر أُعجب بفتح شَلْبَطَرَّة وكتبَ بذلك إلى الآفاق ، وخَفى عنــه ما فرط الغيوب من خبر العِقَاب ، ورجع إلى إشبيلية ظافراً غانماً ، ثمَّ استغاث الإذْفُونش بأهل مِلّته ، وحثّهــم على حمايةِ دِينهم ، فاستجابوا وانثالوا عليه من كلّ مكان .

وخرج إليه الناصر من إشبيلية فى العشرين من محرَّم سنة ٦٠٩ بحشود لا غَرَضَ لهم فى الغزو ، وقد أمسكت أرزاقهــم ، وقتّر عليهم ، مع ما كان من قتله لابن قَادِس صاحب قلعة رَباح ، بسبب إسلامه القلعةَ للنصارى ، من غير أن يسمع حجّته ،

(١) بياض نحو كلمة واحـدة فى ش و سه .

وإخراجِهِ من مجلسه الحشودَ الأندلسيَّة غضباً عليهم ، ومخادعةِ النّصارى لباقي الأجناد باشتهار الصُّلح والعمل على ضدّه ، حتَّى خالطوهم على غفلة ، فأخذ المسلمون فى فرارٍ ما سُمع بمثله ، وكان ذلك فى العِقاب بيْن جيَّان وقلعة رَباح ، فى منتصف صفر من سنة ٦٠٩ كما ذكرناه ، وكانت شنيعةً ؛ وفرَّ الناصِرُ لا يلوى على شىء حتّى وصل إشبيلية ، وتبعهم العدوّ حتَّى حال بيْنهم الليل ، وأخذوا خباءَ الساقة ، وماتت تحتهم الخيل ، فمشى ودافع بكلّ طريق سلكوه ، ومنهاجٍ وردوه ، وأتى القتلُ على خلقٍ كثيرٍ من المسلمين ، وقُتل فيها من الأعيان والطَّلَبة جملة ، منهم علىُّ بن الغَانِى الميورقىُّ وابن عاتٍ الفقيه[(١)] وغيرهما ؛ وكان فرس الملك الناصر بادِنًا فلم يُطِق الحركة ، فنزَل له بعض العَرَب عن فرسه وقال له : اركبْه فهو خير لك من هذا ! وكان أَمَرَ أبا بكر بن عبد الله بن أبى حَفْص بالوقوف تحت الراية ، وحملَت الرومُ فقصدت الرايةَ ظنًّا منها أنَّ الناصرَ عندها ، فوضعت السيفَ فيمن واجهها ، فقتلَت خلقاً ، وَقُتِل أبو بكر هذا ، وانهزم الناس ، واستولى العدوُّ على جميع المحلَّة وأكثرِ مضارِبها .

ثمَّ استولى الرُّومُ بعد ذلك على مدينتىْ بَسْطَة وَبَاغُو ، وما جاوَرَهُما من القُرَى والحصون ، وقتلوا الرجالَ وَسَبَوا الذّرِّيّة ، وكانَتْ هذه الوقيعة أوَّلَ وَهْنٍ دخل على الموحِّدين . فلم تقُمْ بعدَ ذلك لأهل المغرب قائمة ؛ وَلمّا انتهى الناصر إلى إشبيلية آنس البلادَ بخطاب كَتَبَهُ إليهم بزُخْرُفِهِ الكاذب ، ثمَّ جاز البحر إلى مرَّاكُش فتُوُفِّى فى قصره من مرّاكش سنة ٦١٠ ؛ قيل عضّه كلبٌ وقيل غير ذلك .

---

(١) ت و سه : « العقبة » .

حرف الغين

١٢٦ – غافِق

بالأندلس بقرب حِصْن بِطْرَوْش .

* وهو حِصْنٌ حصينٌ ، وَمَعْقِلٌ جليل ، فى أهله نجدةٌ وَحزمٌ ، وجلادةٌ وَعَزْمٌ ؛ وكثيراً ما تسرى إليهم سرايا الروم ، فيستنقذون منهم غنائمهم ، ويُخرجونهم من أرضهم ، والروم تعلمُ بأسهُم وبسالتَهم فيجتنبونهم[1] .

---

(١) ار ص ٢١٣ .

حرف الفاء

١٢٧ — فَحْصُ البَلُّوط

[الترجمة فى حرف الباء]

بالأندلس من ناحية قرطبة ، منه القاضى أبو الحكم مُنْذِر بن سعيد البلُّوطىّ . كان متفنّنًا فى ضروب من العلوم ، وكانَتْ له رِحْلَةٌ لَقِىَ فيها جماعةً منَ العلماء فى الفقه واللغة ، وكان كثير المناقب والخصال الحميدة غير مدافَع ، مع ثبات الجنان وجهارة الصوت وحسن الترتيل ؛ وله تفسيرٌ على الكتاب العزيز .

ومما جرى له مع عبد الرحمٰن الناصر أمير المؤمنين أنّهُ بَنى قُبّةً وَاتّخذ قراميدَ القبّة من فِضّة ، وَبعضها مُغَشّى بالذهب . وجعل سَقْفَها نوعَيْن صفراء فاقعة ، وبيضاء ناصعة ؛ يستلبُ الأبصارَ شُعاعُها ؛ فجَلَسَ فيها إثْرَ تمامِها لأهلِ مملكتِهِ ، وقال لقرابته ووزرائه مفتخرًا عليهم : أرَأَيتُمْ أمْ سمعتُمْ مَلِكاً كان قَبْلى صنع مثلَ ما صَنَعْتُ ؟ فقالوا : لا والله يا أمير المؤمنين ، وإنّكَ لأَوْحَدُ فى شَأْنِكَ ! فبينما هم على ذلك ، إذ دخل مُنْذِرُ بنُ سعيد واجِمًا نَاكِساً رَأْسَهُ ؛ فلمّا أَخَذَ مجلسه قال له ما قال لقرابته ، فأقبلَتْ دموعُ القاضى تحدر على لحيته وقال له : والله ! يا أمير المؤمنين ! ما ظَنَنْتُ أنّ الشَّيْطَانَ (لَعَنَهُ اللهُ) يبلُغُ منك هذا المبلغ ، ولا أن تُمَكِّنَهُ من قيادك هذا التمكين ، مع ما آتاك الله تعالى وفضّلك به على المسلمين ، حتّى يُنْزِلك منازلَ الكافرين ! فاقْشَعَرَّ عبد الرحمٰن من قوله ، وقال له : انظرْ ما تقولُ ! كيف أَنْزَلنى منازلهم ؟ قال : نعم ! أليس الله تعالى

يقول : « وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ »[(١)] الآيات . فوجَمَ الخليفةُ عبدُ الرَّحْمٰنِ ونكَسَ رَأْسَهُ مَلِيًّا ، ودموعُهُ تنحدرُ على لحيتِهِ خُشوعًا وتَذَمُّمًا لما جرَى ، ثمّ أَقْبَلَ على مُنْذِرِ بن سعيدٍ ، وقال له : جَزَاكَ اللهُ عنّا وعن الدين خيرًا ، وكثَّرَ فى الناس أمثالَك ! فالذى قلتَ ، واللهِ ! هو الحقُّ ! وقام من مجلسه ذلك يستغفرُ اللهَ تعالى ، وأمرَ بنَقْضِ سَقْفِ القُبَّةِ ، وأعادَهُ قِرْمَدًا على صِفَةٍ غيرِها[(٢)] .

ومن أخباره أنَّ الناصرَ لدينِ اللهِ أمرَهُ بالخروج للاستسقاء ، فخرج واجتمع له الناس فى مُصَلَّى الرَّبَض بقرطبة ، بارزين إلى الله تعالى ، فى جمعٍ عظيمٍ ، ثمَّ قام منذرُ بنُ سعيدٍ باكيًا ، خاشعًا لله تعالى ، فخطب فقال : « سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ! »[(٣)] ثمَّ قال : « اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا »[(٤)] ، قال : فَضَجَّ الناسُ بالبكاء ، وارتفعتْ أصواتُهُمْ بالاستغفارِ ، والتضرُّع إلى الله تعالى بالسؤال ، فما تمَّ النَّهارُ حتَّى أرْسَلَ اللهُ السماءَ بماءٍ مُنْهَمِرٍ[(٥)] .

وكان رحمه الله ، على متانة دينه ، وجزالته فى أحكامه ، حَسَنَ الخُلُق ، كثير الدُّعَابةِ ، ربَّما ارتابَ بباطِنِهِ من لا يعرفُهُ ، حتَّى إذا رام أن يُصيبَ من دينِهِ ثارَ به ثورةَ اللَّيْثِ العادِى ، قيل له : إنَّ قومًا من جيران أحد المتحاكين من أهل رَبَضِ الرُّصافة ، قد تألّبوا معه على خصمِهِ ، وأعانوه بشهادةٍ مدخولةٍ ، وهم غادون بها عليك ! وكان كثيراً

(١) قرآن كريم ٤٣ : ٣٢ . (٢) راجع مو ج ١ ص ٣٧٨ والمطمح للفتح ص ٤٥ — ٤٦ .

(٣) قرآن كريم ٦ : ٥٤ . (٤) قرآن كريم ٧١ : ٩ . (٥) راجع مو ج ١ ص ٣٧٦ .

ما تأتيه عيونُهُ بمثل ذلك ، فغَدَوْا عليه بمجاس نظره ، وكانت أسماء جميعهم متَّفقةً في الوَزْنِ على مثال فَعْلُون ، فأخذُوا مَوَاضِعَهُمْ ، وقام الَّذين يشهدون له ؛ فلما رأى القاضى أسماءهم قال رافعًا صوتَهُ : يا ابن صَيْفُون ، ويا ابنَ زَيْدُون ، ويا ابنَ سَحْنُون ، من الرَّبَضِ الملْعُون ، ألْقوا ما أنتم مُلْقُونَ ! فلمَّا سمعوا قولَهُ لاذوا عن الشهادة ، وخرجوا مُتَسَلِّلينَ ؛ فكُفِيَ شأنَهُمْ .

وكان نَظَّارًا لا يقنع بالتقليد ؛ ومن قوله فى استقصار هذه الفرقة [طويل] :

عَذِيرِيَ من قومٍ إذَا ما سَأَلْتُهُمْ دَليلاً يقولوا هٰكذَا قال مالِكُ
فإنْ زدْتُ قالُوا قال سَحْنُونُ مِثْلَهُ وقَدْ كان لا تَخْفَى عليه المَسَالِكُ
فإنْ قُلْتُ قال اللهُ ضَجُّوا وأَعْوَلُوا عليَّ وقالوا أنتَ خَصْمٌ مماحِكُ

ونوادرُه كثيرةٌ .

[الترجمة فى حرف الفاء]

بالأندلس ، بينه وبين قرطبة مرحلتان أوْ ثلاثٌ ، ومن هذا الفَحْصِ جَبَلُ البَرَانِسِ وفيه معدن الزئبق ، ومن هناك يُحْمل إلى الآفاقِ ؛ وبهذا الجبلِ الزَّيتونُ المتناهى فى الجَوْدَةِ ؛ وبموضع بقرب من معدن الزئبق جبلٌ يعرف بجبل المَعز ، فى شَعْرَاء هنالك حَجَرٌ يسمَّى حَجَر العَابِد ، فى وسطه قُلَّةٌ ، وهى حفرةٌ على قَدْرِ الصَّحْفَةِ بمقدار ما يُدْخِلُ الإنْسَانُ فيها يَدَيْهِ ، ويملؤها من ماء هناك ، فيشرب أوْ يصنع به ما احتاج إليه ، فيأتى إليه البقرُ الكثير فيكفيهم ، ويرجع إلى حدِّه لا يغيض ولا يغور ؛ وذكر من رآه أنّه جاءهُ فى نَيِّفٍ وثلاثين رَجُلاً أو نحو ذلك ، وهذا معروف هناك .

وبهذا الفَحْص بلادٌ وأسْوَاقٌ . وجباية هذا الفحْصِ فى عَهْد الأمير محمّد أَلْفانِ اثنان ، ويتَّصل بأَحْواز فحص البلُّوط أَحْوَاز فرِّيش ، وتنتظم قُرَاها بقُرَاها[1] .

وإلى فحص البلُّوط ينْسَبُ الفقيه القاضى أبو الحكم منذر بن سعيد البلُّوطىُّ ، وقد مَرَّ ذكره فى حرف الباء .

١٢٨ — فُرنْجُولُش

بالأندلس بقرب حِصْن المُدَوَّر .

* وهى مدينةٌ جليلةٌ ، كثيرةُ الكروم والأشجار ، ولها على مقربة منها مَعَادِن الذَّهب والفِضَّة بموضعٍ يُعْرَف بالمَرْج[2] .

١٢٩ — فرِّيش

موضع بالأندلس ، بين الجوف والغَرْب من قرطبة ، فيها مَعْدِن رخام ، والغالبُ بها أشجار القسطلُ ، وبها مَعْدِنُ حديدٍ ؛ ويتَّصِلُ بأحواز فرِّيش أَحْوَازُ فَحْصِ البلُّوط ، وبيْنها وبيْن قرطبة مرحلتانِ ، وبها قَرْيةٌ تُعرَفُ بقُسْطَنْطِينَة ، كانتْ مدينةً عظيمةً أَوَّليَّةً ، وفيها آثار الكنائس ، ويقال إنَّها بُنِيتْ فى أَيَّام قُسْطَنْطِين مَلِكِ الرُّوم ؛ وبيْنها وبيْن قرطبة أربعون مِيلاً .

١٣٠ — فنيَانَة

قريةٌ بقرب وادى آش من الأندلس ، جامعةٌ خطيرةٌ ، كثيرةُ الكروم والتوت

(١) سى : « وشطم قراءة يقرأها » . (٢) ا و ص ٢٠٧ .

والبَسَاتين وضُرُوبِ الثمارِ ، وكان بها طُرُزُ الديباج ، والمياهُ تَطَّرِدُ فى جميع جنَّاتها ، وأهلها عَجَمٌ ، ذوو يَسَار .

١٣١ — الفَهْمِين

مدينةٌ بالأندلس ، بالقُرب من طُلَيْطلة .

* وكانَتْ مدينةً مُتحضّرةً ، حسنةَ الأسْوَاق والمبانى ، وفيها مِنبَرٌ وَمَسْجِدٌ جامِعٌ ، وخطبةٌ قائِمةٌ ، وملكها الرُّومُ لمّا مَلَكُوا طُلَيْطلة[١] .

---

(١) ا و ص ١٨٨ .

حرف القاف

١٣٢ – قَادس

جزيرةٌ بالأندلس(١) عند طالِقة من مدن إشبيلية ، وطول جزيرة قادِس من القبلة إلى الجوف اثنا عشر مِيلاً ، وعَرْضُها فى أوسع المواضع مِيلٌ ، وبها مزارعُ كثيرةُ الرَّيْع ، وأكثرُ مواشيها المَعز ، وشَعْرَاؤُها صنوبر ورَتَم ؛ فإذا رَعَتْ معزهم خرُّوب ذلك المكان عند عَقْدِها ، أَسْكَرَ لبَنُهَا ، ولَيْس يكون ذلك فى أَلْبَان الضَّأْن . وقالَ صاحِبُ الفِلاَحة النَّبَطِيَّة : بجزيرة قَادِس نباتُ رَتَم إذَا رَعَتْه المعز أَسْكَرَ لبَنُهَا إسكاراً عظِيماً ؛ وأهلُها يحققون هذه الخاصِّيَّة .

وفى طرف الجزيرة الثانى حِصْنٌ خَرِبٌ أَوَّلِيٌّ ، بَيِّنُ الآثار ، وبه الكنيسةُ المعروفَة بشَنْت بيطر ، وشَجَرُ المثنان كثيرٌ بهذه الجزيرة ، وبها شُجَيْرَة تُشبه فَسِيلَ النَّخْل ، لهـا صَمْغٌ إذا خُلِطَ بالزّجاج صَمَّغَهُ ، وصار حَجَراً تُتَّخَذُ مِنْهُ الفُصُوصُ ، وبها آثارٌ للأُوَلِ كثيرةٌ .

ومِنْ أَعْجَبِ الآثار بها الصَّنَمُ المنسوبُ إلى هذه الجزيرة ، بَنَاهُ أركليش ، وهو هِرَقْلس ، أَصْلُهُ من الرُّوم الإغريقيِّين ، وكان مِن قُوَّاد الرُّوم وكُبَرَائهم على زمن موسى (عليه السلام) ؛ وقيلَ إنَّهُ أَوَّلُ مَعْدُودٍ لملوك اليونانيِّين ، وملك أكثَرَ الأرض ، لحَاربَ أَهْلَ المشرق وافتتح مُدُنهم ، إلى أَنْ وَصَلَ إلى الهند ، وانصرف صادراً مُفْتَتِحاً لبلاد أَوْلاد يافِت ، إلى أن انتهى إلى الأندلس ؛ فلمّا بلغ البحرَ المُحِيطَ الغربىَّ ، سَأَل عمّا

(١) طرّة فى س : « وهى المعروفة اليوم بقالس عند العرب والبربر » .

وَرَاءهُ فقيل إنّه لايجاوزُ إلاّ إلى برّ الأندلس فعمد إلى جزيرة قادِس ، فبَنَى بها مَجْدَلاً عاليًا مُنيفًا ، وجَعَلَ صورةَ نفسه مُفرَّغَةً من نحاسٍ فى أعْلَى المنارَةِ ، وقد قابلت المغرب ، كرَجُلٍ مُتَوَشِّحٍ بُرْداً من مَنْكِبَيْهِ إلى أنصاف ساقَيْهِ ، وقد ضَمَّ عليه وِشَاحَهُ ، وفى يدِهِ اليُمْنَى مفتاحٌ مِن حديد ، وهو مَادُّها[1] نحو المغرب ، وفى اليُسرى صحيفةٌ[2] مِن رَصَاصٍ منقوشَةٌ ، فيها ذِكْرُ خَبَرِهِ ، ومعنى الذى بيدِه أنَّه افتتح ما وراءهُ مِن البُلْدَانِ والمُدُن .

والصَّنَمُ فى وسط الجزيرة ، وبيْنَه وبيْن الحِصن المذكور سِتَّة أميال[3] ، والصَّنَمُ مُرَبَّعٌ ، ذَرْعُ أَسْفَلِهِ من كلِّ جانبٍ أربعون ذِراعًا ، وارتَفَعَ على قَدْرِ هذا الذَّرْعِ ثمَّ ضاقَ ، وارتفَعَ عَلَى قَدْرِ ذلك الذَّرْعِ الثانى ، ثمَّ ضاقَ ، وارتفع عَلَى قَدْرِ ذلك الذَّرْعِ الثالث ، ثمَّ خُرِطَ البُنْيَانُ من ابتداء الطبقة الرَّابعَةِ ، إلى أنْ صارَتْ قَدَمَا الصورة عَلَى صَخْرَةٍ وَاحِدَةٍ ، قَدْرُ تَرْبيعِها فى رَأْى العَيْن أرْبَعُ أَذْرُعٍ ، قد تقدَّمت رِجْلُهُ اليُمْنَى ، وتأخَّرَت اليُسْرَى كالماشى ؛ وارتفاعُ الصَّنَم من الأرض إلى رَأْسِ الصُّورة مائةٌ وأرْبعٌ وعشرون ذراعًا ، لِطُولِ الصورةِ من ذلك ثمانى أَذْرُعٍ ، وقيل سِتٌّ ؛ وقيلَ إنَّ هذا الذَّرْعَ بالذِّرَاعِ الكبيرِ الذى هو ثلاثةُ أشبَارٍ ونصفٌ ، وقد خرج من بَيْن رِجْلَيْهِ عَمُودُ نُحَاسٍ أوْ ذَهَبٍ صاعِداً حتّى علا فوْقَ رَأْسه نحو ذِرَاعَيْن فى رَأْى العَيْن .

وكان يقول أَهْلُ العِلْمِ بالحدثان فى سالف الأزمان : يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ من يد هذه الصُّورة أَحَدُ المِفْتَاحَيْن ، فتكون بذلك يدُه تُحَرِّكُ الفِتَن بالأندلس ، ثمَّ يَقَعَ الآخر بَعْدُ فيكونَ حينئذٍ خرابُ الأندلس . فذكر جماعةُ أَهْلِ قادِس أنَّ أَحَدَ المِفْتَاحَيْن سَقَطَ سنة ٤٠٠ ، وهو فى صورة المفتاح ، فحُمِلَ إلى صاحب مدينة سَبْتة ، فأَمَرَ به فوُزِنَ ،

(١) ث و سه : « مارها » . (٢) س : « صفيحة » . (٣) سه ف ث .

فكانتْ زِنَتُهُ ثمانية أرْطال ، وقيلَ إنَّ الصَّنَم بُنِيَ لِتَأْرِيخِ أَلْفَيْن وأربعمائة وإحْدَى وخمسين من وقت الطوفان ، وقيل لتأريخ أَلْفَيْن وأربعمائة وإحدى وخمسين من وقت آدم (عليه السلام) ؛ والّذى لا يُشَكُّ فيه أنّهُ بُنِيَ عَلَى عَهْدِ مُوسَى عليه السلام .

وقال مُوسى بنُ شُخَيْص يَعْنِي هذا الصَّنَم [طويل] :

وزَجراجةِ الأرْداف مَوَّارة الخُطَا تُهادِي ولَيْسَتْ مِن حِسَانِ الأَوَانِسِ
إلى أنْ تَرَى الشَّخصَ المُلَمْلِعَ مُوفِيًا عَلَى الصَّنَم المُوفِي عَلَى بَحْرِ قادِسِ
ولمّا نزلنا تَحْتَهُ قَالَ صاحِبِي أَعَاجِيبُ رومٍ أَمْ أَعَاجِيبُ فارِسِ
فَقُلْنَا لَهُ خَفِّضْ سُؤَالَكَ والْتَمِسْ نَجَاتَكَ من مَرْسَى البحار الكَوائِسِ

وكانوا يتحدَّثون أنّ المتوسّطة من البحر الغَرْبِيِّ ، الذى كان يسمّونه ببلايُه ، لم تُسْلَكْ قَطُّ إلى وقت سقوط ذلك المفتاح [حتَّى سَقَطَ المفتاحُ][1] ؛ فمن حينئذٍ سلك النّاسُ فى البَحْرِ إلى سَلاَ وإلى السوس وإلى غيرهما ، وكان هذا مستفيضًا عندهم .

وذكر بعضُ المؤلّفين لغرائب الحدثان ، أنّ صَنَمَ قَادِس موضوعٌ على بلاد الأندلس ، فجُعِل رَأْسُهُ لطليطلة ، وصَدْرُهُ لقُرْطبة ، وكذلك أعضاؤه ، قسمها عضواً عضواً ، على بلاد الأندلس ، فمتى أَصَابَ عُضْوًا من هذه الأعضاء آفةٌ حَلَّتْ بذلك القُطْرِ الذى من قسيمتِهِ آفةٌ .

وفى بعض التصانيف : إذا هُدِمَ صَنَم قَادِس استولى النصارى على بلاد الأندلس ؛ فنظروا فإذا الوقت الذى هدمه أبو الحسن علىّ بن عيسى بن مَيْمُون فيه دخل النصارى قرطبة وملكوها . قال المُخْبِر : وكانت إشبيلية تحت الذِّمَّة لأنّ مَرْقيش[2] النصارى

(١) حذف فى الأصل بسبب تكرُّر لفظ « المفتاح » . (٢) ت : « رئيس » .

المعروف بالسُّلَيْطين ، لما استحْوَذَ عليها أقَرَّ أبا زكرياء يحيى بن عليّ بن تايشا[١] على ما كان بأيدى الملثَّمين منها ومن غيرها ، وكان حكمُ السُّلَيْطين نافذاً فيها ؛ ولقد وقع سنة ٥٤٠ تنازُعٌ بيْن رجلَيْن من المُرَابطين فى إنزال جنان بقرية من قُرَى إشبيلية ؛ فادَّعاه أحدُهما بإنزال ابن غانية له فيه ، وأتى بظَهِيرٍ ؛ وادَّعاه الآخر بظهير السُّلَيْطين ؛ وحكم بيْنهما وَالِى إشبيلية تحت نظر يحيى بن علىّ ؛ وكان هذا المُلثَّم قد كتب له به السُّلَيْطِين بطليطلة حين سفر إليه رَسُولاً عن يحيى بن علىّ .

وكان هَدْمُ علىّ بن عيسى لهذا الصَّنَم لأنَّهُ خُيِّلَ إليه أنَّهُ على كنوزٍ ضَخْمَةٍ ، وأنَّ داخِلَهُ مَحْشُوٌّ تِبْرًا ، فدعا له الرجالَ والبُنَاةَ وأخذوا فى قطع حَجَرٍ منه ، وكلَّما قطعوا حَجَراً ادَّعموا مكانَه بدعامةٍ من خشب ، حتّى وقف ذلك الجرم العظيم على الدعائم ؛ ثمَّ رَمَوْا إلى الخشب النار ، بعد ما ملأوا الخَلَلَ الذى بين الخشب حطباً ، فسقط جميعُه وكانَتْ له وَهْلَةٌ عظيمة ، واستخرجَ الرَّصاص المعقود بالحجارة ، والنحاس الذى كان منه الصَّنم ، وكان مُذَهَّباً ؛ وبَدَتْ فى يَدَيْه من مطلبه الخَيْبَة . وكان يقال إنّ الذى يهدم صَنَمَ قادِس يموت مقتولاً ؛ وكذلك كان .

ويزعم أَهل جزيرة قادِس أنَّهم لن يزالوا يسمعونَ أنَّ الرَّاكب فى هذا البحر إنْ أَلَجَّ فيه وغاب عنه صَنَمُ قَادِس ، بدا لَهُ صَنَمٌ ثانٍ مثلُهُ ، فإذا وصلوا إليه وجاوزوه حتَّى يغيب عليه ، بدا له صَنَمٌ ثالث ، فإذا تجاوزوا سبعة أَصنامٍ صاروا فى بلاد الهند ؛ وهذا مستفيضٌ عندهم ، معروفٌ جارٍ على أَلْسِنَتِهِمْ ، لم يَزَلْ يأخذه آخرهم عن أوّلهم . قالوا : ولمَّا أحكم أركليش هذه الآثار عمد إلى بلاد البربر ؛ فعمد إلى مدينة سَبْتة من الزُّقاق الخارج من

(١) ش و سه : « نبشا » .

البحر المحيط ، ولم يزل يفتتح مدينةً بعد مدينةٍ حتّى انتهى إلى لوبيا وتراقيا[١] ؛ فوجد هناك ألماً وأوجاعًا فى بَدَنه ، فلما اشتدّ ذلك به أَجّجَ نارًا وألْقى نَفْسَه فيها ؛ واحترق ؛ وكان غرضُهُ أنْ يحرق الأوجاع التى فى بَدَنه ، فدلّ هذا من فعله على أنّه كان من عَبَدَةِ النِّيران . وتفرّقَتْ جموعُه ، واتّخذه المَجُوسُ وَثَنًا يعبدونَهُ .

١٣٣ — قَبْتُور

قريةٌ من قرى إشبيلية ؛ وفى سنة ٦٢٣ وصلت شَيَاطِين الرُّوم الغَربِيِّين نهر إشبيلية ، فأسروا الناس ، وحَرَقوا القوارب ، ثمّ وصلوا إلى قبتور هذه ، وغَلَبُوا أهلَها ، ودخلوا عليهم عنوةً ، ففرّ منهم من فَرّ ، وأخذوا جملةً منهم ومن نسائهم ، واستبيح جميع ما كان فى الديار من الآلات والمتاع .

١٣٤ — قَبْرَة

مدينةٌ بالأندلس ، بيْنها وبيْن قرطبة ثلاثون ميلاً ، ذاتُ مياهٍ سائحةٍ من عيونٍ شَتَّى ، منها العين التى عليها ؛ والنّهرُ الذى هناك مَخْرَجُهُ من ناحية جبل شيبة[٢] ، عليه أرْحاءٌ كثيرة ؛ وهذا الجبل شامخٌ يُنْبتُ ضروبَ النواوير وأصنافَ الأزاهر ، وأجناسَ الأفاويه والعقاقير ، وتدومُ غَضَارةُ نُوّاره ، وتَتّصِلُ بهجة نبته باعتدالِ هوائِه وكثرةِ أندائِه ، فيُقْطف النرجس فيه بأَغْصَان[٣] من الورد ؛ والمسجد الجامع بقَبْرَة ثلاثُ بلاطات ، ولها سوقٌ جامعةٌ يومَ الخميس ، وتحسن بها ضروبُ الغراسات ، وأنواع الثمرات ؛ وهى مخصوصةٌ بكثرة الزيتون .

---

(١) ت و س : « نوبيا ومزاقيا » . (٢) س : « شينة » . (٣) س : « بغصان » .

وعَلَى مقربة من مدينة قبرة ، المَغَارة المعروفة بالمروب ، لا يُدْرَكُ قَعْرُها ، ولا يُسْبَرُ غَوْرُها ، وهى بابٌ من أبواب الرياح ، ويعرفونها ببئر الريح ، وكان بعضُ خُلَفَاء بنى أُمَيَّة قد أمر عاملَ قَبْرة بردم تلك المغارة ، وأَنْ يحشد لذلك أهلَ النَّاحية ، ويُشْرِفَ عليه بنفسه ، ففعل ، واعتمل الناس من ذلك مدَّةً ؛ وكان ممَّا ردموها به التبن والحشيش ، إلى أن استوى الرَّدْمُ ، وجلس العامل على فمِ الغار ليخاطبَ الأميرَ بذلك ، فرجف المكان ، وانهال الرَّدْمُ ، ونجا العاملُ ولم يَكَدْ يَنْجُو ، وبَقِيَت المغارةُ لا يُدْرَكُ لها قَعْرٌ كما كانت قبلَ الرَّدْمِ ، ولم يُعْلَمْ أَيْنَ ذهب جميع ما قُذِفَ فيها ؛ إلاَّ أنَّه رُئِيَ مِن ذلك التِّبن فى بعضِ ينابيعِ المياهِ بذلك الجبل . وفى هذه المغارة قُذِفَ جماعةٌ مِن الصَّقَالِبَةِ المأسورين ، فى هزيمة كانت ، أحياء .

١٣٥ — القَبْطِيل

بالأندلس ، هو مفرَّغُ وادى طرطوشة فى البحر ، ويُعرف أيضاً بالمَسْكَر ، لأنَّه موضعٌ عَسْكَرَ به المجوسُ واحتفروا حولَهُ خَنْدَقاً أثره باقٍ إلى الآن .

١٣٦ — قَرَبَاكَة

(بالباء) بالأندلس أيضاً ، من إقليم مولة ، وهى قريةٌ بها عَيْنُ ماء تولد الحَصَى بطبعها ، وإذا طال مكثهُ فى الإناء من النحاس أوْ غيره ، تحجَّر بجنباته حتَّى تتضاعف زِنَةُ الإناء ؛ وعينُ ماء أُخْرَى تُفَتِّتُ الحَصَى بطبعها .

١٣٧ — قَرْبَلْيَان

بالأندلس ، بينها وبين أوريولة عشرون ميلاً ، وهى كثيرة الزيتون ، وبها سَقْىٌ كثيرٌ .

١٣٨ — قَرْطَاجَنَّة

هذا الاسم فى ثلاثة مواضع : أحدُها بالأندلس عنـد جبل طارِق ، وهى مدينةٌ للأُوَلِ غير مسكونة ، وبها آثارٌ كثيرة ، وتُعرف بقرطاجنة الجزيرة ، وبمَرْساها نهرٌ يريق فى البحر ، يعرف بوادى البحر ؛ والثانية :

١٣٩ — قَرْطَاجَنَّةُ الخُلَفَاء

بالأندلس أيضاً من كورة تُدْمِير .

* وهى فُرْضَةُ مدينةِ مُرْسية ، وهى مدينةٌ قديمةٌ أزليَّةٌ ، لها مينا تَرْسو فيها المراكب الكبارُ والصغار ، وهى كثيرة الخصب والرخاء المتتابع ، ولها إقليمٌ يُسَمَّى الفُنْدُون ، وقليلاً ما يوجد مثله فى طيب الأرض وعذوبة المـاء . ويُحْكى أنَّ السنبلَ يحصَد فيه عن مطرةٍ واحدةٍ ، وإليـه المنتهى فى الجودة . ومن مدينة قرطاجَنَّة إلى مُرْسية فى البَرِّ أربعون ميلاً[1] .

وبقرطاجَنَّة هذه ، هَزَمَ عبدُ العزيز بن موسى بن نُصَير تُدْمِيرَ بن عَبْدُوس ، الذى سُمِّيت به تُدْمِير ؛ هَزَمَه وأصْحَابَهُ ، ووَضَعَ المسلمونَ فيهم السَّيفَ ، يقتلونَهم كيف

---

(١) ا و ص ١٩٤ .

شاءوا ، حتّى نجا تُدْمِير فى شِرْذِمةٍ من قلالِ أصْحَابِهِ إلى حصْنِ أُورْيُولة ، وكان مُجَرَّبًا بَصيرًا ذا هيبة ؛ فلما رأى قِلّة أصحابه ، أَمَرَ النساءَ فنَشَرْنَ شعورَهنَّ ، وأَمْسَكْنَ القَصَبَ بأيديهنَّ فيمن بقى من الرجال ، وقَصَدَ بنفسه كهيئة الرسول واستأمَنَ ، فأُمِّنَ ، وانعقدَ الصُّلْحُ له ولأهل بلده ، وفُتِحَتْ تُدْمِير صُلْحا ؛ فلما نفذ أمْرُهُ عرَّفَهُمْ بنفسه وأدخلهم المدينة ، فلم يروا بها إلاّ نفَرًا يسيرًا من الرّجال ، فندم المسلمون على ما كان منهم ؛ وكان ما انعقد من صُلْح تُدْمِير مع عبد العزيز على إتاوةٍ يؤدِّيها ، وجزْيةٍ عن يدٍ يُعْطيها ، وذلك على سبع مدائن : منها أُوريولة ، ولَقَنْت ، وبلانة ، وغيرها . وتأريخ فتحها سنة ٩٤ .

ومن الغرائب ما حُكِىَ أنَّ دَيْرًا بقرطاجنّة الخُلفاء ، كان على مقربة منها ، بُنِىَ لامرأةٍ شهيدةٍ ولها قَدْرٌ عندهم ، وعلى القبر قبّةٌ ، فى أعلاها كوّةٌ ، لا يَعْلُو تلك القُبّةَ طائر ، فإن علاها اجتذبَتْه قوّةٌ من تلك الكوّة ، فسقط فى القُبّة .

وقد أُخْبِرَ رَجُلٌ بهذه القصّة وهو يتصيّد بقرطاجنّة فأنكَرَ ذلك ، واعتمد دَفْعَ(١) جَوَارِحَ وصَيْدَهُ على القُبّة ، فتساقطَتْ داخِلَها . وكان لتلك القبّة مشهدٌ عظيمٌ فى يوم من العام ، يجتمع إليه الدانى والقاصى من نصارى تلك النواحى ، وذلك فى الرابع والعشرين من أُغُشْت ؛ فلما كانت سنة ٤١٤ ، قَصَدَهُ جماعةٌ من نصارى بلاد إفرَنْجَةَ فى مَرْكَبٍ جَرَى إلى تلك القبّة ، فاستخرجوا منها الشهيدة وحَمَلُوها ؛ فلما وصلوا بها إلى جزيرة صِقِلّيّة بذل لهم نصاراها مالاً عريضاً ليتركوا المرأة عندهم فيُقبِرُوها فى كنائِسِهم ، فأبَوْا عليهم ؛ ووصلوا بها إلى بلادهم .

(١) س : « وضع » .

١٤٠ - قُرْطُبَة

قاعدة الأندلس ، أمّ مدائنها ومستقرّ خلافة الأمويّين بها ، وآثارهم بها ظاهرة ، وفضائل قرطبة ومَنَاقِب خُلَفَائِها[١] أشهرُ من أن تُذْكر ؛ وهم أعلامُ البلاد ، وأعيانُ النَّاس ؛ اشتهروا بصحَّة المذهب ، وطيب المكسب ، وحُسْن الزّى ، وعلوّ الهمَّة ، وجميل الأخلاق ؛ وكان فيها أعلامُ العُلَماء ، وسادة الفُضَلاء ؛ وتجّارُها مَياسِيرُ ، وأحوالُهم واسعةٌ ؛ وهى فى ذاتها مدنٌ خمسٌ يتلو بعضُها بعضًا ، وبيْن المدينة والمدينة سورٌ حاجزٌ ؛ وفى كلّ مدينة ما يكفيها من الأسواق والفَنَادِق والحَمَّامات وسائر الصناعات ؛ وطولُها من غربيّها إلى شرقيّها ثلاثة أميال ، وعرضُها من باب القنطرة إلى باب اليهود ميلٌ واحدٌ . وهى فى سفح جبل مُطِلٍّ عليها ، يسمَّى جَبَل العَرُوس ، ومدينتُها الوسْطَى هى التى فيها باب القنطرة .

وفيها المسجدُ الجامعُ المشهورُ أمْرُهُ ، الشائعُ ذِكْرُهُ ؛ من أجلّ مصانع الدنيا كِبَرَ مسَاحةٍ ، وإحكامَ صَنْعةٍ ، وجمالَ هيئةٍ ، وإتقانَ بنيةٍ ؛ تهمَّم به الخلفاء المروانيُّون ، فزادوا فيه زيادةً بعد زيادة ، وتتميماً إثر تتميم ، حتَّى بلغ الغايَة فى الإتقان ، فصار يحار فيه الطرْف ، ويعجز عن حسنه الوصْف ؛ فليس فى مساجد المسلمين مثلُه تنميقاً وطولاً وعَرْضًا ؛ طولُه مائة باعٍ ، و [عرضه] ثمانون باعًا ، ونصْفُه مَسَقَّف ، ونصْفُه صَحْنٌ بلا سقف ؛ وعَدَدُ قِسِيِّ مُسَقَّفِهِ تسع عشرة قوساً ، وسَوَارِى مسَقَّفِهِ بيْن أعمدته وسوارى قُبَبِه[٢] صِغارًا وكبارًا مع سَوَارِى القبلة[٣] الكبرى وما يَلِيها ألفُ سارِيَةٍ ؛ وفيه مائة وثلاث

(١) او : « خلفها بها » (٢) او : « قبلته » (٣) او : « القبة » .

عشرة ثُرَيّا للوقيد ، أكبرها واحدةٌ منها تحمل ألفَ مِصْباح ، وأقلُّها تحمل اثنى عشر مِصْباحًا ، وجميع خشبه من عيدان الصنوبر الطُّرْطُوشِيّ ، ارتفاع حدّ الجائزة منه شبرٌ وافرٌ ، فى عرض شبرٍ إلاّ ثلاثة أصابع ، فى طول كلّ جائزة منها سبعٌ وثَلاَثون شبراً ؛ وبيْن الجائزة والجائزة غِلَظُ جائزة ؛ وفى سقفه من ضروب الصنائع والنقوش مالا يُشْبه بعضُها بعضًا ، قد أُحْكِمَ تزيينُها[1] ، وأُبدع تَلْوِينُها ؛ بأنواع الحمرة والبياض والزرقة والخضرة والتكحيل ، فهى تروق العين وتستميل النفوس ، بإتقان ترسيمها ومُخْتَلفات ألوانها . وسَعَةُ كلّ بَلاَطٍ من بلاط سقفه ثَلاَثة وثلاثون شبراً ؛ وبَيْن العمود والعمود خمسة عشر شبرًا ؛ ولكلّ عمود منها رأسُ رخامٍ وقاعدةُ رخامٍ . ولهذا الجامع قبلةٌ يعجز الواصفون عن وَصْفها وفيها إتقانٌ يُبْهِر العقولَ تنميقُها ، وفيها من الفُسَيْفِسَاء المذهَّب والمُلَوَّن[2] ما بعث به صاحب القُسْطَنْطينَة العُظْمَى إلى عبد الرحمن الناصر لدين الله ؛ وعلى وَجْه المحراب سبع قسيّ قائمة على عُمُد ، طولُ كلّ قوس أنيف من قامة ، وكلُّ هذه القِسِيّ مَوَجَّهَةٌ صنعةَ القُوط[3] ، قد أعجزت المسلمين والرُّوم بغريب أعمالها ، ودقيق وضعها ؛ وعلى أعلى الكلّ كتابَانِ مَنْحُوتَانِ[4] بين بَحْرَيْن[5] من الفُسَيْفِسَاء المذهَّب فى أرض الزّجاج اللازَوَرْدِيّ ، وعلى وجه المحراب أنواع كثيرة من التزيين والنقوش ، وفى جِهَتَى[6] المحراب أربعة أعْمِدَة : اثنانِ أخضرانِ واثنانِ زُرْزُورِيّانِ لا تقوّم بمال ، وعلى رأسِ المحراب خَصَّةُ رخام قِطْعَة واحدة مشبوكةٌ منصّعة بأبدع التنميق من الذّهَب واللّازَوَرْد وسائر الألوان ، واستدارتْ على المحراب حظيرةُ خشبٍ ، بها من أنواع النقش كلّ

(١) ار : « ترتيبها » . (٢) ت و س : « البلّور » . (٣) ار : « مزجّجة صنعة القرط » .
(٤) ار : « بسجونان » . (٥) ت و س : « محرابين » . (٦) ار : « غضادتى » .

غريبة ، ومع يمين المحراب المِنْبَرُ الذى ليس بعمور الأرض مثله صنعةً ، خشبُه آبَنُوسٌ و بقْسٌ وعود المِجْمَر ، يقلل إنّه صُنِـعَ فى سبع سنين ، وكان صُنّاعُه ستّة رجال غير من يخدمهم تصرّفًا ؛ وعن شِمَالِ المحراب بيتٌ فيه عُدَدٌ وطشوتُ ذهبٍ وفضّةٍ وحسَكٌ ، وكلّها لوقيد الشَّمْع فى كلّ ليلة سبع وعشرين من رَمَضَان ؛ وفى هذا المَخزَن مُصْحفٌ يرفعه رَجُلَان لثِقَلِهِ ، فيه أربع أوراق من مُصْحَف عثمان بن عفّان (رضه) الذى خَطَّه بيمينه ، وفيه نقطةٌ من دمِهِ ؛ ويُخْرَج هذا المُصْحَف فى صبيحة كلّ يوم ، يتولّى إخْرَاجَه قومٌ من قَوَمة المسجد ؛ وللمُصْحَف غِشاء بديعُ الصَّنْعَةِ ، منقوشٌ بأغرب ما يكون من النقش ، وله كُرْسِيٌّ يُوضَع عليه ، ويتولّى الإمامُ قراءَةَ نصف حِزْب فيه ، ثمّ يُرْفَع إلى موضعه . وعن يمين المحراب والمِنْبر بابٌ يُفْضِى إلى القَصْر بَيْن حائِطَى الجامع فى سَابَاط متَّصِل ، وفى هذا السَّابَاط ثمانية أبواب : منها أربعة تنغلق من جهة القصر ، وأربعة تنغلق من جهة الجامع ؛ ولهذا الجامع عشرون بابًا مُصَفَّحةٌ بصفائح النحاس وكَوَاكِب النحاس ؛ وفى كلّ باب منها حلقتانِ فى نهاية الإتقان ، وعلى وَجْه كلّ باب منها فى الحائط ضُرُوبٌ من الفَصّ المتَّخَذ من الآجرّ الأحمر المحكوك ، أنواع شتّى وأصناف مختلفة من الصناعات والتنميق .

وللجامع فى الجهة الشماليّة الصَّوْمَعَةُ الغَرِيبَةُ الصَّنعة ، الجليلةُ الأعمال ، الرائقةُ الشَّكْل والمِثال ؛ ارتفاعُها فى الهواء مائة ذراع بالذّراع الرَّشّاشىّ ، منها ثمانون ذراعًا إلى الموضع الذى يَقِفُ فيه المؤَذِّن ، ومن هناك إلى أعلاها عشرون ذراعًا ؛ ويُصْعَدُ إلى أعْلَى هـذا المنار بمَدْرَجَيْن ، أحدُهما من الجانب الغربىّ والثانى من الشرقىّ ؛ إذا افترق الصاعدان أسفل الصومعةِ لم يجْتمِعَا إلاّ إذا وَصَلاَ الأعلى . ووجهُ هذه الصَّوْمَعَةِ مُبَطَّنٌ

بالكذّان ، منقوشٌ من وجه الأرض إلى أعلى الصَّوْمَعَة بصنعةٍ تحتوى على أنواعٍ من التزويق والكتابة . وبالأوجه الأربعة الدائرة من الصومعة صَفَّانِ من قِسِيٍّ دائرةٍ عَلَى عُمُد[1] الرخام ، وبيتٌ له أربعة أبواب مُغلَّقة يبيتُ فيه كلَّ ليلة مؤذِّنان . وعلى أعلى القُبَّة[2] التى على البيت ثلاث تفَّاحات ذَهبًا ، واثنان من فضَّة ، وأوراق سُوسَنِيَّة ؛ تَسَعُ الكبيرة من هذه التُّفَّاحات ستّين رِطْلاً من الزيت ، ويخدم الجامعَ كلَّه ستُّون رجلاً ، وعليهم قائمٌ ينظر فى أُمورهم[3] . فهذا ما حكاه محمَّد بن محمَّد بن إدريس .

وقرطبة على نَهْرٍ عظيم ، عليه قنطرةٌ عظيمةٌ من أجَلّ البنيان قرارا ، وأعظمِه خطرا ؛ وهى من الجامع فى قبلته وبالقرب منه فانتظم به الشكل . قالوا : وبأمر عمر بن عبد العزيز قام على نهر قرطبة الجسْرُ الأعظمُ الذى لا يُعرف فى الدنيا مثلُه ، وحوَّل الأندلس من عمل إفريقية ، وجَرَّدَ لها عامِلاً من قبله ، ووقعت المغانم فيها عن أمره .

* وذُكِرَ أنَّ تفسير قرطبة بلسان القُوط « قرظُبَّة » بالظاء المعجمة ، ومعنى ذلك بلسانهم « القلوب المختلفة » وقيل : إنَّ معنى قرطبة آخر « فاسكنها » . ودَوْر مدينة قرطبة فى كمالها ثلاثون ألف ذراع ؛ ولها من الأبواب باب القنطرة ، وهو بقبليّها ، ومنه يُعبَرُ النَّهْرُ على القنطرة ، والباب الجديد[4] وهو شرقيّها ، وباب عَامر وهو بيْن الغرب والجوف منها وغيرها ، وقصر مدينة قرطبة بغربيِّها متَّصِلٌ بسورها القِبْلىّ والغَرْبىّ ؛ وجامعُها بإزاء القصر من جهة الشرق ، وقد وصل بينهما بساباط يسلك الناس تحته من المَحجَّةِ العُظمَى التى بين الجامع والقصر إلى باب القنطرة ، وكان طولُ مسقَّف

(١) ت و س : « عقد » . (٢) ت و س : « الصومعة » .

(٣) ا و ص ٢٠٨ — ٢١٢ . (٤) ت و س : « الباب الحديد » .

البلاطات من المسجد الجامع ، وذلك من القِبْلة إلى الجوف قَبْل الزيادة ، مائتين وخمسا وعشرين ذراعًا ، والعَرْضُ من الشرق إلى الغرب قبل الزيادة مائة ذراع وخمس أذرع ، ثمّ ما زاد الحَكَم فى طوله فى القبلة مائة ذراع وخمس أذرع ، فكَمُل الطول ثلاثمائة ذراع وثلاثين ذراعاً ؛ وزاد محمّد بن أبى عامر بأمْر هِشَام بن الحَكَم فى عَرْضِهِ من جهة المشرق ثمانين ذراعاً ، فتمّ العَرْضُ بمائتين وثلاثين ذراعًا . وكان عدد بلاطاته أحد عشر بلاطًا ، عَرْضُ أوْسَطِها ستّة عشر ذراعاً ، وعَرْضُ كلّ واحدٍ من اللّذَيْن يَلِيانِهِ شَرْقًا واللّذَيْن يَلِيانِهِ غَرْبًا أربعة عشر ذراعا ؛ وعَرْضُ كلٍّ واحدٍ من الستّة الباقية إحدى عشر ذراعاً ؛ وزاد محمّد بن أبى عامر فيه ثمانى بلاطات ، عَرْضُ كلّ واحدٍ عشر أذرُع . وطول الصحن من المشرق إلى المغرب مائة وثمانٍ وعشرون ذراعاً ، وعرضُهُ من القبلة إلى الجوف مائة واحدة وخمس أذْرُع ؛ وعرضُ السقائف المُسْتديرة بصَحْنه عشرة أذرُع ؛ فتَكْسيرُه ثلاثة وثلاثون ألف ذراع ومائة وخمسون ذراعاً . وعدد أبوابه تسعة : ثلاثة فى صحنه غرْبًا وشرقًا وجوفًا ، وأربعة فى بلاطاته : اثنانِ غربيّانِ واثنانِ شرقيّانِ ، وفى مَقَاصِير النساء من السقائف بابانِ . وجميع ما فيه من الأعمِدَة ألف عمود ومائتا عمود وثلاثة وتسعون عموداً ، رخامٌ كلّها . وقبابُ مقصورة الجامع مُذَهّبَة ، وكذلك جدار المحراب وما يليه قد أُجْرِىَ فيه الذَّهَبُ على الفُسَيْفِسَاء ، وثُريّات المقصورة فِضّةٌ مَحْضَةٌ ؛ وارتفاعُ الصومَعَةِ اليوْمَ ، وهى من بناء عبد الرحمٰن بن محمّد ، ثلاث وسبعون ذراعا إلى أعْلَى القُبَّة المفتحة التى يَسْتَدِير بها المؤذّنون ، وفى رأس هذه القبّة تفّاح ذَهَبٍ وفضّةٍ ، وارتفاعُها إلى مكان الأذان أربع وخمسون ذراعًا ، وطولُ كلّ حائطٍ من حيطانها على الأرض ثمانى عشرة أذرُع ، وعدد المساجد بقرطبة على ما أُحْصِيَ وضُبِطَ أربعمائة وإحْدَى وتسعون مسجداً (١) .

(١) ب ٥٥ : ص ٢٥٦ — ٢٥٨ .

وأحْوَازُ قرطبة تنتهى فى المغرب إلى أحواز إشبيلية ، وتأخذ فى الجوف ستّين ميلاً ، ويختلط أحوازها فى الشرق بأحواز جيّان . وعلى الجملة فقد كانَتْ أُمَّ البلاد وواسطةَ عِقْد الأندلس ، وحَوَتْ من الأكابر من أهل الدنيا والآخرة ، من الملوك والعلماء والصالحين والمُفْتِين وغيرهم خلقاً ، ومتعوا فيها ما أراد الله عزّ وجلّ ، وذلك حين كان جدُّها صاعداً ؛ وبعد ذلك * طحنَتْها النوائب ، واعتورتْها المصائب ؛ وتوالَتْ عليها الشدائد والأحداث ؛ فلم يبقَ من أهلها إلاَّ البَشر اليسير على كبر اسمها ، وضخامة حالها ؛ وقنطرتُها التى لا نظير لها ، وعَدَدُ أقواسها تسع عشرة قوسًا ، بين القوْس والقوْس خمسون شبراً ، ولها ستَائِرُ[1] من كلّ جهة تستر القامة ، وارتفاعُها من موضع المشى إلى وجه الماء ، فى أيّام جفوف الماء وقلّته ، ثلاثون ذراعًا ؛ وتحت القنطرة يعترض الوادى برَصيف مصنوع من الأحجار والعُمُد الجافية من الرخام ؛ وعلى السُّدّ ثلاث بيوت أرْحاء ، فى كلّ بيت منها أربعة مَطَاحِن . ومحاسِنُ هذه المدينة وشماختُها أكثر من أنْ يُحَاطَ بها خُبْرًا[2] . فلمّا عثر جدُّها ، وخوى نجمُها ، وضعُف أمرُ الإسلام ، واختلفَتْ بالجزيرة كلمتُه ، تَغَلَّبَ عليها النصارى ، وحكموا عليها فى أواخر شوّال من سنة ٦٣٣ .

١٤١ — قَرْمُونَة

مدينةٌ بالأندلس فى الشرق من إشبيلية ، وبيْنها وبيْن إستجّة خمسة وأربعون مِيلاً ، وهى مدينةٌ كبيرةٌ قديمةٌ ، وهى باللسان اللّطينىّ « كارب موية » (وهى الكاف والألف والراء والباء المعجمة بواحدة) معناه « صديق » ؛ وهى فى سفح جبلٍ عليها سورُ حجارة

(١) ش و ص : « شبائر » (٢) ار ص ٢١٢ .

من بنيان الأُوَل كان تَثَلَّم فى الهدنة ، ثُمَّ بُنِىَ فى الفتنة ، وجنباتها حصينة ممتنعة عَلَى المحاربين إلاَّ من جهة المغرب ، وارتفاعُ سورها هناك أربعون حَجَرًا ، وبالذراع ثلاث وأربعون ذراعًا ، وفى هذا السور الغربىّ بُرْجٌ يُعْرف بالبُرْج الأجَمّ ، عليه يُنصب العَرَّادات عند القتال ؛ وفى ركن هذا السور أيضًا ، ممَّا يَلى الجوف ، بنيانٌ مُرْتفِع على السور يسمَّى سمرمَلة ، عليه بُرْجٌ للمُحاربين ، وتحته مَرْجٌ نضيرٌ لا ينهشم ولا يُصَوِّحُ كلأُه ، ويتَّصل بهذا السور خندقٌ عميقٌ جدًّا أوَّلىٌّ ، وترابُه مستندٌ إلى السور ، وفى السور القبلىّ موضعٌ فيه صخرةٌ عظيمةٌ منيعةٌ منتصبةٌ كالحائط ، يَحْسِرُ عَنْهَا الطَّرْفُ من علوِّها ، والسور مبنىٌّ فوقها ، وقد بقى منها دونه قدر مَمْشَى الرجل ، فيتدلَّى من هناك الرجال لاشتيار العَسَل ، واصطياد فراخ الطير من صدوع تلك الصخرة ؛ وفى هذا السور القبلىّ بابٌ يُعرف بباب يَرْنى ، نُسِبَ إلى قريةٍ بإزائه تسمَّى يَرْنِى ، وبابُ قرطبة شرقيّه عليه قصبةٌ وأبراجٌ ، وبابُ قلشانة بيْن الشرق والجوف ، ومنه الخروج إلى قرطبة لسهولته ؛ وأمَّا باب قرطبة فطريقُه وَعْرٌ ممتنعٌ ، وباب إشبيلية غربِىٌّ ، دونه إلى داخل المدينة بابٌ ثانٍ بينهما خمسون ذراعًا ؛ وبمدينة قرمونة جامعٌ حسن البناء ، فيه سبع بلاَطات ، على أعمِدَةِ رخامٍ وأرجُلِ صَخْرٍ ، وسوقُها جامعةٌ يوم الخميس ، وبها حمَّامات ودارُ صِنَاعة ، بُنِيَتْ بعد سنة المَجوس مَخْزَنًا للسلاَح ؛ وبداخل مدينة قرمونة آثارٌ كثيرةٌ للأُوَل ، ومقطعُ حَجَرٍ ، وحواليها مقاطعُ كثيرةٌ ، منها مقطعٌ بجوفيّها . وإشبيلية بقرب مدينة قرمونة بينهما عشرون مِيلاً .

وبقرب قرمونة فحصٌ عريضٌ حمَّالٌ للزرع فيه قُرًى كثيرة ذاتُ مِياهٍ غزيرةٍ وعيونٍ وآبارٍ .

وافتتح عبد الرحمن بن محمَّد مدينة قرمونة سنة ٣٠٥ .

١٤٢ — قَرْنَاطَة

(بالنون) مدينة بالأندلس ، فى ناحية مُنْتَزَحة عن العِمْران ، وفى جبالٍ شاهقةٍ هناك غارٌ فيه رجلٌ ميتٌ لم تُغَيِّرْه الأزمِنَة ولا يُدرى له أوّل شأنٍ ، وَيكِفُ من أعْلَى الغَارِ ماء فى وَقْبٍ[1] لَطِيفٍ فلا يفيض ذلك الوَقْبُ بدوام الماء ، وإنْ شرِبَ منه العدد الكثير لم ينقص . ويُذْكر أنّ بعض المستهزئين أَخَذَ من أكفان ذلك المَيِّتِ فصُعِقَ لفَوْرِه .

١٤٣ — قَسْطَلَّة دَرَّاج

قَرْيةٌ فى غَرْب الأندلس ، منها أبو عمر أحمد بن محمّد بن درّاج القسطلّىّ ، ودرّاج هو الذى تنْسبُ إليه القرية فيقال قَسْطَلَّةُ دَرَّاج . وكان أبو عمر هذا كاتباً من كُتَّاب الإنشاء فى أيّام المنصور بن أبى عامر ، وهو معدودٌ فى جملة العلماء والمقدَّمين من الشعراء ، واختُبِر واقتُرِحَ عليه فبرز وسبق . فمن قوله يصِفُ السوسن ويمدح الحاجب المظفَّر سيف الدّولة عبد المَلِك بن المنصور بن أبى عامر [منسرح] :

إن كان وجْهُ الربيع مُبْتَسِماً فالسوسن المجتلَى ثناياهُ
يا حُسْنَهُ بين ضَاحكٍ عبِقٍ يطيب ريح الحبيب ريّاهُ
خاف عليه العيون غاشيةً فاشتقّ من حَدِّه[2] فسمّاهُ
وهُوَ إذا مغرمٌ تنسَّمَهُ خَلَّى على الأنف منه سيماهُ
يا حاجبًا مذ براه خالقُه تَوَّجَهُ بالعُلَى وَحَلَّاهُ
إذا رآه الزمانُ مُبتَهِجًا فقَدْ رأى كلَّ ما تَمَنَّاهُ
وإنْ رآه الهِلاَلُ مطَّلِعًا يَقُولُ رَبِّى وربُّكَ اللهُ

(١) س : « وقت » . (٢) طرّة فى سه : « الحد القطع وهو بالسيف ولذا سمّى سيف الدولة » .

١٤٤ — قَشْتَالَة

عملٌ من الأعمال الأندلسيّة ، قاعِدتُه قشتالَة سُمّيَ العملُ بها ، وقالوا : ما خلف الجبل المسمّى بالشارّات فى جهة الجنوب يسمّى إشبانيا ، وما خلف الجبل من جهة الشمال يسمّى قشتالة ، ولبعضهم [كامل] :

الروم تضْرب فى البلاد وتغنمُ   والعُرْب تأخذ ما بَقِيَ المَغْرَمُ
والمال يوردُ كلُّهُ قشـــتالةً   فالله يلطف بالعِبَاد ويرحَمُ

١٤٥ — القَصْر

مدينةٌ بالأندلس ، بينها وبين شِلْب أربعة مراحل .

* وهى مدينة حسنة متوسّطة ، على ضفّة نهر كبير ، وهو نهرٌ تصْعد فيه السُّفُنُ(١) السَّفَرِيَّة ، وفيما استدار بها من أرض كلُّها شجر الصنوبر ، وبها الإنشاء الكثير ، وهى خصيبة ، كثيرة الألبان والسمن والعَسَل واللحم ، وبين القصر والبحر عشرون ميلاً(٢) .

١٤٦ — قَصْر أَبِى دَانِس

بغربِىّ الأندلس ، فيه كانَت الوقيعة على المسلمين للروم فى سنة ٦١٤ ، وأعانهم أهلُ الأشبونة وغيرها من تَمْلكة ابن الرّنق ، فأخذوا فى نَقْبِ الأرْض تحت الحِصْن ،

(١) ز ق ا ر : « والمراكب » .   (٢) ا ر ص ١٨١ .

إلى أنْ قَنِطُوا وأفضى الناس إلى الهلكة ، وبلغ الأمرُ إلى الوُلاَةِ الذين فى غَرْب الأندلس وإشبيلية وقرطبة وجيَّان ، فتجهَّزوا لدفاع العدُوِّ ، وجاء منهم جيشٌ عظيم لكنَّهم تخاذلوا على عادَتِهم ، فكانَت الهزيمةُ عليهم وَوَلَّوْا منهزمين ؛ ووقع القتل والأسْرُ ، ولم يبرز للمسلمين من الروم إلاَّ نحو سبعين فارساً ، ورأى أهلُ الحصن ذلك فأيقنوا بالتغلُّب عليهم .

١٤٧ — قَلْب

هى قاعدةُ مَوْرُور بالأندلس ، ودارُ الولاية بها ، وهى مدينةٌ كبيرةٌ ، فيها مسجدٌ جامعٌ ، وسوقٌ تَرِدُه الناس بضروب المتاجر ، وهى كثيرةُ الزيتون والثمار ، ولها بطائح سهلة ، وجبال شامخة وعرةٌ ، منها جبَلٌ بقبلتها منيعٌ وعْرٌ حصينٌ . وعلى مقربة منه جبل القُرُود .

١٤٨ — قَلْسَانَة = قَلْشَانَة

(بالسين والشين) بالأندلس ، من كُوَر شذونة ، وهى مدينةٌ سَهْلِيَّة على وادى لَكُّه ، وهو بقبلتها ، وينصبُّ فيه على مقربة منها نهر بوطة ، ومَوْقِعُه فى نهر لَكُّه ، ولها قَصَبَةٌ مُشْرِفة بغربيّها ، وتفتح بابها إلى القبلة ؛ وفى المدينة جامعٌ حَسَنُ البناء ، فيه ستُّ بلاطات ، بناه الإمام عبد الرحمٰن بن محمَّد ، وقلشانة متوسّطة المدُن بكُوَر شذونة ، وبها كان قرارُ العمَّال والقوَّاد على شذونة ، ومدينتُها الأوَّليَّة المذكورة فى كتب القَياصِرَة مدينةُ شَذُونَة التى تُعرف فى عصرنا بمدينة ابن السَّليم ، وبنو السَّليم قد انصرفوا

إليها عند خراب مدينة قلشانة وصاروا فيها ، وبيْن قلشانة ومدينة ابن السَّايم خمسة وعشرون مِيلاً ، وهى بيْن الغَرْب والقبلة مِن قلشانة ، وتُعمل فى قلشانة ثيابٌ تُعرف بالقَلْشَانِيَّة مخترعةُ الصنعة ، غريبةُ العمل .

١٤٩ — قَلْعَة أيُّوب

بالأندلس بقرب مدينة سالم .

* وهى مدينةٌ رائقة البقعة ، حصينة ، شديدة المنعة ، كثيرة الأشجار والثمار ، كثيرة الخصب ، رخيصة الأسعار ، وبها يُصْنَعُ الفَضَار المُذَهَّب ، ويتجهَّز به إلى كلّ الجهات ، وهى قريبة من مدينة دَرُوقة ، بينهما ثمانية عشر مِيلاً[1] .

١٥٠ — قَلْعَة رَبَاح

بالأندلس أيضاً من عمل جيَّان ، وهى بيْن قرطبة وطليطلة ؛ وهى مدينةٌ حسنة ، ولها حصونٌ حصينة على نهرٍ ، وهى مدينة مُحْدَثة فى أيَّام بنى أُميَّة ، وإنَّما عمرتْ قلعة رباح بخراب أُورِيط ، وبقرب قلعة رباح حامِضٌ إذا مُخِضَ فى سِقَاءٍ حَلا .

وفى سنة ٢٤١ أمر الإمام محمَّد بتحصين مدينة قلعة رباح والزيادة فى مبانيها ، ونَقْلِ النَّاس إليها وإلى مدينة طَلَبِيرَة ، ثمَّ ملكها النصارى ولم تزل فى أيديهم إلى عام وقيعة الأَرَك ، نخلَتْ قبل الوصول إليها ؛ وكان بقاؤها فى أيديهم إحدى وخمسين سنة وعشرة أشهر ؛ فأمر المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بتطهير جامعها ، وصلَّى فيها ، وقدَّم على قوَّادها يوسف بن قادِس .

(١) ا د س ١٨٩ .

١٥١ — قُلُمْرِيَّة

(بالميم) ، بالأندلس من بلاد بُرْتُقَال ، بينها وبين قُورِيَة أربعة أيّام .

* وهى على جبل مستدير ، وعليها سورٌ حصينٌ ، ولها ثلاثة أبواب ، وهى فى نهاية من الحصانة (1) .

* وهى صغيرة متحضّرة عامرةٌ كثيرةُ الكروم والتفّاح والقراسيا ؛ ومكانها فى رأس جبلٍ تُرابٍ ، لا يُمكن قتالُها ، وهى على نهر عليه أرحاء ، وبين قلمريّة وشنترين ثلاث مراحل ، وبينها وبين البحر اثنا عشر مِيلاً (2) .

١٥٢ — قَنْطَرَة السَّيْف

بالأندلس وهو حصنٌ بينه وبين ماردة يومَانِ ، * وهو حِصْنٌ منيع على نهر (3) القنطرة ، وأهلُها متحصّنون فيه ، ولا يقدر لهم أحدٌ على شىء ، والقنطرة لا يأخذها القتال إلاّ من بابها فَقَطْ (4) ، والقنطرة هذه قنطرة عظيمة على قوسٍ من عمل الأُوَل ، فى أعلاها سيفٌ معلّقٌ لم تغيّره الأزمنة ولا يُدرَى ما تأويله .

١٥٣ — قُورِيَة

بالأندلس ، قريبة من ماردة ، وبينها وبين قنطرة السيف مرحلتانِ ، * ولها سورٌ منيعٌ ، وهى أوّليّة البناء ، واسعة الفناء ، من أحصن المعاقل ، وأحسن المنازل ، ولها بَوَادٍ شريفة خصيبة ، وضياعٌ طيّبة ، وأصنافٌ من الفواكه كثيرة ، وأكثرها العنب والتين (5) .

(1) ا ر ص ١٨٣ . (2) ا ر ص ص ٦٠ . (3) ا ر « نفس » .
(4) ا ر ص ١٨٣ . (5) ا ر ص ١٨٣ .

١٥٤ — قَيْجَاطَة

مدينةٌ بالأندلس من عمل جيّان ؛ كان عبد الله المعروفُ بالبيّاسيّ من بنى عبد المؤمن ، لمّـا نازعه العادلُ ونزل عليه فى بيّاسة ، فلم يقدرْ عليه ، ورجع عنه خائباً ، استدعى البيّاسيُّ النصارى ، فسلّم لهم بيّاسة ، وأخرج منها المسلمين ، وسار مع الفُنش ليدخل مَعَاقِلَ الإسلام باسمه ، فدخل قَيْجَاطة [١] هذه بالسيف ، وقتل العدوُّ فيها خلقاً ، وأسر آخرين ، وكان حديثُها شنيعاً تنفرُ منه الأسماعُ والقلوبُ . ثمّ سار إلى لَوْشة من عمل غرناطة ، فقاتل أهْلَهَا وقاتلوه ، وأسمعوه ما غَاظَه ، فسلّط عليهم النّصارى ، ففتكوا فيهم أشدَّ الفتك ، ثمّ سار إلى بيغُو من عمل غرناطة فدخلها بعد شِدَّة ، وذلك مذكورٌ فى حرف الباء ، وكان ذلك سنة ٦٢٢ .

١٥٥ — قَيْشَاطَة

* حصنٌ بالأندلس كالمدينة ، بينه وبين شُوذَر اثنا عشر مِيلاً ؛ وفى قيشاطة أسواقٌ ورَبَضٌ عامرٌ وحمّام وفنادق ، وعليها جبلٌ ، يُقْطَع به من الخشب الذى تُخْرط منه القِصَاعُ والأطْبَاقُ وغير ذلك مِمّا يَعُمُّ بلاد الأندلس وأكثر بلاد المغرب ، وهذا الجبل يتّصل ببَسْطَة ، وبين جيّان وهذا الحصن مرحلتانِ [٢] .

(١) ت : « قيطاجة » . (٢) ا ر ص ٢٠٣ .

حرف الكاف

١٥٦ — حِصْن الكَرَس

بالاندلس من عمل جيّان ، كان الفُنْش نَزَلَ عليه مدَّة ، وفيه القائد أبو جعفر بن فَرَج ، فارسٌ مشهورٌ بالشجاعة ، فرأى منه ضبْطاً وصَبْراً وحُسْنَ دفاعٍ ؛ وكان عند الفُنش مهندسٌ من المسلمين المُعَاهِدِين بطليطلة ، فصنع له بُرْجاً عظيماً من خشب ارتفع به على سور الحصن ، فلمّا أكمَلَ المهندس عمله ، بعث إلى ابن فَرَج فى الباطن : إنّى صَنَعْتُ هذا البُرْجَ اضطراراً لحفْظِ دَمِى ، وصَوْنِ مَن ورائى من الأهل ، فاحْتَلْ فى إحراقه ، لئلاّ تكون ذنوبُ المسلمين فى عنقى وعنقك ، إن تركْتَه وأنت قادرٌ عليه بأنواع الحِيَل ؛ وقد طَلَيْتُهُ بدِهانٍ خَفِيٍّ يقبل[1] النار بسرعةٍ ، فاعرِفْ كَيْفَ تكونُ فى الكتم والإبقاء[2] عَلَىَّ !

فاختار ابن فَرَج من أنجاد الرجال جماعةً ، ونهض بهم ، وبأيديهم القِطْرَان والكتَّان والنيرَان ، ودفع تحت الظلام بهم نحو البُرْج ، فأَحْرَقَهُ حتّى صار رَمَاداً ، ومات مَنْ كان فيه ومَنْ حَامَى عنه ، ورجع سالماً . فاغتمّ الفُنْش وقال : هذا كان رجاؤُنا فى فَتْحِ الحِصْن ، وقد طالَتْ عليه إقامتُنا ، ولم يَبْقَ إلاّ أَنْ نعلَمَ قَدْرَ ما بقى فيه من الطعام والماء لنبنى أمْرَنا على حقيقةٍ فى ذلك ؛ فانتدب لهذا الشأن نصرانىٌّ ماكرٌ أشْقَرُ أزْرَقُ أنْحَسُ ، تقْضى الفِرَاسةُ بأنّهُ جامعٌ للشرّ ، فأظهر أنّهُ أسْلَمَ وأنّهُ هَرَبَ من الوباء والغَلاء

(١) ت : « يقتل » . (٢) كذا فى ت و س ، ولعلّه : « والايفاء » .

الواقِعَيْن في معسكرهم ، فقبله المسلمون وخالَطَهم حتّى اطّلع على أنّهُ لم يَبْقَ عندهم غير زبيب يقتسمونه بالعَدَد ، وماء يتوزعونه بالقِسْط ؛ فسار ونزل من السور ليلاً إلى أهل مِلّته ، فأَعلمهم بحقيقة الأمر ؛ فوجّه الفُنْش إلى ابن فَرَج : إنّا قد اطّلعنا على خبيئاتكم ، ولم يبقَ إلاّ أن تسلموا الحصن ، وتستريحوا من التعب ، المفضى إلى العطب ، أو تصبروا قليلاً حتّى نظفر بكم رغماً ، فنقتل جميعكم ! فاشترط عليه ابن فَرَج أنْ يقيمَ لأهل الحصن سوقاً حتّى يبيعوا ما لا يُقدَر على حمله ، وأنْ يدفع لهم دوابَّ[1] يحملون عليها أشياءهم إلى جيّان فأوفى لهم بذلك . ولما خرَج ابن فَرَج تعجّب الفُنْش من طوله وعظم خلقته ، وأنكر عليه كونَهُ سلّمَ عليه بالإشارة ولم يُقبّلْ يده ، وتكلّمَ معه الترجمان في ذلك فقال : لو كُنْتُ أخدمه أكان يجوز أن أُقبّلَ يَدَ خصْمِه ؟ فذُكِرَ ذلك للفُنْش فقال : لا يجوز ! وضحك الفُنْش وقال : مثل هذا ينبغى أن تكون الرجال ! وأحسن إليه وأعطاه فرسه وسلاحه وقال له : يعجبنى أنْ يكونَ مثلُك عند مثلى[2] .

قال : وشغل الله تعالى الفُنْش مدّةً طويلةً بهذا الحصن عن بلاد الإسلام ، وكان الناس يرون ذلك في صفيحة ابن فَرَج ، وكان ذلك في سنة ٦٢٠ .

---

(١) ت : « دوابا » . (٢) صه : « مثله » .

حرف اللام

١٥٧ – لَارِدَة

فى ثغر الأندلس الشرقىّ ، وهى مدينة قديمة ابْتُنِيَتْ على نهرٍ يخرجُ من أرض جلِّيقيَّة ، يُعْرَف بشيقر ، وهو النَّهر الذى تُلْقَطُ منه شَذَراتُ الذَّهَبِ الخالصِ ، وهى بشرقىّ مدينة وَشْقة . وكانَتْ مدينة لارِدة قد خربتْ وأقفرتْ ، فَجَدَّد بنيانَها إسماعيل ابن موسى بن لُبّ بن قَسِىّ سنة ٢٧٠ . وحصْنُها منيعٌ ، فلا يُرَام بقتالٍ ، ولا يُطْمَعُ فيه بطول حصار ؛ وبأعلاه مسجدٌ جامع مُتقَنُ البناء ، بُنِىَ سنة ٢٨٨ . والحصن مُشْرِفٌ على فَحْصٍ عَرِيضٍ يُعْرَف بفَحْص مشكيجان (بتفخيم الجيم) ؛ ومدينة لارِدَة خصيبة على الجدوب ، ولها بساتين كثيرة ، وفواكه غزيرة ، وهى مخصوصة بكثرة الكتَّان وطيبه ، ومنها يتجهّز بالكتَّان إلى جميع نواحى الثغور ؛ وفَحْص مشكيجان كثيرة الضياع والمزارع والمراعى ، ولا تخلو ضيعةٌ منها أن يكونَ بها برجٌ أو سِرْداب يمتنع فيه العامِرُون بها من العدوّ ؛ وأهل الثغور فى عَملها يُخْرِجون الأموال من الوَصَايا والصَّدَقات .

١٥٨ – لَبْـــلَة

فى غَرْب الأندلس مدينةٌ قديمةٌ بها ثلاث عيون : إحداها عين تهشرُ وهى أغزرُها ، والثانية عينٌ تنبعثُ بالشبّ ، والثالثة عين تنبعثُ بالزاج ، ومن إشبيلية إلى طَلْيَاطة مرحلة من عشرين مِيلاً ، ومن طَلْيَاطة إلى لَبْـلَة مرحلةٌ مثلُها ؛ وتُعرف لَبْـلَة بالحَمْرَاء ، وفيها آثارٌ للأُوَل كثيرة ، وسور لَبْـلَة قد عُقِد على أربعة تماثيل : صنَمٌ تسمِّيه العامّة

دردب ، وعليه صَنَمٌ آخر ، وصَنَم تُسمِّيه العامَّة مكبح ، وعليه صَنَم آخر ؛ ويُخَيَّلُ إلى الناظر أن ذلك البنيان موضوع على أعناقهم ، وانفردَتْ بهذه البِنْيَةِ من بين سائِر المُدُن ؛ ومن مدنها مدينة جبل العُيون .

* ولَبْلَةَ مدينةٌ حسنة أزَليّةٌ متوسّطة القدر ، ولها سورٌ منيع ، ونهرُها يَأْتيها من ناحية الجبل ، ويُجازُ عليه فى قنطرة إلى لَبْلة ، وبها أسْوَاقٌ وتجارات ، وبيْنها وبيْن البحر المُحيط ستَّة أميال(١) .

وكُوَر لَبْلَة جامِعَةٌ لفوائد الكُوَر ، كثيرة الزيتون والشجر وضروبِ الثمار ، يكون فيها القرنفل الفاضِل ، ويجود بها العُصْفُر ، وهى سَهْلِيَّةٌ جَبَلِيَة ؛ وكانَتْ جباية كورة لَبْلة فى أيَّام الأمير الحَكَم بن هشام خمسة عشر ألفاً وستّمائة .

١٥٩ — اَكُّه

مدينة بالأندلس ، من كورة شذونة ، قديمةٌ ، من بنيان قَيْصر اكْتَبْيَان ، وآثارُها باقيةٌ ، ولها حَمَّةٌ من أشرف حمَّات الأنداس .

وعلى نهر لَكُّه هذه ، الْتَقى لُذْرِيق مَلِك الأنداس فى جموعِهِ من العَجَم ، وطارِقُ ابنُ زيادٍ فى مَنْ معه من المسلمين ، يومَ الأحد لِلَيْلَتَيْن بقِيَتا من شهرِ رمضان لسنة ٩٢ من الهجرة ؛ فاتَّصلت الحربُ بيْنهم إلى يوم الاحد لخمس خَلَوْن من شوَّالٍ بعده ، ثمَّ هزم الله المشركين ، فقُتِلَ منهم خلقٌ عظيمٌ ، أقامَتْ عظامُهُمْ بعد ذلك دهراً طويلاً بتلك الأرض ، وحاز المسلمون من عسكرهم ما يَجِلُّ قدره ؛ فكانوا يعرفون كبار العَجَم

(١) ا د ص ١٧٨ .

وملوكهم بخَوَاتِمِ الذَّهَب يجدونها في أصابِعِهِم ، ويعرفون مَنْ دونهم بخواتِمِ الفضَّة ، ويميِّزون عبيدَهم بخواتِمِ النُّحَاس.

١٦٠ — لَمَايَة

إقليمُ لَمَايَة من أقاليم كورة ريُّه بالأندلس ، وبهذا الإقليم جبلٌ يتَّصل بفَحْص قرطبة ، ويُعرف واديه بوادى لَمَايَة ؛ وفى سَنَد هذا الجبل تمثالُ صورةِ إنسانٍ بموضع لا يَصِلُ إليه إلاَّ مَنْ تَدَلَّى بالحبال ؛ ويُذْكر أنَّه لا يزال يسقط من منخرِ ذلك التمثال الأَيْمَنِ نقطُ ماءٍ ، وأنَّ العَذْرَاء من النساء تُخْتَبَرُ بهِ ، وذلك بأَنْ تُحَاذِيَ بيدها التمثالَ ، فإن كانَتْ بكْرًا قطر الماء فى يدها ، وإلاّ لم يوافِقْ يَدَها ، ولو جهدَتْ فى ذلك جهدَها ؛ هذا عند أهل الناحية مستفيضٌ وأَخْبَرَ به الثِّقَاتُ .

١٦١ — لَقَنْت

من بلاد الأندلس ، وبيْنها وبيْن دانية على الساحل سبعون ميلا .

* وهى مدينةٌ صغيرةٌ عامرةٌ ، وبها سوقٌ ومسجدٌ جامعٌ ومنبرٌ ، ويُتَجَهَّزُ منها بالحَلْفاء إلى جميع بلاد البحر ، وبها فواكه وبقل كثير وتينٌ وأعنابٌ ، ولها قَصَبَةٌ منيعةٌ جدًّا ، فى أعلى جبلٍ يُصْعَدُ إليْهِ بمشقَّةٍ وتعبٍ ، وهى على صِغَرِها تُنْشَأُ بها المراكبُ السفريّة والحَرَارِيق ، ومن لَقَنْتَ إلى أَلْش فى البرِّ مرحلةٌ[1] .

---

(١) ا، ص ١٩٣ .

١٦٢ - لُورَقَة

بالأندلس من بلاد تُدْمِير ، إحدى المعاقِل السبعة التي عاهَد عليها تُدْمِير ، وهى كثيرةُ الزرع والضرع والخمر .

* وهى على ظهر جبل ، وبها أسواق ورَبَضٌ فى أسفل المدينة ، وعلى الربَض سورٌ ، وفى الربَض السوقُ ، وبها مَعْدِن تُرْبَةٍ صفراء ، ومَعَادِنُ مَغْرَةٍ تُحمل إلى كثير من الأقطار ، وبيْنها وبيْن مُرْسية أربعون مِيلاً[1] ، وفيها مَعَادِن لأَزَوَرْد .

ومن أغْرَب الغرائب الزيتونة التي على مقربة من حِصْنِ سرنيط ، وهو حصنٌ من حصون لورقة البرّانيَّة منها ، وهى زيتونةٌ فى حُرْمَة الجبل ، فإذا كان وقتُ صلاة العَصْر من اليوم الذى يستقبلُ أوّلَ ليلة من شهر مَيُّه ، نَوّرَت الزيتونة فلا يَجِنُّ عليها الليل إلاّ وقَدْ عقدَتْ ، ولا تُصْبِحُ إلاّ وقد اسودَّ زَيْتُونُها وطاب ، قد عرف ذلك الخاصّةُ والعَامّةُ ووقفوا عليه .

وذكر إبراهيم بن يوسف الطُّرْطُوشِيُّ أنّ مَلِكَ الروم قال له سنة ٣٠٥ : إنى أُريد أنْ أُرسل إلى مَلِك الأنداس قُومِسًا بهديَّةٍ ، وإنّ مِنْ أعظم حَوَائجى عنده ، وأعظم مطالبِى لَدَيْهِ أنَّ القاعَةَ الكريمةَ الكنيسةَ التى فى الدار التى فيها الزيتونة المباركة ، التى تنوِّر وتعقد ليلةَ الميلاد ، وتطعم من نهارها ، فبِهَا قَبْرُ شهيدٍ له مَحَلٌ عظيمٌ عند الله عزَّ وَجَلَّ ؛ فأنا أسْأَلُهُ مُدَارَاةَ أهل تلك الكنيسة ، وملاطفتَهم ، حتى يَسْمَحُوا لى بعِظام ذلك الشهيد ؛ فإن حصل لى فهو أجلُّ عندى من كل نعمةٍ فى الأرض !

(١) ا و ص ١٩٦ .

وبهذه الناحية موضعٌ معروفٌ ، من أراد أنْ يتَّخذَ فيه جنانًا ، صرف إلى الموضع العناية بالتدمين والعمارة والسَّقْى من النَّهْر ، فتُنبت الأرض هناك بطبعها شَجَرَ التفّاح والكمَّثرى والتين والرُّمّان وضروب الفواكه ، حاشا شجر التوت ، من غير غراسةٍ ولا اعتمال . وهذا الموضع يعرف بأَشكُونى(١) .

وتفسير لورَقة باللَّطينيّ « الزرع الخصيب » وهذا الاسم وافَقَ معناه ، لأنّها من المعاقِل الخصيبة ، وعلى نَهْرٍ مَجْرَاهُ إلى الشرق من هذا القطر ، كما يختبر فى أرض مِصْر ، ولهذا النّهْرِ هناك مَجْرَيَانِ ، أحدُهما أعلى من الثانى ، فإذا احتيج إلى السَّقْيِ به عُولِيَ بالسّداد حتَّى يَرْقى المَجْرَى الأعلى فيُسْقَى به . وعلى هذا النّهْر نَوَاعِيرُ فى مواضِع مختلفة ، تُسْقَى به البساتينُ ، ويخرج منه الجداولُ العظيمةُ ، يسقى الجَدْوَلُ عشرةَ فَرَاسِخَ وأكثر . وطعامُ لورقة يبقى مُطَمَّرًا تحت الأرض عشرين عامًا لا يُغَيَّرُ ، وكثيراً ما يُجاحُ زروع لورقة بالجراد ، ويزعُم أهلُها أنّه كان فيها جرادة من ذهب طِلَسْماً(٢) لدفعِ مَضَارّ الجراد ، فسُرِقَتْ من هناك ، فلم يَزَلْ الجرادُ من حينئذٍ ظاهِراً عندهم فاشِيًا . ويزعمون أنّ البقر كانت لا تُقْتَل عندهم ، ولا يقع عندهم فيها المَوْتان العامُّ لها فى بعض الأعوام ، حتَّى وُجِد فى بعض الأساس من مبانى الأُوَل ثَوْرَانِ من صَخْرٍ ، أحدُهما أمَامَ صاحِبِهِ ، ينظر إليه ، فلما انتزِعَتْ من ذلك الموضع وقع المَوْتان فى البقر عندهم ذلك العَامَ .

ولِلُورَقة الفَحْصُ الذى لا يُعلم فى الأرض مثلُه ، وهو المعروف بالفُنْدُون ، المتَّصِل بفحص شَنْقَنِيرة ، ومسافةُ ذلك خمسة وعشرون مِيلاً .

---

(١) راجع أعلاه ترجمة أشكونى رقم ١٦ ص ٢٢ .   (٢) ت : « طلبا » .

وكان قدم قرطبةَ أيّامَ الأمير محمد قومٌ من وجوه المُضَريَّة واليمانيّة بتُدْمِير ، فسألوهم عن هذا الفحْص فذكروا فضلَه ونموَّ ما يزدرع فيـه فأكثروا وقالوا : إنّ الحبَّةَ تتفرّع من أصلها ثلاثمائة قصبة ! فأنكر ذلك بعضُهم ، فكذّبه ، فوجّهوا رسولاً أمروه بإغراء اليقين ، وبحَمْـل أُصُولٍ من ذلك الزرع فأحضرها ، فأحصى فى كلّ أصلٍ ثلاثمـائة قصبة وأكثر ، فى كلّ قصبة سنبلةٌ .

وبقرية تازة ، من قُرَى لورقة ، عيْنٌ تخرج من حَجَرٍ صلْد ، تجرى فى قناةٍ منقورةٍ فى الحَجَر ، عمقُها أكثر من قامة ، نحوَ مِيلَيْن ، ثمّ يتّصل الماء بنُقَبٍ من الحَجَر الصلْد ، ومَنَاهِدَ مفتوحةٍ إلى أعلى المنافِس للهواء ، ثمّ يفضى إلى بيتٍ فى داخل الجبل ظليم مملوءٍ ماءً ، والجبل كلُّه معتَمَدٌ له على أرْجُلٍ ، ومن دخل إليه لا يعلم ما وراء تلك الأرْجُل .

١٦٣ — لَوْشَة

بالأندلس من أقاليم إلبيرة ، بيْنهما ثلاثون مِيلاً . وبها جبلٌ فيه غار يُصْعَدُ إليه ، وعلى فَمِه شجرةٌ ، وهو فى حَجَرٍ صلْدٍ ، عمقُه نحو قامَتَيْن ، فيه أربعة نَفَر مَوْتَى لا يُعْلَم أوّلُ أمْرِهم ولا وَقْتُ موتِهم ، يذكر الأبْناء عن الآباء أنّهُم ألفوهم هكذا ، إلاّ أنّ الملوكَ والولاةَ لم يزالوا يراعون أمورَهم ، ويتعهّدون تجديدَ أكفانهم ، ولا توضع عليهم إلاّ بعد أنْ يُقْطَعَ فيها قطوعٌ[1] كثيرةٌ لئلاّ يطمع الفَسَقَةُ بالانتفاع بها فيخلعونها عنهم . وهو غارٌ موحش مُظلم مُرْهِب ، لا يدخله إلاّ رابطُ الجأشِ جرِىءُ النفس .

وكان صاحب بَيّاسـة عبد الله المعروف بالبيّاسىّ من بنى عبد المؤمن ، لمّا ضايقه

(١) ت : « يقطر فيها نطوع » .

العادِلُ فى سنة ٦٢٢ استعان بالنصارى وسلَّم لهم بيَّاسة ، فدخل قَيْجَاطة[1] بالسيف ، وسار بالعدوّ إلى لَوْشة هذه ، فقاتلهم أَشَدَّ قتالٍ ، وسقط عليهم عدوُّ الدين ، فقتلوا فيهم أَشَدَّ القتل ، ثمَّ سار إلى بيِغُو من عمل غرناطة ، فاحتوى عليها بعد شدّة .

١٦٤ — إيُون

* قاعدةٌ من قواعد قشتالة ، عامرةٌ ، بها معاملات وتجارات ومكاسب ، ولأَهْلها همّةٌ ونفاسة[2] .

(١) ت : « قيطاجة » (٢) ادرس ص ٦٦ — ٦٧ .

حرف الميم

١٦٥ — مارْتُلَة

على نهر بَطَلْيَوْس ، بجزيرة الأندلس ، منها الزاهِدُ موسى بن عِمْران المارْتلىّ ، اشتهر بإشبيلية بالصلاح ، وله شعرٌ مُدَوَّنٌ منقولٌ ، مِنْه [كامل] :

أوصيك لا تُرِدِ الشَّها   دَةَ والإمَامةَ والأَمَانَهْ
تسلمْ من التجريحِ والـــحسد المُبَرِّح والخيانَهْ

ولَمَّا جاز المنصور المُوحِّدِى البحر إلى الجهاد عام الأَرَك ، زاره ثمَّ وَجَّهَ إليه مالاً ، فقال للرسول : هو أَحْوَجُ فى ماله ! قُلْ له : هذه مائة دينار من حَلالٍ خُذْها لنفقتك فى هذه الغزوة ، إنّى أرجو إنْ لَمْ تطعم إلاَّ الحلالَ أَنْ تنصَر ! فيقال إنّ المنصور قبل منها ما نابه لخاصَّته فى تلك الحركة ، فلم يَزَلْ يتعرّف بِبَرَكتها حتَّى نصَرهُ الله تعالى . وتوفّى فى سنة ٥٩١ .

١٦٦ — مَارِدَة

* مدينةٌ بجوفىِّ قرطبة ، منحرفة إلى الغرب قليلاً ، وكانَتْ مدينةً ينزلها الملوكُ الأوائل ، فكثُرَتْ بها آثارُهُم والمياهُ المستَجْلَبَةُ إليها[١] ، واتّصل ملكهم إلى أن ملك منهم سبعة وعشرون ملكاً ؛ ويقال إنَّ ذا القرنَيْن كان منهم ، وكان يقال لهذه الأُمَّة الشبُونقات[٢] ، ثمَّ دخلت أُمَّةُ القُوط فغلبوا على الأندلس ، فاقتطعوها من صاحب

(١) ب ه ص ٢٦٢   (٢) ت و سه : « البشترلفات » .

رُومة ، واتَّخذوا طليطلة دارَ مُلْـكهم وأقَرُّوا فيهـا سريرَ مُلْـكهم إلى أنْ دَخَل عليهم الإسلامُ ؛ وكان آخرهم لُذْرِيق ، وكان قد أَحْدَقَ بمارِدة سورًا عرضه اثنا عشر ذراعًا ، وارتفاعه ثمانى عشر ذراعاً ، وكان على بابها ممَّا يَلي الغرب حَنَايَات يكون طولها خمسين ذراعًا ، متقنةُ البناء ، عددها ثلاثمـائة وستُّون حنيَّة ، وفى وسط قنطرتها بُرْجٌ مُحْنًى ، يسلك تحته مَنْ سلك فى القنطرة ؛ وتفسيرُها باللسان اللَّطِينىّ « مسكن الأشراف » .

وقيل بل * كانَتْ دارَ مَمْلـكةٍ لمَارِدَة بنت هَرْسُوس المَلِك ، وبهـا من البناءِ آثارٌ ظاهرة تنطق عن مُلْكٍ وقُدْرة ، وتُعْرِبُ عن نخوةٍ وعزٍّ وتُفْصِحُ عن غِبْطةٍ وعِبْرة ؛ ولها فى قَصَبَتها قصورٌ خربة ، وفيها دارٌ يقال لها دار الطبيخ ، وهى فى ظهر القصر ، وكان الماء يأتى فى دار الطبيخ فى ساقية ، هى الآن باقية الأثر ، فتُوضَع صحافُ الذّهب والفِضّة بأنواع الطعام فى تلك الساقية على المـاء حتَّى تخرج بين يدَىْ المَلِـكة ، فتُرفع على الموائد ، ثمَّ إذا فُرِغَ من أكْلِ ما فيها وُضِعَتْ فى الساقية ، فتسـتدير إلى أنْ تَصِلَ إلى يد الطبَّاخ بدار الطبخ ، فيرفعها بعـد غَسْلها ، ثمَّ يَمُرُّ ذلك المـاءُ فى سروب القصر ؛ ومن أغرب الغرائب جَلْبُ المـاء الذى كان يـأتى إلى القَصْر على عُمُدٍ مبنيَّةٍ تسمَّى الارجالات ، وهى أَعْدَادٌ كثيرة باقية إلى الآن ، قائمةٌ على قوائمَ لم تُخِلَّ بها الأَزْمان ، ولا غَيَّرتْهَا الدُّهور ، فنها قِصارٌ ، ومنها طِوَالٌ ، بحسب الأماكن التى كان فيها البناء ، وأطولهـا يكون غلوة سهمٍ ، وهى على خطٍّ مستقيمٍ ؛ وكان المـاء يأتى عليها فى قِنًى مصنوعةٍ خربَتْ وفَنِيَتْ ، وبقيَتْ تلك الارجالات قائمةً ، يُخَيَّـلُ إلى النَّاظر إليها أنَّها من حَجَرٍ واحدٍ لحكمة إتقانها وتجويد صـنعتها ؛ وفى الجنوب من سور هذه المدينة قَصْرٌ آخر صغير ، وفى بُرْج منه مكان مرْآةٍ كانت المَلِـكة مَارِدَة تنظر إلى وجهها فيه ،

ومحيط دوره عشرون شبراً ، وكان يدور على حَرْفِهِ ، وكان دورانُه قائمًا ، ومكانُه إلى الآن باقٍ ؛ ويقال إنَّما صنعَتْه مَارِدَةُ لتُحَاكى به مِرْآةَ ذى القرنَيْن التى وضعها فى منارة الإسكندريَّة[١] .

وقال هاشم بن عبد العزيز ، وقد تذاكروا شَرَفَ ماردة وفَضْلَ ما فيها من الرخام ؛ قال[٢] : كُنْتُ كَلِفاً بالرخام ، فلما وَلِيتُ مَارِدة تتبَّعْتُه لأنتقِلَ منه كلَّ ما استحسنتُه ، فبينا أطوفُ فى بعض الأيَّام بالمدينة إذْ نظرتُ إلى لوحِ رخامٍ فى سورِها ، شديدِ الصفاء ، كثيراً ما يُخيَّل للناظر أنَّهُ الجَوْهَرُ ، فأمرتُ باقتلاعه ، فقُلِعَ بَعد معاناةٍ ، فلما أُنزِل وُجِد فيه كتابٌ أعجمىٌّ ، فجمعتُ عليه من كان بماردة من النَّصارى ، فزعموا أنَّه لا يقدر على ترجمته إلاَّ أَعْجَمِىٌّ ذَكَرُوهُ يُعظِّمُونه ، فأَنْفَذْتُ فيه رسولاً ، فأُتِيتُ بشيخٍ هَرِمٍ كبيرٍ ، فلما وُضِع اللوح بين يَدَيْه أجهش بالبكاء ، واستعبر مَلِيًّا ، ثمَّ قال لترجمته : براءةٌ لأهل إيلياء من عمل فى سورها خمس عشرة ذراعًا ، فقد كان فى افتتاح الأندلس وُجِد فى كنائس ماردة ما وقع إليها من ذخائر بيت المَقْدس عند انتهاب بُخْت نَصَّر لإيلياء ، وكان مِمَّن حضره فى جنوده إشبان[٣] ملك الأنداس ، ووقع ذلك وغيره فى سهامه .

وقصر مارِدة بناهُ عبدُ الملك بن كُلَيْب بن ثعْلَبَة ، وهو منيعٌ ، طول كلِّ شقَّة من سوره ثلاثمائة ذراع ، وعرض البناء اثنا عشر ذراعًا ؛ وقنطرة مارِدة عجيبةُ البنيان ، طولها مِيلٌ بأَبْدَع ما يكون من البنيان . ومن ماردة إلى بَطَلْيَوْس عشرون مِيلاً .

١٦٧ — مَالَقَة

بالأندلس ، مدينةٌ على شاطئ البحر ، عليها سورُ صخرٍ والبحرُ فى قِبْلَتها ، وهى

(١) ا و ص ١٨١ — ١٨٣ (٢) راجع اقتباس الأنوار للرُشاطىّ فى ترجمة المارِدىّ .

(٣) س : برمان .

حسنةٌ عامرةٌ آهلةٌ ، كثيرةُ الديار ، وفيما استدار بها من جميع جهاتها شَجَرُ التّينِ المنسوبِ إليها ، وهى تُحْمَل إلى مِصْر والشأم والعراق ، وربّما وصل إلى الهند ، وهو من أحسن التين طيباً وعذوبةً ، ولها ربَضَانِ كبيرانِ ، وشربُ أهلِها من الآبار ، ولها وادٍ يجرى فى زمان الشتاء ، وليس بدائم الجَرْى[1] .

وهى من تأسيس الأُوَل ، وأكثر المدينـة على جِسْرٍ من بناء الأُوَل ، والجِسْرُ داخلٌ فى البُحَيْرَتَيْنِ هناك ، قد بُنِيَ بصَخْرٍ كأُنوفِ الجبالِ ؛ وقَصَبَتُهَا فى شرقىّ مدينتها ، عليها سورُ صَخْرٍ ، وهى فى غاية الحصانة والمنعة . وفى هذه القصـبة مسجدٌ بناه الفقيهُ المُحدِّثُ معاوية بن صالح الحِمْصِىُّ ، وكان ممّن حضر وقعة مروان بن محمّد ليلةَ بُوصِير ، فأنجاه الفرارُ ، ولجأ إلى الأندلس فَرَقًا من المُسَوِّدَة ، ومات بها ، وله روايات وتقدُّمٌ فى السُّنَّة والعلم ؛ وجامعُ مدينة مالقة بالمدينة ، وهو خمسُ بلاطات ، ولها خمسةُ أبواب ، بابان منهـا إلى البحر ، وبابٌ شرقىٌّ يُعرف بباب الوادى ، وبابٌ جوفىٌّ يُعرف بباب الخَوْخَة ، وبها مَبَانٍ فخمة ، وحمّامات حسنة ، وأسواق جامعة كثيرة فى الرَّبَض والمدينة ؛ وذَكرَها الأُوَل فى كُتُبهم فقالوا : مدينة مالقة لا بأسَ عليها ، ولا فَرَق ، آمِنةٌ من جوعٍ وسَبْيٍ ودمٍ ، مكتوبٌ ذلك فى العِلْمِ الذى يُكْتَب ؛ وقد قيل إنَّ هذه الكلمات وُجِدَتْ فى بعض حجارتها نَقْشًا بالقلم الإغريقىّ .

قال : وجميع هذه الآثار التى أمْنُها منها ، وبقاؤها عنها ، قد لَحِقْتُ بها ، وجَمَعْتُ لها سنة ٤٥٩ ، بمُحَاصرةِ عبّاد بن عبّاد لها ، واستطالةِ بَرَابِر قصَبَتِها على أهْلِها ، فشملهم الضرُّ ، وعمّهم الفقرُ ؛ ثُمَّ استحلّتْ حرماتُهم وسفكَتْ مهجاتُهم ؛ فما نجا فى البحر إلاّ

(١) اد ص ٢٠٠ .

الشريد ، ولا تخلَّص إلاَّ السعيد ؛ فَخَلَتْ ديارُهم ، وتعطَّلَتْ آثارُهم . انتهى .

وكذلك عندما نشأتْ الفتنة فى آخر أيَّام المُلَثَّمين وصَدْرِ دولة الموحِّدين ، بقيام ابن حسّون فيها ، وبعد ما قَتَل فيها من قَتَلَ وغَرَّب من غَرَّب ، قتل نفسه عند قيام أهل البلد عليه ، فَسُبِيَتْ حريمُهُ ، ومُزِّقوا فى البلاد كلَّ ممزَّقٍ ، وأُسِيطَتْ حاله ، ولله الحكمةُ البالغة .

ومن مالقة إلى أُرْشُذُونة ثمانية وعشرون مِيلاً ، ومَرْسَى مالقة صيفيٌّ يكنُّ بالغربىّ ، وبإزائه ممّا يَلِى المدينة الجِسْرُ الذى ذكرناه ، ينكسر عليه الموجُ .

ولما وَلِىَ القاضى المحدِّثُ الشهيرُ أبو محمّد عبد الله بن سليمان بن حوط الله الأنصارىُّ قضاء مالَقَة ، وقدم عليها ، خرج طَلَبَتُها إلى لقائه ، فأنشدهم [سريع] :

مالَقَةُ حيّيتَ يا تينَها الفُلْكُ من أجلك يأتينَها
نَهَى طبيبى عنْك فى عِلّتى ما لطبيبى عن حياتى نَهَا

١٦٨ — مَدِينَةُ الْمَائِدَة

فى أحواز طُلَيطُلَة سُمِّيَتْ بذلك لأنَّها وُجِدَتْ فيها المائدةُ المنسوبةُ إلى سليمان بن داوود (عليهما السلام) ، وهى خَضْرَاء من زَبَرْجَد ، حافاتُها وأرجُلُها ، وفيها ثلاثمائة وخمسة وستّون رِجْلاً ؛ وانتهى إليها طارق حين مضى إلى طليطلة سنة ٩٣ .

١٦٩ — مَجْرِيط

مدينةٌ بالأندلس شريفةٌ ، بَنَاها الأميرُ محمَّد بن عبد الرحمٰن ، ومن مجريط إلى قنطرة ماقدة ، وهو آخر حَيِّزِ الإسلامِ ، إحدى وثلاثون مِيلاً ، وفى مجريط تربةٌ

يُصنع منها البِرَامُ ، وتُستَعْمَلُ عَلَى النار عشرين سنةً لا تنكسر ، وما طُبِخَ فيها لا يكادُ يتغيَّر فى حَرِّ الهواء ؛ وحصنُ مجريط من الحصون الجليلة ، وهو من بناء الأمير محمّد ابن عبد الرحمن . وذكر ابن حيّان فى تأريخه الخَنْدَق الذى خُنْدِقَ بخارج سور مجريط قال : عُثِرَ فيه على قَبْرٍ بِرِمَّةٍ عَادِيَةٍ ، كان طولُهَا إحدى وخمسين ذراعًا ، التى هى مائة شبر وشبران ، من نُمْرُقَة(١) رأسِهِ إلى طرفِ قَدَمَيْه ، وصحّ هذا بالثَّبَت من مُخاطبةِ قاضى مجريط ، وَوُقوفِه عليه ، ومُعاينتِهِ إيّاه ، ومُعاينةِ شهودِه ذلك ، وأَخْبَرَ أَنَّ مِقْدَارَ ما وَسِعَهُ تَجْوِيفُ قَحْفِ دِمَاغِهِ ما قدرُه ثمانية أرباع أو نحوها ، فسبحانَ مَنْ له فى كلّ شىءٍ آيةٌ !

* ومجريط مدينةٌ صغيرةٌ ، وقلعةٌ منيعةٌ ، وكان لها فى زمن الإسلام مسجدٌ جامعٌ وخطبةٌ قائمةٌ(٢) ، وهى بمقربة من طليطلة .

١٧٠ – مَرْبَلَّة

بالأندلس بقرب مرسى سُهَيْل ومرسى مالَقَة ، ومَرْبَلّة مدينةٌ صغيرةٌ مسوّرةٌ من بِنَاء الأُوَلِ ، محكمةُ العمل ، ممتنعةُ المرام ؛ وهناك جبلٌ منيفٌ عالٍ ، يزعم أهل تلك الناحية أنّ النجم المسمّى سُهَيْلاً يُرَى من أعلاه ، ولذلك سُمِّيَ أبو القاسم الأستاذ الحافظ ، مؤلِّف الروض الأُنُف ، السُّهَيْلِيَّ .

١٧١ – مُرْبيطُر

حصنٌ بالأندلس ، قريبٌ من طُرْطوشة ، وهو على جبل ، والبحر بقبلته ،

(١) س : « نمودة » . (٢) ار ص ١٨٨ .

ويظهر منه شرقاً وغَرْباً ؛ وبمربيطر جامعٌ ومساجدُ ، وفيها آثارٌ للأُوَل : دارُ مَلْعب وأصنامٌ وغيرِ ذلك ؛ وهى كثيرةُ الزيتون والشجر والأعناب وأصناف الثمار ؛ ومن مربيطر إلى أوّل قُرَى بُرِيَّانة تسعةَ عشر ميلاً ونصفُ ميلٍ .

١٧٢ — مَرْج الأمير

بالأندلس عند قرية مليس ، بقرب وادى آش ، وبه عَسْكَرَ عبد الرحمٰن بن محمّد إذْ كان مُحاصِراً لِحِصْنِ اشْتَبين .

١٧٣ — مرسانة

مدينة بكورة إشبيلية ، ومرسانة أيضاً من حصون المريّة .

١٧٤ — مُرْسِية

بالأندلس ، وهى قاعدة تُدْمِير ، بناها الأميرُ عبد الرحمٰن بن الحكم ، واتُّخذت داراً للعُمَّال ، وقراراً للقوّاد . وكان الذى تولّى بنيانَها ، وخرج العَهْدُ إليه فى اتّخاذِها جابرُ بن مالك بن لبيد ؛ وكان تأريخ الكتاب يوم الأحد لأربع خلون من ربيع الأوّل سنة ٢١٦ ؛ فلما بناها ورد كتابُ الأمير عبد الرحمٰن على جابر بن مالك بخرابِ مدينةِ أَلُّه من المُضَريّة واليمانيّة ؛ وكان السببُ فى ذلك أنَّ رجلاً من اليمانيّة استقى من وادى لُورَقة قُلَّةً ، وأخَذَ وَرَقةً من كرْمٍ لرجل من المُضَريّة ، فغطّى بها القُلّة ، فأنكر ذلك المُضَرىُّ وقال : إنّما ذلك استخفافاً بى إذْ انقَطَعَتْ وَرقُ كَرْمى ، وتَفَاقَمَ الأمرُ بينهما حتّى تحارَبَ الحَيَّانِ ، وعَسْكَرَ بعضُهم إلى بعضٍ ، واقتتلا أشدَّ قتالٍ .

ومرسية على نهر كبير يسقى جميعَها كنيل مِصْرَ ، ولها جامعٌ جليلٌ ، وحمّامات

وأسواق عامرةٌ ، وهى راخيةٌ أكثر الدهر ، رخيصة الفواكه ، كثيرة الشجر والأعناب وأصناف الثمار ، وبها معادنُ فضّةٍ غزيرةٌ متّصلةُ المادّةِ ؛ وكانت تُصنَعُ بها البُسُطُ الرفيعةُ الشريفةُ ؛ ولأهل مرسية حذقٌ بصنعتِها وتجويدِها لا يبلغُه غيرُهم .

ومن مرسية أبو غَالِب تَمّام بن غَالِب ، المعروف بابن التَّيَّانىّ اللُّغوىّ المُرْسىّ صاحب الموعب ؛ وكان أبو الجَيْش مُجَاهد بن عبد الله ، صاحب دانية ، قد تغلّب على مرسية وأبو غالب إذ ذاك بها ، فأرسل إليه ألف دينار على أنْ يزيد فى ترجمة الكتاب أنّه ألّفه لأبى الجَيْش مُجَاهد ، فَرَدَّ الدنانير وأَبَى من ذلك وقال : واللهِ لو بُذلَتْ[1] لى الدنيا على ذلك ما فعلتُ ، ولا استجزتُ الكذبَ ، فإنّى لم أجمعه لك خاصّةً ، وإنّما جمعتهُ لكلّ طالبِ علمٍ .

وعلى أربعين مِيلاً من مُرْسية عينُ ماءٍ عذْبٍ ، يقصدُها مَنْ عَلِق العَلَقُ بحلقِهِ ، فيفتح به ، فيسقط العلقُ لحينهِ ، وذلك بإقليم إياش ؛ وقال بعضهم : هذا طِبٌّ تامٌّ يوجَد فى كلّ ماءٍ عذبٍ باردٍ إذا فتح فيه عليه من عَلِقَ العَلَقُ به أسقطه فى الأغلب ، وذلك لأنّ العلق إنّما ينشا فى الماء العذب ، فيطرأ عليه من خلاف ذلك المزاج ما يستروح منه إلى الماء ، وكثيراً ما يطبُّ به الأطبّاء فيستغنون به عن شجر أناغاليس الذى من شأنه قتْل العَلَق ، وعن العَكُّوب وعن الخلّ وأمثال هذه الأشياء .

* ومرسية فى مستوٍ من الأرض ، ولها رَبَضٌ عامرٌ آهلٌ ، وعليها وعلى رَبَضها أسوارٌ ، وحظائرُ متقنة ، والماء يشقُّ رَبَضَها ، وهى على ضَفَّة النهر ، ويُجاز إليها على قنطرةٍ مصنوعةٍ من المرَاكِب ، ولها أرحاءٌ طاحنةٌ فى مرَاكِب تنتقل من موضع إلى

(١) ت : « نزلت » .

موضع ، وبها شجر التين كثيرٌ ، ولها حصونٌ وقِلاعٌ وقواعِد وأقاليم معدومةُ المثال ، ومنها إلى بلنسية خمس مراحِل ، ومنها إلى قرطبة عشر مراحِل[1] .

ويخرُجُ من نهر مرسية جدولٌ على مقربة من قنطرةِ اشكابه ، قد نَقَرَتْه الأُوَل فى الجبل وهو حَجَر ، وجابُوه نحوَ مِيلٍ ، وهـذا الجدولُ هو الذى يسقى قبلىَّ مرسية ، ونقبوا بإزاء هـذا النَّقْب فى الجبل الموازى لهذا الجبل نَقْباً آخر ، مسافته نحو ميلَيْن ، أخرجوا فيه جدولاً ثانياً ، وهو الذى يسقى جوفىَّ مرسية ؛ ولهذَيْن الجدولَيْن مَنَافِس فى أعلى الجبلَيْن ، ومَنَاهِد إلى الوادى ؛ تنقى الجَدْوَلاَنِ منه بفتحها وانحدار الماء ممَّا اجتمع من الغثاء فيهما ؛ ولا يُسقى من نهر مرسية شىء بغير هذَيْن الجَدْولَيْن إلاَّ ما رُفع[2] بالدَّوَالِيب والسَّوَانِى ؛ وبين موْقع هذَيْن النَّقِيرَيْن[3] ومرسية ستَّةُ أميال .

١٧٥ — المَرِيَّة

بالأندلس مدينةٌ مُحْدَثَةٌ ، أمر ببنائها أميرُ المؤمنين ، الناصر لدين الله ، عبد الرحمن ابن محمَّد سنة ٣٤٤ . وفيها يقول الشاعر [مُجتَثّ] :

قالوا المريَّة صِفْها فقلتُ نَطٌّ وشِيحُ
وقيلَ فيها مَعَاشٌ فقلتُ إن هبَّ رِيحُ

وكان المَجُوس لمَّا قدموا المريَّة ، وتطوَّفوا بساحل الأندلس والعُدْوة ، فاتَّخذها العَرَبُ مرْأًى ، وابتنَتْ بها مَحَارِس ، وكان الناسُ يَتَنَجَّعُونَها ويرابطون فيها ، وهى اليومَ أشهرُ مراسى الأندلس وأعمرُها ، ومن أجَلِّ أمصارِها وأشهرِها ، وعليها سورٌ حصينٌ منيعٌ بناه أميرُ المؤمنين عبد الرحمن ، وعلى رَبَضِها المعروف بالمُصَلَّى سورُ تراب ،

(١) ا د ص ١٩٤ — ١٩٥ (٢) ت : « وقع » . (٣) ت : « النقيرين »

بناه خَيْران العامِريُّ ، وكان قد وصَّل إلى هـذا الرَّبَض ماءَ العين التي هناك ، وأجراه في ساقيةٍ ، ثمّ وصَّله محمّد بن صُمَادِح إلى ساقيةٍ عند جامعها داخلَ المدينة ، واستطرد منه ، ولا يصبُّ في أسفل القصبة ويُرفع بالدّواليب إلى أعْلاه ؛ ووادي بَجَّانة يعمُّ بالسَّقْي بساتينَ المريَّة ، والبحر بقبليّ مدينة المريَّة ، وقصبَتُها بجوفيّها ، وهو حصنٌ منيعٌ لا يُرام ؛ مديدٌ من المشرق إلى المغرب ، ولها بابٌ قِبْليٌّ يفضي إلى المدينة ، مسافةُ ما بيْنَ أوّل المَصْعَد في الجبل وبَيْنَه مائتا ذِراعٍ وثمـانون ذراعًا ، ولها بابٌ شرقيٌّ خارجٌ عن أسوار المدينـة ، والرَّبَض متَّصِـلٌ بجبالها ، وهي أسْهَلُ مُرْتَقًى من الباب القبليّ ؛ وعرضُ مَمْشَى السورِ الدائرِ بالقَصَبَة خمسةُ أشبارٍ ، ومرسى المريَّة صيفيٌّ يكنُّ بشرقيّه وغَرْبيّهِ .

* وكانت المريَّة في أيام المُلَثَّمِين مدينةَ الإسلام ، وكان بها من كلّ الصناعات كلُّ غريبة ، وكان بها من طُرُز الحرير ثمانمائة طِراز ، يُعْمَل بها الحُلَلُ والديباج والسِّقْلاطون والإصبَهانيُّ والجُرْجَانيُّ والسُّتُورُ المُكَلَّلَةُ ، والثياب المعيَّنة ، والعتّابيُّ ، والفاخرُ[1] وصنوف أنواع الحرير ؛ وكانَتْ فيما تقدَّم يصنع بها صنوف آلات النحاس والحديد وما لا يحادّ ؛ وكان بها من فواكه واديها الكثير الرخيص ؛ وكانَت المريّة تقصدها مراكِبُ التجار من الإسكندريّة والشأم ، ولم يكن بالأندلس أكثرُ من أهلها مالاً .

والمريَّة في ذاتها جَبَلانِ ، بيْنهما خَنْدَقٌ مَعْمُورٌ ، وعلى الجبل الواحد قَصَبَتُها المشهورة بالحصانة ، وفي الجَبَل الثاني رَبَضُها ، والسورُ يحيط بالمدينـة وبالربض ؛ ولهـا أبوابٌ عدّةٌ ؛ والمدينة كبيرةٌ كثيرةُ الخيرات ، وفيها ألف فُنْدُق إلاّ ثلاثين فُنْدُقًا ؛ وكان الروم ملكوها فغيّروا محاسِنَها وسَبَوْا أهلَها وخربوا ديارَها[2] .

(١) او : « الفاجر » . (٢) ا و ص ١٩٧ .

١٧٦ — حِصْن المَنَار

بالأندلس ، قريب من مدينة لَـكُّه ، وهو مُنْتَهَى الركن الثالث من أركان الأندلس ، التى هى حدودها ؛ وهو على ضفَّة البحر المُحيط من الغرب والجوف ، وتتَّصل به الكنيسة المعظَّمة عندهم المسمَّاة عندهم بشَنْت ياقُوب . وهذا الموضع ضيّق ما بين البحرَيْن فى حدود الأندلس ، وعرضُه من البحر إلى البحر ثمانون ميلاً .

١٧٧ — مَنْدُوجَر

بالأندلس ، بينه وبين المريّة مرحلةٌ ، * وهو حصنٌ عَلَى تلّ تراب أحْمَرَ ، والمَنْزِلُ فى القرية ، ويُبَاعُ بها للمسافرين الخبزُ والسمكُ وجميعُ الفواكه[1] .

١٧٨ — مِنُرْقَة

هى جزيرةٌ تقابِلُ برشلونة ، بيْنهما مَجْرًى ، وبينها وبَيْن سَرْدَانية أربعة مَجارٍ ؛ وهى إحدى جزيرتَىْ مَيُورْقة ، وهُما مِنُرْقة هذه ويابسة . وما زالت فى يد المسلمين تحت هدنة الطاغية البرشلونىّ ومصالحته بعد أن جرى على مَيُورقة ما جرى : وكان عاملُ ابنِ يحيى صاحبِ مَيورقة المتحنِ بعذاب البرشلونىّ بعد استيلائه على مَيورقة حتّى مات رحمه الله تعالى مُقيماً بجزيرة مِنُرْقة هذه ؛ وهو سعيدُ بن حَكَم ، وقد ضبطها وقام عليها أحسن قيام ، وهَادَنَ الأعداءَ ؛ وطَالَتْ مُدَّتُه فى ذلك وحسنَتْ سيرَتُه إلى أن مات ، فقصدَهَا العدوُّ واغتنم فرصتَهَا واستولى عليها .

(١) ا و ص ٢٠١ .

١٧٩ — المُنَكَّب

بالأندلس ، مدينة المنكّب مدينة يكتنفها بشرقيّه وادٍ ونهرٌ يريق في البحر ، وعليه حصن من بنيان الأوائل ، وهي مدينة حسنة ذات سوقٍ ومساجدَ ، وفيه آثارٌ للأُوَل كثيرةٌ ، وآثار أخرى فيه دواميس مجلوبة وآثار تجري بها إلى البحر ؛ وبقرب الحصن من ناحية الشمال صنمٌ مبنيٌ من حجارة ، مربّعُ الأسفل مُحدَّدُ الأعلى ، ارتفاعُه نحو مائة ذراع وفي رأسه مثل ماء الجليد إليه ، وقد نبتت في عرض جهة الدّيماس الجنوبيّة من أعلاه إلى أسفله ، فقد سال الماء حتى وصل إلى الأرض فدلّ أنّ الماء كان مجلوباً من موضع هو أرفع من هذا الصنم .

وبهذا المرسى نزل الإمام عبد الرحمن بن معاوية عند دخوله الأندلس ، وذلك في ربيع الأول من سنة ١٣٨ ، ويقال مرسى المنكّب : مدينةٌ حسنةٌ متوسّطةٌ كثيرةُ مصايد السمك ، وبها فواكهُ جمّةٌ(١) .

قال بعض أهل الأخبار ما هو كالتفسير لما قدّمناه : « في وسط المنكّب بناءٌ مربّعٌ كالصنم ، أسفله واسعٌ ، وأعلاه ضيقٌ ، وبه حفيرانِ من جانبَيْه ، متّصِلانِ من أسفلِه إلى أعلاهُ ، وبإزائه من الناحية في الأرض حوضٌ كبيرٌ يأتي إليه الماءُ من نحو ميلٍ على ظهر قناطرَ كثيرةٍ معقودةٍ من الحجر الصّلد ، ينصبُّ ماؤها في ذلك الحوض ؛ ويذكر أوائلُ المعرفة من أهل المنكّب أنّ ذلك الماء كان يُصْعَدُ به إلى أعلى المنار ، وينزل إلى الناحية الأخرى ، فيجري هنالك إلى رحًى صغيرةٍ كانتْ ، وبقي أثرُها الآن ، ... على البحر ، ولا يُعلم ما المراد بذلك ، ومن المنكّب إلى غرناطة أربعون ميلاً(٢) .

١٨٠ - مُنْيَةُ نَصْر

قريةٌ بالأندلس قريبةٌ من قرطبة ، موفيةٌ على النهر ، وهي في شرقيها ، [illegible] بأرجاء الحَدْثاء ؛ وهي مدينةٌ فسيحةٌ ذاتُ مبانٍ رفيعة . والذي ابتنى مُنْيَة نصر الإمامُ عبد الله بن محمد . وفي ذلك يقول عُبَيد الله بن يحيى من قصيدة [illegible] [طويل] :

لَعَلّ زماني يستجدّ بودّها [illegible]

فكَمْ صدفت عنها الخُطوبُ وأحرزتْ جِنانُ العُلَى [illegible]

جفاها البِلَى إذ وكّلَ المُلْكُ رَبَّها وتمّ بها [illegible]

قريبُ المدى رحْبُ المحلّ تحفّه رياضٌ [illegible]

والركن الشرقيّ ممّا يلي القبلة من هذه المُنْيَة يعرف بالركن ، وهو يلي النهر وفيه ثمرات زيتون ؛ وبين النهر وبين الركن موضع يعرف [illegible] ، فلا يكاد يخلو منهم ، يمكثون في ظلّه ويعدمون في [illegible] . وفي ذلك يقول محمّد بن شُخَيص على [illegible] طويل [كامل] :

أَقْرِ السّلامَ على الرّكين وقُلْ له [illegible]

سقياً لظلّك بالعشيّ وبالضحى ولبَرْد مائك في احتدام سَمُوم

لو كنتُ أملك منع مائك لم يقم في ظلّ . . . . (١)

نقل في هذه الأبيات معنى شعر ابن المعتز وكثيراً من ألفاظه وهو :

اقرأ على الوَشَل السلام وقُلْ له كلّ المشارب مذ هُجِرْتَ ذميمُ (٢)

---

(١) ش : ساحلك منهم المبيم (؟) .

(٢) ليس هذا البيت من نظم ابن المعتز بل هو لأبي القمقام الأسدي (راجع معجم البلدان لياقوت في ترجمة الوشل وكذلك حماسة أبي تمّام (طبع أوربا) ص ٦٠٤) .

١٨١ — مورور

كورة مَوْرُور متّصلة بأحواز قرمونة من جزيرة الأندلس ، وهى فى الغرب والجوف من كورة شَذُونة ، وأحوازُها متّصلة بأحوازها ، وهى من قرطبة بين القبلة والمغرب ؛ وقاعدةُ قَلْب قاعدةُ مَوْرُور ودارُ الولاة بها ، وكانَتْ جباية كورة مَوْرُور أيّامَ الحَكَم بن هشام بن عبد الرحمن إحدى وعشرين ألف دينار .

١٨٢ — ميورقة

هى جزيرةٌ فى البحر الزُّقاقىّ تُسامِتُها من القبلة بجاية من بَرِّ العدوة ، بينهما ثلاثة مَجارٍ ، ومن الجوف برشلونة من بلاد أَرَغون ، وبينهما مَجْرًى واحدٌ ، ومن الشرق إحدى جزيرتَيْها مِنُرْقة ، وبينهما مَجْرًى فى البحر طولُهُ أربعون مِيلاً ؛ وشرقىّ ميورقة هذه سَرْدانية بينهما فى البحر مَجْرَيَانِ ، وغربيّها جزيرتُها يابسة بينهما مَجْرًى فى البحر طولهُ سبعون مِيلاً ؛ وميورقة أُمُّ هاتَيْن الجزيرتَيْن ، وهما بِنْتَاها ، وإليها مع الأيّام خَرَاجُهُمَا ؛ وطولُ ميورقة من الغرب إلى الشرق سبعون مِيلاً ، وعرضُها من القبلة إلى الجوف خمسون مِيلاً .

فَتَحها المسلمون سنة ٢٩٠ إلى أن تَغَلَّبَ عليها العدوُّ البرشلونىُّ وخرَّبها سنة ٥٠٨ ، وهى المرّة الأولى ، ودخل المدينة فلم يَجِدْ سوى العيال والأطفال والشيخ الفانى ، فلحسابهم أحالوا السيف عليهم ، فلما قضى وَطَرَهُ من الجزيرة أسرع بالرجوع إلى بلاده ، ثمّ اختلفَتْ عليها ولاةُ ابن تَاشُفِين ، ثمّ وليها محمّد بن علىّ بن غَانِيَة المَسُّوفىّ ، وهو أوّل ولاة بنى غانية ، ثمّ تعاقبوا على ولايتها إلى أنْ كان آخرُهم عبد الله بن إسحٰق ،

فوجّه إليه المَلِكُ الناصرُ محمّد بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن بن علىّ ، فاجتمعا بدانية ، فعرض كلٌّ واحدٍ منهما من أسند إليه ، فكان الفريقان ألفَيْ فارسٍ ومائتَيْ فارس ، والرُّماةُ سبعمائة ، والرجّالة خمسة عشر ألفًا ، غيرَ غُزَاة القِطَع ؛ وكان الأُسطول ثلاثمائة جفن ، منها سبعون غُرَابًا ، وثلاثون طريدَة ، وخمسون مركبًا كِبارًا ، وسائرُها قَوَارِب منوّعة ؛ وأمّا العُدَدُ والسلاح والمجانيق والسلالِم والمَسَاحى والفؤُوس والمَعَاول والرَّقَائق والحبال فشىءٌ لا يأخذه عددٌ ، وكذلك الدُّروع والسيوف والرّماح والبيضات والأَتراس والدَّرَق والقِسِىُّ وصناديق النشاب وجملة وافرةٌ من الطعام ؛ فصلَّوْا الجمعة بيابِسة ، وأقلعوا غُدْوَةَ السبت الرابع والعشرين من ذى الحجّة مكمل سنة ٥٩٩ ؛ فأتوا ميورقة ونزلوا ، وتقرّب العسكر من المدينة ، ودارَ الأُسطولُ بالمرسى مع السيّد أبى العُلَى .

وخرج إليهم عبدُ الله بجموعه ، فنشّبوا فى القتال ، ودافعوا كلَّ الدفاع ، وآخرَ ذلك انهزم ثمَّ صُرِع فقُتِل ، وغُلِّق باب المدينة فأحاطَتْ بها الرُّماةُ وغُزَاةُ البحر ، فتغلّبوا عليها فدُخِلَتْ ونُهِبَتْ ولم يسلم إلاّ قَصَبَتُهَا ؛ ودخل السيّد أبو العُلَى وأبو سعيد البلدَ ورأسُ عبد الله معهما على قَنَاةٍ بيد رجلٍ غُزّىّ كان قطعه ، فنهيا الناس عن النَّهْب وأمرا بضرب عنق رجلٍ فعل ذلك وخالَفَ النَّهْىَ ، وطِيفَ برأسه ؛ وأمَّنَا الناس ، ونُودِىَ بالأمن فى الأزِقَّة والقَصَبة ، فخرج الناس وأمنوا ، وكَتَبَا إلى المَلِك الناصِر بالفتح .

وكان السَّببُ فى التوجيه إلى ميورقة أنَّ المنصور يعقوب كان وجّه إلى صاحب ميورقة علىّ بن إسحٰق بن محمّد بن غانية يستدعى بيعته ، فأنِفَ من ذلك وأساء الرَّدَّ

واحتال على الرسل حتّى اعتقلهم وأودعهم فى السجون ، ثمّ تحرّك من ميورقة علىٌّ المذكور إلى بجاية ، فاحتال حتّى استولى عليها وملكها ، ولمّا تمّ له ذلك أتى الجَزَائرَ فدخلها ، ثمّ مِلْيَانَة ومَازُونَة ، ثمّ دخل أَشِير عنوةً ثمّ أَتَى القَلْعة فملكها ؛ وبعد ثلاث من دخولها كانتْ له فى العرب الحُطْمة المشهورة ، وبثّ فى هذه البلاد عُمّالاً وحُكّامًا ثمّ قَصَدَ قُسَنْطِينة فسار إليها وحاصرها أشهراً فلم يُفْلِحْ ؛ وهنا بلغه أنَّ عسكراً بَرِّيًّا ، وأُسطولاً بَحْرِيًّا هاتئذٍ أتياهُ من المغرب ، ووصل الأُسطول والعسكرُ إلى بجاية ، فأخرج نائبَه منها ، وهو أخوه يحيى ، فتوجّه إلى أخيه علىّ وهو على قُسَنْطِينة وخَلّى للقوم بلدهم ، ثمّ توجّها معاً نحو القبلة ، ومرّا بالقلعة فاستأصلاها ، ثمّ سار علىٌّ إلى قَفْصة فأخذها ، ثمّ تُوزَر ، ومع ذلك جاء عسكر المغرب فيه المنصور يعقوب ، فجهّز إليه عسكراً ، فالتقوا بوطاء عمرة ؛ فكانت الوقيعة المشهورة والهزيمة العظيمة على عسكر المنصور بعد الإثخان الكثير فى أصحابه وتبدّدوا فى الصحراء .

وكان أوّلُ خروج ابن غانية من ميورقة لذلك فى سنة ٥٨٠ ، وهى السنة التى مات فيها صاحب مَرّاكُش والمغرب يوسف بن عبد المؤمن ، ثمّ بقى علىّ بن إسحٰق وأخوه يحيى يهيمان فى تلك الجهات ؛ ولما بلغ المنصور خبر وقيعة عمرة وما جرى فيها على عسكره ، امتعض من ذلك واستبدّ برأيه ، فتوجّه بنفسه حتّى نزل على قَفْصة فحاصرها حصارًا عظيما ، إلى أن نزلوا على حكمه ، فحكم فيهم بالسيف ، وأثر فيهم الأثر الشنيع ، وهدم سورها .

ولابن مُجْبر فى ذكر ذلك قصيدةٌ مليحةٌ جِدًّا . منها [بسيط] :

ما غَيْرُ قَفْصة إلاَّ أنّها اجترمَتْ   فلم يكُنْ عند أهل الحلم تثريبُ

ما بالها زار . . . . .[1] حوزتها فلم يكُنْ عندها أهلٌ وترحيبُ

وقد ذكرنا ذلك فى حرف العين عند ذكر عمرة ؛ وبعد ذلك كلِّه مات علىٌّ بعد أن تفرّق جمعه ، قيل سهمٌ أصابه وهو على توزَر سنة ٥٨٥ ؛ وتمادَتْ ميورقة على امتناعها إلى أن توفِّى المنصور فى شهر ربيع الأوّل سنة ٥٩٥ ؛ وولى ابنه الملكُ الناصرُ فوجَّه إليها الجيوشَ وحكم عليها كما قُلْناه . ثمّ لم تزلْ ولاةُ الملك الناصر تخلّف على ميورقة إلى أن كانَتْ المصيبة العُظْمى والحادث الشنيع بهزيمة العِقَاب عليه سنة ٦٠٩ ؛ ثمَّ إنَّ الطاغيـــة البَرْشلونىَّ تحرّك إلى ميورقة عازمًا عليها ، فنزل عليها أُسطوله فى شوّال سنة ٦٢٦ ، فأراها من القتال وشدَّة الحصار وأنواع المِحَن ما لم يَجْرِ مثله فى زمان ، وحكم عليها عنوةً بعد طول الحصار والقتل والسَّبْى ، ثمَّ أَخَذَ واليها ابن يحيى فعذَّبه أشدَّ العذاب حتى مات ، واستولى الشِّرْك على الجزيرة فى عام ٦٢٧ .

١٨٣ — ميرتُلَة

مدينةٌ بالأندلس شَرقىَّ مدينة باجة ، بيْنهما أربعون ميلاً ، وهى على [وادى] آنة ، وبمقربة من شاطئ البحر مَرْسَى هَاشِم ، وهو حِصْنٌ أوّلىٌّ فيه آثارٌ قديمةٌ ، وبه كنيسةٌ عظيمةٌ بُنِيَتْ فى أيّام قسليان قَيْصَر الذى بُنِيَتْ فى أيّامه كنيسة طليطلة المعروفة بكنيسة المَلِك ، وقَيْصَر هذا أوّلُ من نسج فى ثيابِهِ وفرشِهِ الذَّهَبَ ، وهو الرابع والثلاثون من القَيَاصِرَة .

---

(١) ث و م : زار من (؟) .

حرف الواو

١٨٤ – وَادِى آش

مدينةٌ بالأندلس قريبة من غرناطة ، كبيرةٌ خطيرةٌ تَطَّرِد حولها المياهُ والأنهار ، ينحطُّ نهرُها من جبل شُلَيْر وهو فى شرقيّها وهى على ضَفَّتِهِ ، ولها عليه أرحاءٌ لاصقةٌ بسورها ، وهى كثيرةُ التُّوت والأعناب وأصناف الثمار والزيتون ، والقطنُ بها كثيرٌ ، وكان بها حمّامات ، ولها بابانِ شرقىٌّ على النهْر وغربىٌّ على خَنْدَق ، وقَصَبَتُها مُشْرِفةٌ عليها ، وعليها سورُ حجارةٍ ، وهى فى رُكْنِها الذى بيْن المغرب والقبلة .

وبقرب وادى آش قريةٌ بها عَيْنٌ تجرى سبعةَ أعوامٍ وتغور سبعةَ أعوامٍ ، قالوا : وهذا معروفٌ على قديم الزمان ، تُسْكَن بجَرَيانِ عَيْنِها وتَخْلُو بغَوْرِها .

منها عبد البَرّ بن فرسان الواديآشىّ المتّصل بعلىِّ بن غانيَـة المَيُورقىّ ، ثمّ استوزَره بعده أخوه يحيى الطويلُ الفتنةِ بإفريقية وجهاتها ، فكان صاحبَ رياسة السيف والقلَم ، وإليه تُنسب الأبيات المشهورة(١) [طويل] :

أَجُبْنًا وَرُمْحِى ناصِرِى وحسامى ... وعَجْـزًا وعزمى قائدى وزمامى(٢)
ولى منك بَطَّاشُ اليدَيْن غَضَنْفَر ... يُضارب(٣) عن أشباله ويُحامى
أَلاَ غَنِّيَـانى بالصَّهيل فإِنَّهُ ... سماعى ورقراق الدماء مدامى
وحطّا على الرّمضاء رحلى فإنّها ... مهـادى وخَفَّاق البنود خيامى

(١) راجع مو ، ج ٢ ص ٣٨١   (٢) مو : « امامى »   (٣) مو : « يحارب »

وأكثر شعره فيما يكتنى به طول مدّة الميورقىّ من الحروب ، كقوله [طويل] :

أديروا مـــدامًا للدّماء فإنّنى بها أنتشى طيبًا وبالنوح أطربُ
معيشة ليث ليس يأوى لراحة يخال إذا ما جَدَّت الحرب يلعبُ

ذكره ابن سعيد وابن بُجَيْر ، ومات بفزّان[1] سنة ٦٢٢ .

١٨٥ — وَادى الحِجَارة

وهى مدينةٌ تعرفُ بمدينـة الفَرَج بالأندلس ، وهى بين الجوف والشرق من قرطبة ، وبيْنها وبيْن طليطلة خمسة وستُّون مِيلاً .

* وهى مدينةٌ حسنة كثيرة الأرزاق ، جامعة لأشتات المنافِع والغلاّت ، ولهـا أسوارٌ حصينة ، ومياهٌ مَعِينَةٌ ؛ وبغربيّها نَهْرٌ صغيرٌ ، لها عليه بساتين وجنّاتٌ وكروم وزراعات ، وبها من غَلَّة الزَّعْفران الشيء الكثيرُ ، يتجهّز به منه ويُحمَل إلى سائر البلاد ، وبيْنها وبيْن مدينة سالِم خمسون مِيلاً[2] .

١٨٦ — وَادى لَكّه

مَوْضِعٌ من أرض الجزيرة الخضراء من ساحل الأندلس القبلىّ ، فيه التقى طارق ابن زياد مولى ابن نُصَيْر وجموعُه الداخلون الأندلس ، مع لُذْرِيق طاغية الأندلس آخرِ ملوكِ القُوطِ ، الذين عدّةُ ملوكهم بالأندلس ستّة وثلاثون مَلِكاً ؛ وكانت مُدَّةُ مُلْكِهم ثلاثمائة سنة واثنتين وأربعين سنة . ولم يكن لُذْرِيق هذا من أبناء الملوك ولا صحيحَ النَّسب فى القُوط ، إنّما اغتصب المُلْكَ وتسوّر عليه عند موت الملك الذى كان قبلَه ،

(١) ت : « بفران » (٢) ا ر ص ١٨٩

واستصغر أولاده ، واستمال طائفة من الرجال مالوا معه فانتزع الملك من أولاده ، وكانت الوقيعة سنة ٩٢ من الهجرة ، فانهزم القُوط أعظم هزيمة ، وقُتل لُذْريق ، وغلبت العربُ على الأندلس .

١٨٧ — عين وَالْقَر

بالأندلس بقربة من جيّان ، وعين وَالْقَر هذه كثيرةٌ تجرى سبعة أيّام متوالية وتفيض سبعة أيّام كذلك دائمًا .

١٨٨ — وَالْمُو

بالأندلس إقليمٌ من أقاليم قونكة وهو على نهر شُقْر ، وبإقليم وَالْمُو قريةٌ ، فيها غريبةٌ ، وذلك عينٌ راكدةٌ قد علاها الطُّحْلُب ، فإذا فاجأها إنسانٌ وصاح عليها بشدّة صياحِه دَرّتْ بالماء ، وغَلَتْ غَلْيَ البِرَام على النار ، وينقطع طُحْلُبها بشدّة غليان الماء ثمّ يعود إلى حالِه .

١٨٩ — وَبْذَة

مدينةٌ بالأندلس وهى حصنٌ على وادٍ بقرب أُقْليش ، وعلى وادى وبذة قريةٌ يقال لها بَنْتيج أهلُها نصارى ، ينعقد ماؤها فى الإناء فيصير حَجَرًا أصْفَر ، وكذلك أينما جَرَى ، وينعقد على أسنان أهلها ، ويُسْقِم عِلّة الحصىّ .

١٩٠ — وَشْقَة

مدينة بالأندلس لها سوران من حجر ، بينها وبين سرقسطة خمسون ميلاً ، ووشقة مدينة حسنة . . . .

* لها أسواق عامرة وصنائع قائمة[1] ، وأحوازها تتصل بأحواز بربطانية ، ووشقة بشرقيّ مد[ينة تطيلة . . . . وهي] مدينةٌ كبيرةٌ أوّليّة قديمة ، رائقة البنيان ، قد أُتقن سورها أتمّ إتقان ، وبها . . . . . ونهرٌ يشقّ مدينتها ويجري في حمّامَيْن من حمّاماتها ، ويسقي بفضل مائه بساتين ، وهي كريمة التُّرْبة ، ويحيط بها من جهاتها جنّات معروشة وحدائق من الثمار ملتفّة . وهي مخصوصة بطيب الكمّثرى والزعرور .

وحاصَرَ المسلمون مدينة وشقة منذ فتح الأندلس حصاراً طويلاً ، حتّى بنوا عليها المساكن ، وغرسوا الفروس ، وحرثوا لمعايشهم ، واتّصل ذلك من فعلهم سبعة أعوام والنصارى في القصبة القديمة مَحْصُورُون ، فلمّا طال عليهم الحصار استأمنوا لأنفسهم وذراريهم ، فمن دخل في الإسلام ملك نفسَه ومالَه وحرمتَه ، ومن أقام على النصرانيّة أدّى الجزية ، فليس بوشقة من أهلها المتأصّلين رَجلٌ ينتهي إلى أصلٍ صحيحٍ من العَرَب .

١٩١ — وَشْكَة

مدينةٌ بثغر سرقسطة ، منها أبو عبد الله محمّد بن أحمد الوَشْكيّ ، سَكَنَ مُرْسية ، وعاشَرَ صفوان صاحبَ « زاد المسافر » وبينهما مُراسلات ، ومن شعره [رمل] :

لَسْتُ أهْوى الجدَّ إلاّ مِثْل ماءٍ دون طحْلُبْ
والذي يلقاه يهْوَى ذاك كالهائم يطْلُبْ

[سريع] :

إنْ عَضّكَ الدَّهْرُ بأنْيابِهِ فاصْبِرْ عَسَى يَنْزِع[2] من عَضِّهِ
وذارٍ من تُبْصِرُهُ مُبْغِضاً فَرُبَّما يَضْجَرُ من بُغْضِهِ

(١) [illegible] ص ٦٨ . (٢) [illegible] .

١٩٢ — وَقَّش

قريةٌ بثغر الأندلس ، يُنسَبُ إليها أبو الوليد هشام بن أحمد بن هشام بن خالد الكِنانيُّ الوَقَّشِيُّ من أهل طليطلة ، وَلِيَ قضاء طَلَبيرة ، وعُنِيَ بالهَنْدَسَة والمَنْطِق ، مليح النادرة ؛ ذُكِر أنَّه اختصم إليه رَجُلانِ فقال أحدُهما : يا فقيه اشتريتُ من هذا اثنى عشر تَيْساً حاشاك ! فقال له : قُلْ أَحَدَ عَشَرَ ! تُوُفِّيَ بدانية سنة ٤٨٩ .

١٩٣ — وَقْعَة الحِمَار

موضعٌ من عمل إشبيلية كانَتْ فيه وقعةٌ للمسلمين على النصارى وذلك فى سنة ٦١٠ ، اتَّفق صاحب قشتالة وصاحب بلاد الجوف أن يخرجا بعسكرهما على بلاد الإسلام التى لا دافعَ عنها بجزيرة الأندلس بعد وقيعة العِقاب ، فأمّا صاحب بلاد الجوف فجاء فى الشمال إلى عمل إشبيلية فاصطلم كلَّ ما مَرَّ عليه إلى أن انتهى إلى مَرْج الحِمَار ، فخرج إليه أبو زكرياء بن أبى حَفْص بن عبد المؤمن صاحب إشبيلية بعسكر الأندلس الوافِر الذين لم تَلْحَقْهم مَعَرَّةُ العِقاب فى السَّنة الماضية ، فوعدهم ومنَّاهم وأثار حفائِظَهم ، وزحف بهم إلى العدوّ ، فأعطاه الله نعلَ النَّصْر ؛ فيقال إنّهُ قتل منهم نيّفاً على عشرة آلاف ، وامتلأت أيديهم مما كان فى عسكرهم . وكانت وقعةً تُحُدِّثَ بها زماناً ، وما زال أهلُ إشبيلية يعتزّون بما اتَّفق فيها ، فيخرجون متى همَّ عَدُوٌّ بجهاتهم ، فيرجعون إلى أبْخَسِ حالةٍ ، وأكثرهم أسيرٌ أو قتيلٌ .

حرف الياء

١٩٤ — يَابُرَة

مدينةٌ من كُوَر بَاجَة بالأندلس ، وهي قديمةٌ ، وتنتهي أحوازُ باجَة فيما حواليْها مائة ميلٍ ، ويُنسَبُ إليها ابن عَبْدون اليابُرِيُّ الشاعر ، وفي قصيدة عيسى بن الوَكيل المشهورة التي مدح بها عليَّ بن القاسم بن محمَّد بن عَشَرة قاضي سَلاَ ، التي أوَّلها [طويل] :

سَلِ البَرْقَ إذْ يَلْتاحُ مِنْ جَانِبِ البَرْقَا   أقِرْطَيْ سُلَيْمى أمْ فُؤَادي حكى خَفْقَا

ولِمْ سَيَّلَتْ تلك الغَمَامَةُ دَمْعَها   أرِيعَتْ لِوَشكِ البَيْنِ أم ذَاقَتِ العِشْقَا

يقول فيها :

غَرِيبٌ بأرْض الغَرْبُ فُرّق قَلْبُهُ   فآوَتْ سَلاَ فَرْقًا ويابُرَةٌ فَرْقَا

إذا ما بكى أوْ نَاحَ لم يَلْقَ مُسْعِداً   عَلَى شَجْوِهِ إلاَّ الغَمائمَ والوُرْقَا

ومنها في المدح :

حَيَاءٌ يغضُّ الطَّرْفَ إلاَّ عن العُلَى   وعِرْضٌ كماءِ المُزْنِ في الحَزْنِ بل أنْقَا

وفَضْلٌ نميرُ الماءِ قد خَضَّر الرُّبا   وعَدْلٌ مُنيرُ النَّجْمِ قد نوَّر الأُفْقَا

بَلَغْنا بنُعْمَاك الأمانيَّ كلَّها   فما بَقِيَتْ أُمْنِيَّةٌ غيْرَ أن تَبقَا

وسبب مَدْحِهِ له بهذه القصيدة أنَّه كان مستعملاً بغرناطة في الدَّولة اللَّمْتُونيَّة ، فحُكِيَ أنَّهُ انكَسَرَ عليه مالٌ جليلٌ يبلغ عشرة آلاف دينارٍ ، فقُبِضَ عليه ، وأُشْخِصَ مَنْكُوباً إلى مَرَّاكُش ، فلمّا بلغ الموكَّلُون به مدينة سَلاَ ، وبها يومئذٍ بنو القاسِم المعروفون ببني عَشَرة ، رِبَاب السماح ، وأرباب الأمداح ، قال هذه القصيدة

يمدح القاضي أبا الحسن منهم ، ويستجيرُ به ، وسأل إيصالَها إليْه ، فبادر عند الوقوف عليها إلى المخاطبةِ بتَضَمُّن المال وتَحَمُّله ، وسؤَال الصَّفْح عنه والإبقاء عليه بإعادته على عمله ، فصار جوابُه الإسعاف والإسعاد ، وعاد ابن الوكيل إلى غرناطة(١) .

١٩٥ — يَابسَة

جزيرةٌ تَلِي جزيرةَ ميورقة ، ويقال لهذه الجزيرة ولمنورقة بالنون ، بِنْتَا جزيرة ميورقة .

* وهي جزيرةٌ حسنةٌ كثيرةُ الكروم والأعناب ، وبها مدينةٌ حسنةٌ صغيرة مُتحضّرةٌ ، وأقرب برٍّ إليها مدينة دانية ، بيْنهما مَجْرًى والمَجْرَى مائةُ ميلٍ(٢) ، وفي شرقيّ يابسة جزيرة ميورقة بينهما مَجْرًى .

وبجزيرة يَابسة عشرة مَرَاسٍ ، وبها أنهارٌ جارية ، وقُرًى كثيرةٌ ، وعمائرُ متّصِلةٌ ، وأرضُهَا يُنْبِتُ الصنوبر الجيِّدَ العودِ للإنْشَاء وعُدَّةِ المراكب ، وبها ملَّاحةٌ لا ينفد ملحُها ، ويتّصل بها في القبلة جزيرتانِ ، بينهما وبيْنها مَجَازَات تُسَمَّى الأبواب .

١٩٦ — يَبُورَة

مدينةٌ بالأندلس بينها وبين مدينة القصرين مرحلتان .

١٩٧ — يَنَشْتَة

حِصنٌ من حصون الأندلس ، على نحو مرحلتَيْن من جَنْجالة التي تُعمل فيها البُسُطُ .

---

(١) أكثر هذه الترجمة منقول من كتاب إعتاب الكُتّاب لابن الأبّار ، راجع النسخة المخطوطة المحفوظة بالمكتبة العامّة برباط الفتح رقم ٤٠٩ ص ٩٩

(٢) ار ص ٢١٤ .

[وإليها[١] يُنْسَب أبو العبا] س اليَنَشْتِيُّ صَاحِب سَبْتة ، كان قيامه فيها سنة ٦٣٠ ، ويلقّب بالمُوَفَّق [وكان أمرُه بها] مستقيماً بَرًّا وبَحْراً ، يُخَافُ ويُمْدَح ويُقْصَد ويُخَاطِبُه الملوكُ من البِلاد إلى أن اغترّ بـ [....] بن مسعود الكُومِيّ من جِهَةِ الزُّهد واطِّرَاحِ الدُّنْيا ، فكان إذا وَرَدَ سَبْتَةَ يُكْرِمُهُ ويُنْزِ [له و ....] ه السماع ويتبرَّكُ به ، ويستريحُ إليه ، وهو فى أثناء ذلك يعلم القلوب المائلة إليه ، والقلوب المتغيّرة عليه ، ويتأمَّل الأماكِنَ التى يدخُل منها إلى إفساد دولته وإعادتها [إلى بنى عبد] المُؤْمِن ، حتَّى اطَّلع من ذلك على المطلب ، وظَفَر بالغَرَض ، ولم يشعره اليَنَشْتِيُّ المُغْتَرُّ بزُهْد [ه حتَّى] ثَارَ عليه سِلْكهُ ، وابْتَزَّ منه مُلْكَهُ ؛ فَصَبَّحَهُ بِمِثْلِ رَاغِيَةِ البَكْرِ ، وجاء مع جيش من قبل [المَلِك الرشيد] عبد الواحد ، فخرج جندُه القليلُ ورجالهُ وعَامَّةُ أَهْل سَبْتَةَ فَحَمَلَ عليهم [الجيشُ] حملةً فُقِدَ فيها من السَّبْتِيين نحو ستمائة ، وتَخَاذَلَ الباقُونَ فهلك عليه [الأهل] والولد وألْقى اليَنَشْتِيُّ يده فخَلَعَ نفسه ، وقُيِّدَ مع جماعةٍ من أَهْل سبتة [فكان] وثوب على مثل ما وثب عليه اليَنَشْتِيُّ ، وكان له وَلَدَانِ فاختفى الأكبرُ محمَّد [فكان خـ] لوصُه إلى البحر ، ثم حبْسُهُ بجاية ، ثمَّ وصولُه بالإسكندريّة ولحوقهُ باليَمَن [وموتُ] أبيه فيقال إنَّ وباءً جارفاً كان بحضرة مَرَّاكُش أَهْلَكَ الجميع من الغُرَباء ؛ [وقيلَ إنَّه و] الولَد هَلَكا بشربة لبن ؛ واستمرَّتْ بسَبْتَةَ دولةُ الرشيد عبد [الواحد إلى] آخر أيامه.

وكان أبو العباس هذا سلك مَسْلَكَ الأُدباء ....[٢]

وهو يقول وقد رآه على فَرَسٍ عتيقٍ وعليه ثيابٌ ملوكيَّةٌ و [تكنَّفته الرجال] بالرماح وبجانبَيْه الحجَّابُ : ذا العار بن العار يُرِيدُ أَنْ يَحْكِي بنى عبدالمؤمن ! فمازال ... العار من

(١) لم توجد هـذه الترجمة إلا فى ت فى آخر النسخة وفيها بتر كثير لخرق وقع فى طرف الورقة .

(٢) خرق نحو سطرين .

لايحكى بنى عبد المؤمن ؟ ثمَّ خَلَّى سبيلَه فلم يُصْبح المرَّا كُشىُّ إلاّ فى طريق مرَّا كُش . . . وكان من جهةٍ أخرى فى نهايةٍ من الغيرة على المُلْكِ ، بَلَغَهُ أنَّ طلحة بن الشرقىّ من أقا [ربِ بنى] عبد المؤمن قد قال : لو كان فى سَبْتة رَجُلٌ ما مَلَكَها هذا ! وأشار إليه فأَحْضَرَهُ وقال : زَعَمْتَ [ألاّ بِسبْ] تَة رَجُلٌ ؟ وأنا أُكَذِّبُكَ ! احملوه وغرِّقوه فى اللُّجَّة ! فَحُمِلَ فِى زَوْرَقٍ وَغُرِّق .

« انتهى »

ما تَضَمَّنه كتاب الروض المِعطَار من صِفَةِ الجزيرة الأندلسيّة وذِكْرِ كُوَرِها وثُغُورِها ومُدُنِهَا وَأَقَالِيمِها ، والبلاد النصرانيّة المُصَاقِبة لهَا ، وما اشتهر بها من العجائب والآثار ، والوقائع والأخبار .

فهرس الأعلام الجغرافيّـــة الأندلسيّة

(ا)

(ك)

(ى)

فهرس الأعلام الجغرافيّـــة غير الأندلسيّة

فهرس أسماء الرجال والنساء

فهرس أسماء القبائل والعشائر والأجناس

فهرس أسماء الكتب المذكورة

فهرس الأبيات المذكورة